الكتب

وجهات نظر

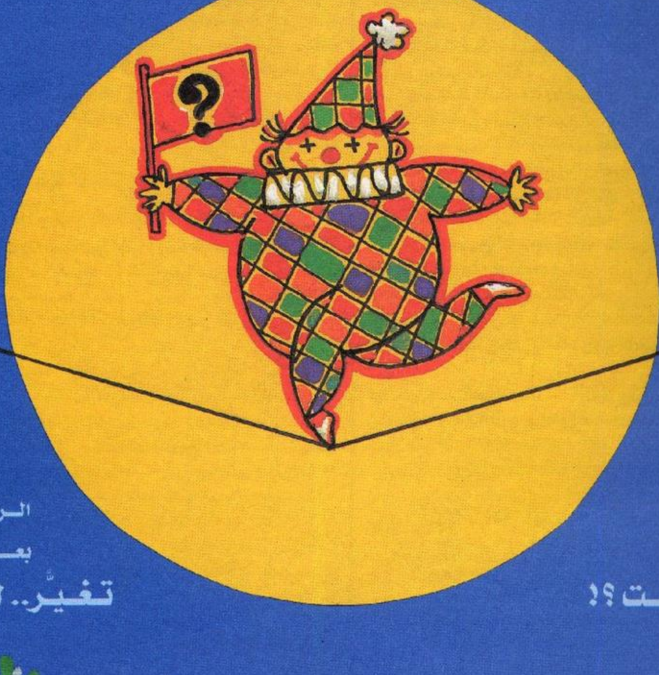
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 5 - Issue 56 - September 2003

مجلة شهرية . العدد السادس والخمسون . السنة الخامسة . سبتمبر ٢٠٠٣ . الثمن عشرة جنيهات

القوات المسلحة فى السياسة الأمريكية

محمد حسنين هيكل



الريف المصرى

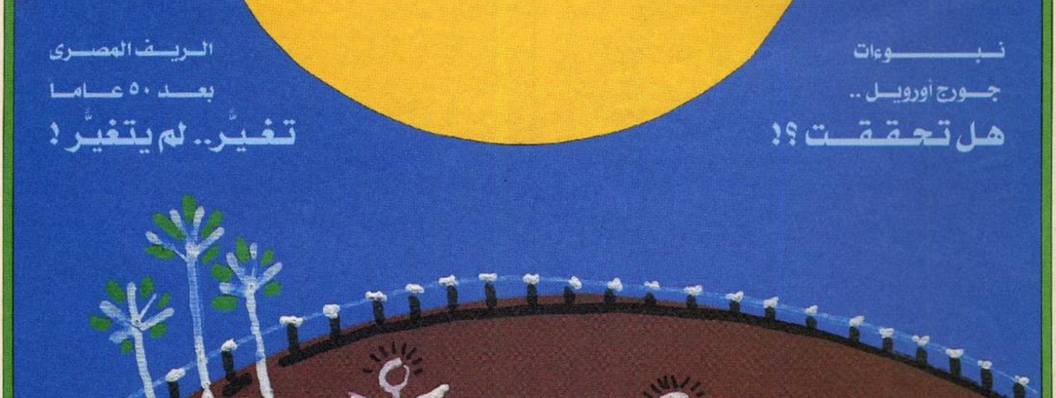
بعد ٥٠ عاما

تغيَّر.. لم يتغيَّر !

نبوءات

جورج أورويل ..

هل تحققت ؟!



الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

السنة الخامسة
العدد السادس والخمسون
سبتمبر ٢٠٠٣

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد:

كاتبو العدد:

- أحمد عثمان .. باحث في التاريخ المصري القديم.
- أيمن الصياد .. صحفي.
- حسن حنفي.. أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفي.
- سهير إسكندر.. صحفية.
- صبري حافظ .. أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة لندن.
- عاصم الدسوقي.. أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة حلوان.
- عزالدين كامل.. مستشار تحرير جريدة التعاون.
- فاروق شوشة .. شاعر وإذاعي.
- ليلى إبراهيم أبو المجد.. أستاذ الدراسات العبرية بجامعة عين شمس.
- مارجريت أتوود.. أديبة وناقدة أمريكية.
- محمد حسنين هيكل .. صحفي.
- يوسف الشريف .. صحفي.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجي - سعد الدين شحاتة - أحمد اللباد

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e--mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولاراً أمريكياً - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكياً - أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكياً - باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٨٥٤٦ - e-mail: weghat@alkotob.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهماً - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالاً - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهماً - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

القـــوات المســلحة

مقدمة

هذا الحديث يتعرض لمسألة شديدة الأهمية والحساسية، وهى العلاقة بين «السياسة والسلاح» فى الحالة الأمريكية الراهنة ـ أى بين إدارة الرئيس «جورج بوش» (الابن) وبين هيئة أركان الحرب المشتركة للقوات المسلحة الأمريكية فى شأن ما جرى ويجرى فى العراق ـ وفى غيره بعده.

● وسبب الأهمية مفهوم ـ ومرجعه أنه فى مشروع إمبراطورى يهدف إلى تثبيت التفوق الأمريكى وتحويله إلى سلطة عالمية تفرض سطوتها على القرن الحادى والعشرين (على الأقل) ـ فإن السلاح له الدور الرئيسى فى كافة مراحل التخطيط والتنفيذ والتأمين، وتلك طبيعة الامبراطورية. ومعنى ذلك أن حوار السياسة والسلاح فى واشنطن ـ أخذا وردا ـ شدا وجذبا ـ له تأثيرات مهمة وواسعة لا تقتصر على واشنطن وحدها، وإنما تمد انعكاساتها ونتائجها إلى الساحة العالمية الأوسع.

● وسبب الحساسية مفهوم أيضا ـ وملخصه أن هذه العلاقة بين السياسة والسلاح ـ سواء فيما جرى ويجرى فى العراق وبعده ـ مسألة مُحاطة بالسرية والصمت. ومع أن الكثير من التفاصيل فى هذا الشأن تسربت، فإن المشكلة أن بعض التسريب كان مقصودا لكى تسبق الانطباعات وتؤثر، ثم إن بعضه الآخر كان مغلوطا حتى تتداخل الروايات، وتهتز الصور، ويختلط السياق، وتمتلئ الأجواء بضباب يتم تحت ساتره ترتيب الأشياء، ومن ثم تستقر القواعد الطارئة كأمر واقع يصبح بدوره قانونا يعطى للمؤسسة العسكرية الأمريكية دورا مختلفا فى مشروع إمبراطورى شديد الجرأة ـ جامع القصد!.



محمد حسنين هيكل

وبسبب هذه «الأهمية» وهذه «الحساسية» ـ فإن أى كاتب صحفى يجد نفسه أمام مأزق مزدوج:

ـ أهمية العلاقة بين السياسة والسلاح فى الشأن الإمبراطورى القادم ـ لا تسمح بتجنب الموضوع.

ـ والحساسية التى تحيط به سرية وصمتاً ـ لا تمكن بسهولة من النفاذ بعيدا فيه بثقة متأكدة مما تقول (خصوصا بالنسبة لصحفى عربى عابر مهما بلغ حسن ظنه فى قيمة مصادره.

وإزاء هذا المأزق ـ ومن باب الإنصاف للحقيقة وللقارئ معا، فقد كان واجبا أن توضع لسياق هذا الحديث حدود ظاهرة تفرق على سياقه بين ثلاثة عناصر:

١ ـ معلومات أكيدة ـ تتلاقى عندها درجة من الإجماع أو يعززها ظهور أوراق ترجح وأحيانا تقطع.

٢ ـ شهادات مسئولة ـ يمكن قبولها اعتمادا على إطلاع أصحابها وصلاتهم ـ حتى وإن تعذر لأسباب بدهية إسنادها إلى مصادرها.

٣ ـ استنتاجات ـ يقع التوصل إليها بالنظر فى المنطق الداخلى للوقائع ـ ويكون منها ما يكفى بقدر من الحدس المأمون جسورا بين المعلومات والشهادات، بحيث تتسق الصور وتتكامل.

وهدف هذه الحدود فى النهاية أن يكون أمام قارئ هذا الحديث حقه فى المعلومات، وحقه فى تقدير ما يُعرض منها عليه، وحقه فى وزن الحوادث بمعياره المستقل ومنظوره، وكذلك كان الحرص على الإشارة خلال السياق لنوعية كل عنصر من عناصر الحديث ـ تنبيها مسبقا ـ يحاول أن يكون مسئولا.

هيكل

* * *

أولاً:

الجنرال يقفز بالباراشوت لتهدئة أعصابه

من ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وحتى ٢٩ يناير ٢٠٠٢، كانت القوات المسلحة الأمريكية تخوض حربا فى أفغانستان هدفها إسقاط نظام طالبان وزعيمه «الملا عمر» وتصفية تنظيم القاعدة وزعيمه «أسامة بن لادن».

ومع ذلك فإن رئاسة هيئة أركان الحرب المشتركة فى واشنطن ظلت تعتقد أن إدخالها فى الحرب على الإرهاب إقحام لها فيما هو خارج اختصاصها ووسائلها. فالإرهاب ـ فى تقديرها ـ اختصاص أصيل لوكالة المخابرات المركزية ولمكتب التحقيقات الفيدرالى، وأما القوات المسلحة فإنها تستطيع على أحسن الفروض أن تساعد بضربات صواريخ موجهة من بعيد تزعج وتخيف، وقد تزيد على ذلك ـ تطوعا ـ بدفع مجموعات من القوات الخاصة إلى بعض المواقع تبعثر أو تدمر. لكن تلك تظل عمليات جانبية ذات مقاصد محدودة، يصعب اعتبارها مجهودا رئيسيا فى حرب.

وبصرف النظر عن الاختصاصات فإن القوات الأمريكية المسلحة استُدرجت ـ ليس فقط ـ خارج اختصاصها، وإنما أيضا خارج عقيدتها المعتمدة منذ حرب الخليج سنة ١٩٩١، والتى اشتهرت «بعقيدة باول» على اسم واضعها الجنرال «كولين باول» رئيس هيئة الأركان المشتركة (ووزير الخارجية الآن).

والحاصل أن هيئة الأركان المشتركة «تهاودت» مع الاستدراج بظن أنها «مضطرة إلى قدر من المرونة يستجيب لدواعى السياسة» وضغوطها بعد مفاجأة سبتمبر ٢٠٠١. فلم يكن معقولا بعد حدث من ذلك الحجم أن تظل القوات الأمريكية المسلحة بعيدة عن «ردود أفعاله» بدعوى أنه ليس اختصاصها، ولا أن تتمسك «بعقيدة باول» بظن أنها شرط العمل العسكرى فى الزمن الجديد.

كانت هيئة أركان الحرب المشتركة تدرك منذ البداية أن حربها فى أفغانستان معركة مع أشباح، وضد عدو يصعب الإمساك به، لأن القتال معه بلا جبهة ـ وبلا خطوط ـ وبلا منشآت اقتصادية وعسكرية وعقد مواصلات يمكن التركيز عليها. ومع ذلك فإن رئاسة الأركان قبلت بشيء مما طلب منها، وفى تقديرها أن المهمة «غطاء بالسلاح لجهد تقوم به وسائل العمل السرى لبلوغ المقصود سياسيا».

ثم حدث أن هيئة الأركان المشتركة وجدت نفسها فى موضع اللوم بادعاء أنها لم تقدم للسياسة ما يسترها، ورغم أن نظام طالبان اختفى فقد كان واضحا لمن يريد أن يرى أن ذلك النظام تفكك وتفرق، لكن أعضاءه وأنصاره تحولوا من تجمعات فى الجبال إلى ذرات رمل على السفوح والوديان، كما أن «أسامة بن لادن» نفسه تبخر وانقلب من زعيم إرهابى إلى شخصية تليفزيونية تشد اهتمام الرأى العام فى الحالتين، وذلك فى حد

فى السياسة الأمريكية!

ذاته يكفيه. لأن الإرهاب بالدرجة الأولى فعل يعتمد التأثير النفسى المدوى أكثر مما يقصد إلى العمل العسكرى المنظم.

....

....

وكان وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» هو الذى عرض موقف رئاسة الأركان المشتركة أمام الرئيس «بوش» فى اجتماعات مجلس الأمن القومى، بمقولة أنه لا يستطيع مع الظرف الموضوعى الراهن فى أفغانستان أن يطالب القوات المسلحة بأكثر مما فعلته. ومع أنه كان أول من ضغط عليها لكى تحقق نتائج أكثر إبهارا، إلا أنه الآن أول من يدرك استحالة مطالبتها بالزيادة، لأن «أفغانستان» ليس فيها هدف واحد يثير خيالا أو يغرى بجائزة. فقد كانت فى «أفغانستان» تسعة أهداف تم ضربها، وجرت العودة إليها مرة ومرات، والآن أصبح التكرار أضحوكة، وإذن فلابد من ميدان آخر غير «أفغانستان» تثبت فيه القوة الأمريكية اقتدارها، وكان «رامسفيلد» ومعه مجموعته الإمبراطورية - يضع عينه على العراق، وكان تعبيره فى محضر مجلس الأمن القومى (١٤ - ١٥ سبتمبر ٢٠٠١) «إننا كلما رفعنا الـ «بير سكوب» (منظار الغواصة) فوق سطح الماء، وأدرنا البصر على عرض البحر حولنا، لا نجد هدفا أنسب من العراق». وفى تأكيده لرؤيته ذكر «رامسفيلد»:

١ - الدول المساندة للإرهاب هى الأهداف الأولى بالعقاب، لأنها أساس البلاء ومصدر التهديد.

٢ - أن هناك ذريعة مشروعة لحرب العراق تتمثل فى أسلحة الدمار الشامل التى يملكها ذلك البلد ويمكن أن تصل عن طريقه إلى أيدى الإرهابيين.

٣ - أن العراق فى قلب المنطقة الحيوية للمصالح الأمريكية (الموقع والبترول وإسرائيل!)، وهو من موقعه فى هذه المنطقة يهدد أصدقاء تقليديين للولايات المتحدة، وكذلك فهو بكل المعايير يستحق وصف «الدولة المارقة»!

٤ - أن العراق منهك ومعزول ويسهل الاستفراد به وإسقاط نظامه، كما يمكن للولايات المتحدة أن تعتمد فى جهدها على تحالف دولى وإقليمى يتعاون أطرافه معها بقواتهم وأموالهم وقواعدهم ومخابراتهم.

٥ - وأن فى العراق أهدافا كبيرة يمكن ضربها بعمليات مبهرة، كما أن فى العراق جوائز هائلة يمكن الاستيلاء عليها بأقل تضحيات متصورة.

وحتى شهر يناير ٢٠٠٢ لم يكن «دونالد رامسفيلد» - رغم جهده «التبشيرى» بأفضلية نقل المعركة من «أفغانستان» إلى «العراق» - قد لقى الاستجابة التى توقعها. وكان الجميع فى مجلس الأمن القومى يرون وجاهة ما يطرح ويوافقون عليه، مع خلافهم على التوقيت، أى أن ما يطلبه «رامسفيلد» ليس الآن وقته، بل موعده لاحق - بحسب ما تجىء به التطورات.

....

....

ثم وقع أواخر سنة ٢٠٠١ أن «كارل روفى» مستشار الرئيس الأقوى للشئون الداخلية، ومسئول حملته الانتخابية - تحسب مبكرا إلى أن «أفغانستان» لن تنفع الرئيس فى الانتخابات القادمة للتجديد سنة ٢٠٠٤، خصوصا أنه لا يتوقع مفاجآت سارة فى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وعليه فإن العثور على نجاح ساحق خارجى يصبح مسألة ضرورية، وعندما راح «كارل روفى» يبحث ويستقصى - توصل هو الآخر بعد لقاءات مع «دونالد رامسفيلد» إلى أن العراق هو المسرح المهيأ.

وكذلك فإن خطاب حالة الاتحاد الذى قدمه الرئيس «جورج بوش» أمام مجلس الكونجرس يوم ٢٩ يناير ٢٠٠٢ أطلق شعار «محور الشر»، موجها أصبع الاتهام بالتحديد إلى العراق وقائلا بالنص: «إن الولايات المتحدة الأمريكية لن تسمح للنظام الأشد خطورة فى العالم أن يهددها بواسطة أسلحة الدمار الشامل التى يملكها ويطورها ويقدر على استخدامها».

وكذلك رُفعت من فوق الشاشات خريطة «أفغانستان» وظهرت خريطة «العراق»، وغامت صورة «أسامة بن لادن» ولمعت صورة «صدام حسين»!.

....

....

كان خطاب الرئيس «بوش» عن حالة الاتحاد يوم الثلاثاء (٢٩ يناير ٢٠٠٢) - وصباح يوم الجمعة أول فبراير تجمع رؤساء أركان الحرب فى مكتب وزير الدفاع على موعد معه فى «البنتاجون» وبدأ



«رامسفيلد» حديثه معيم «بأن اللعبة الآن في ساحة العراق، والقوات المسلحة الأمريكية - وليس أي طرف غيرها - هي اللاعب الأساسي، وعليها أن تكسب المباراة هناك وتفوز بالجائزة».

ولم يكن ما قاله وزير الدفاع مفاجئا للقادة وبالذات لرئيس الأركان الجديد الجنرال «ريتشارد مايرز» فقد كان (مثل سلفه الجنرال «هيوشيلتون») - يتابع كواليس السياسة في «واشنطن» ويعرف أن مهمة غزو العراق في طريقها إليه (وكان الجنرال «مايرز» أهدأ أعصابا من سلفه الذي كان مستشارا معظم الوقت من رئيسه (وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد») بما يسوقه بعد كل لقاء بينهما للذهاب إلى قاعدة جوية قريبة من واشنطن ليقفز بالباراشوت (وتلك هوايته)، حتى تهدأ أعصابه بينما هو ينزلق من الجو عشرين أو ثلاثين دقيقة - ويلامس الأرض وقد استعاد لطف مزاجه، وأصبح مستعدا لتحمل كل الناس بمن فيهم «دونالد رامسفيلد»).

ومضى وزير الدفاع، ذلك الصباح في واشنطن - يشرح لرئيس أركان الحرب المشتركة وزملائه رؤيته للضرورات ويطلب منهم الاستعداد لحملة عسكرية على العراق، يريدها فكرا جديدا بالكامل وعملا يناسب المسرح المهيأ هناك، مع وجود إمكانيات أمريكية لم تكن متاحة من قبل، ضد عدو لا يملك وسائل سلاح فعال، لأن ما لديه من عتاد (بما في ذلك الطيران والدفاع الجوي والمدرعات ووسائل الاتصالات)، عمره ما بين خمسة عشر إلى عشرين عاما.

وتوسع «رامسفيلد» في شرح تصوره في التحضير للعمل المحتمل، مركزا على مجموعة نقط مجملها:

- أن الولايات سوف تعمل في إطار الشرعية الدولية بأن تطلب عودة المفتشين الدوليين إلى العراق ليكملوا مهمة نزع أسلحة الدمار الشامل التي لم يتمكن السفير الاسترالي «ريتشارد بتلر» من إتمامها، وفي نفس الوقت تحري ما قد يكون العراق أضافه إلى ترسانته من أنواع هذه الأسلحة خلال أربع سنوات توقفت فيها عمليات التفتيش.

- أن العراق سوف يرفض استقبال بعثة مفتشين جدد يرأسها «هانز بليكس» وزير خارجية السويد السابق، وشاهده أن الحكومة العراقية رفضت مجرد السماح لـ «بليكس» بزيارة «بغداد» للتباحث مع المسئولين فيها، ومعنى الرفض أن النظام العراقي سوف يتم ضبطه متلبسا في حالة تمرد على الشرعية الدولية، وعندها يقوم تحالف دولي يفرض على «بغداد» احترام إرادة مجتمع الدول.

- أن الولايات المتحدة سوف تكون المسئول الرئيسي عن «العمل الدولي بالقوة» كما حدث في المرة الأولى أيام حرب الخليج، فتلك طبائع الأمور.

زاد «رامسفيلد»:

«إنه يريد طمأنة هيئة الأركان المشتركة إلى أن الحرب سوف تكون مشروعة، بقرار من الأمم المتحدة وإعلان صادر عن مجلس الأمن.

كذلك فإن أسلحة الدمار الشامل التي يملكها العراق، والتي توقف التفتيش عليها قرابة أربع سنوات تمثل خطرا مؤكدا يوفر للولايات المتحدة حقها القانوني والأخلاقي في استعمال السلاح.

أي أن الولايات المتحدة لن تنفرد بقرار الحرب وحدها، وإنما سوف تكون هناك على رأس تحالف دولي يمثل إرادة أوسع - تضم عددا من الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن.

أضاف «رامسفيلد» متحفظا بما مؤداه:

● أنه ليس مؤكدا أن كل الأطراف الدولية سوف تدخل المعركة الجديدة بنفس «الحماسة» التي دخلت بها سنة ١٩٩١ لعدة أسباب:

- لأن بعض الدول اعترتها الوساوس بعد انتهاء الحرب - ١٩٩١ - بأن الولايات المتحدة كانت هي التي تفردت بالمنطقة ومواردها.

- كما أن بعض الدول قد لا ترى في الخطر العراقي ما تراه الولايات المتحدة، ومن ثم تميل نحو الانتظار حتى تجيء نهاية النظام العراقي بالسقوط من الداخل نتيجة للحصار وعواقبه.

- ثم إن دول الإقليم الصديقة للولايات المتحدة سوف تكون جاهزة لما يطلب منها، لكنها في الغالب لن تكون مندفعة للحرب بنفس المقدار الذي كانت عليه سنة ١٩٩١، حين كانت مستفزة بغزو العراق للكويت.

ومعنى ذلك أن كل دول الإقليم الصديقة سوف تقدم قواعدها وتسهيلاتها لأي عمل أمريكي، لكن من المشكوك فيه أن تكون بينها دولة مستعدة للمشاركة عمليا بقوات على الأرض.

وهو يتذكر أن زعماء هذه الدول كانوا في المرة الأولى سباقين للحرب باسم تحرير الكويت، لكنهم عندما تحقق ذلك تحفظوا على تقدم قواتهم في أرض عراقية!

- أضاف «رامسفيلد»: «إن لدينا حلفاء داخل العراق نفسه، وربما يقاتل بعضهم معنا لأسبابه الخاصة»:

● «تركيا» موجودة في الداخل وعلى أي حال فإن «تركيا» لديها حسابات.

● «الأكراد» لهم شبه دول مستقلة في الداخل وهم حريصون على تدعيمها، وقد يفضلون المراقبة قبل المشاركة.

● «المعارضة العراقية» وأنصارها في الداخل وسوف يتحركون بالتأكيد، لكن المسألة هي حجم قدرتهم بالتحديد.

ومعنى ذلك في النهاية (كذلك استخلص «رامسفيلد») أن أي تخطيط واقعي لعملية عسكرية عليه أن يأخذ في حسابه أنها سوف تستند إلى تحالف دولي وعربي وعراقي عريض، لكن الفعل على الأرض سوف يكون إلى حد كبير أمريكيا، ثم زاد «إننا متأكدون أن بريطانيا سوف تشارك معنا، ولكن بقوات محدودة».

....

....

وقرب نهاية حديثه قال «رامسفيلد» وهو يضغط على العبارات والكلمات إنه «يريد أن يحذر هذه المرة من الخطأ الشائع الذي يقع فيه التخطيط العسكري دائما، وهو التفكير في الحرب الماضية، لأن الظروف في السنوات الإحدى عشرة بين الحربين تغيرت على نحو يجعل «التماثل» مستحيلا».

أضاف «رامسفيلد» أنه لا يريد أن يزيد على ما قال لأنه يخشى أن يصادر أفكارا خلاقة لدى الجنرالات، لكنه يشدد على أن الظروف تستدعي خيالا يتجاسر على ما لم يسبق التفكير فيه، وهو من جانبه يستطيع أن يتصور عملية «رشيقة القوام» Lean تنجز المهمة المطلوبة في الظروف المعروفة، وترسمها معركة خاطفة تحقق هدفها دون أعباء فادحة وخسائر بشرية كبيرة، ولا يكون لها صدى في الداخل يسمح لبعض المترددين (وهم هناك دائما) - بأن يستعيدوا ذكريات «فيتنام» وعقدها التي مازالت مترسبة في الوعي الأمريكي!

وكان آخر ما قاله «رامسفيلد» للقادة في ذلك الاجتماع أنه «يرجوهم أن لا يركزوا جهدهم على تحريك جبال من الفولاذ بلا داع (وكان يقصد حشد الفرق المدرعة)».

وفي الأيام والأسابيع التالية كان بعض ما توقعه «رامسفيلد» بشأن رفض العراق لعودة المفتشين إليه يتحقق فعلا:

- يوم ١٣ فبراير (٢٠٠٢) أعلن نائب الرئيس العراقي «طه ياسين رمضان» أن العراق لن يسمح بعودة المفتشين الدوليين إلى أراضيه، لأنه ليس هناك سبب لعودتهم غير التجسس على العراق، فالكل يعرف أن العراق خال من أسلحة الدمار الشامل، «وأنه إذا أرادت الأمم المتحدة إرسال جواسيسها إلى العراق لصالح الولايات المتحدة، فإن العراق - عمارسا لسيادته - لن يسمح لهم بالعودة».

ولم يكن ذلك منصفا للأمم المتحدة ولا لأمينها العام «كوفي أنان» الذي كانت علاقاته واتصالاته تمكنه من متابعة ما يجري في واشنطن، وكان بعض ما سمعه يثير قلقه، وقد كشف «كوفي أنان» عن مخاوفه لبعض الدول ذات العلاقة القريبة من «بغداد»، وضمنها «روسيا» و«فرنسا» طالبا تدخلها لإقناع الحكومة العراقية بقبول التفتيش الدولي على منشآتها العسكرية والمدنية التي يمكن أن تكون موضع اشتباه في صناعة أسلحة كيماوية أو جرثومية.

وفي قول «كوفي أنان»: «إنه في تلك اللحظة لم يكن يمارس حرب أعصاب على «بغداد»، وإنما كان رجلا يلمح الخطر من بعيد ويحاول تجنبه، ثم إنه حين أبلغته باريس أن المشكلة الحقيقية ليست في الأمم المتحدة، وإنما في «شك مستحكم» لدى النظام العراقي بأن الولايات المتحدة تتقصده، وأن رئيسها الحالي (جورج بوش) مصمم على افتعال الذرائع لضربه - فإن الأمين العام للأمم المتحدة وجد من حسن التصرف أن يطمئن العراق علنا، فأصدر يوم ٢٤ فبراير تصريحا قال فيه: «إن أي عملية لغزو العراق وإزاحة نظامه سوف تكون عملا غير حكيم Unwise».

وكان «كوفي أنان» يريد بذلك أن يؤكد لبغداد استقلاليته، ويطمئنها إلى أن المفتشين العائدين لن يكونوا جواسيس «المنظمة الدولية» لحساب الولايات المتحدة الأمريكية.

كان الجنرال «مايرز» أهدأ أعصابا من سلفه «هيو شيلتون» الذي كان مستشارا معظم الوقت من رئيسه «دونالد رامسفيلد»، بما يسوقه بعد كل لقاء بينهما للذهاب إلى قاعدة جوية قريبة من واشنطن ليقفز بالباراشوت، حتى تهدأ أعصابه بينما هو ينزلق من الجو عشرين أو ثلاثين دقيقة - ويلامس الأرض وقد استعاد لطف مزاجه، وأصبح مستعدا لتحمل كل الناس بمن فيهم «دونالد رامسفيلد»!

نظرية «رامسفيلد» لـ: نصف الحرب!

■ ■ مضت الحوادث في واشنطن ترسم لنفسها مسارا مستقلا لا ينتظر أحدا، ويوم الاثنين ٨ أبريل (٢٠٠٢) كان وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» على موعد (الساعة ٨ صباحا) في «البنتاجون» مع هيئة أركان الحرب، ومع عدد من كبار مستشاريها، وكانت رئاسة الأركان قبلها بأسبوع قد أرسلت إلى مكتبه مقترحاتها في شأن التكليف الذي أعطاه لها (أول فبراير ٢٠٠٢).

وطبقا لرواية أحد كبار المستشارين (لزميل له في قيادة حلف الأطلنطي بعد عشرة أيام من الاجتماع)، فإن وزير الدفاع «رامسفيلد» دخل إلى القاعة «المؤمنة» و«المعزولة» في مبنى «البنتاجون» - يحمل ملفا كبيرا يضم مشروع خطة «غزو العراق» كما أرسله إليه الجنرال «ريتشارد مايرز» وفوق الملف مجموعة أوراق كبيرة صفراء كتب عليها «رامسفيلد» ملاحظات بخط يده. لكنه طوال الاجتماع لم ينظر في أوراقه وإنما تدفق في الكلام، ومن الواضح أنه كان معبأ بما لديه.

ولم يضيع وزير الدفاع وقتا في المداخل والمقدمات، وإنما تكلم بطريقته المميزة التي تعكس باستمرار إيحاء بنفاد الصبر، وبدت على وجهه ملامح تشي بأنه يريد «تلقين قادته درسا»، لأنه قام بعملية «تفكيك منظم» لكل ما أعدوه وقدموه له.

بدأ فقال ما مؤداه: «لسوء الحظ أن ما كان يخشى منه وقع - لأن خطة هيئة الأركان المشتركة كما قدمت إليه نسخة منقحة لخطة «عاصفة الصحراء» القديمة مع بعض التعديلات».

وملاحظاته المحددة كما يلي:

● أولا: حجم القوات المطلوبة بقوة ١٣ فرقة (مشاة ومدرعات وقوات خاصة)، و٦ حاملات طائرات غير القواعد الجوية الجاهزة في المنطقة، وهو يسأل: هل المهمة في الظروف الحالية تقتضي هذا الحجم من القوات؟ (أكثر من ثلاثمائة ألف جندي باحتساب العناصر المساعدة).

وعلق: «بأن الرئيس لا يفكر في إعلان تعبئة عامة أو جزئية، والخطة بهذا الحجم سوف «تأخذ» نصف القوة الأمريكية العادية أو أكثر، ومعنى هذا أنه حتى طبقا «لنظرية باول» التي يرى من حوله أصدقاء كثيرين لها، فإن الولايات المتحدة عندما تخصص ذلك كله لمسرح العراق - لن يكون لديها ما يمكنها من مواجهة احتمالات قد تطرأ على جبهة أخرى في أي لحظة (كوريا الشمالية)».

● ثانيا: الخطة في رأيه أخذت بالافتراضات القديمة التي شكلت حرب الصحراء (سنة ١٩٩١)، ولم تأخذ في حسابها أوضاعا جديدة.

وعلق: «أن حرب عاصفة الصحراء كانت على نحو ما من فصيلة التفكير التقليدي، وأما الحرب الجديدة فإن لديها إمكانيات جديدة لم تكن هناك قبل عشر سنوات، وهو يتحدث بالذات عن ثلاثة مجالات:

● مجال الدقة الشديدة في التصويب. وهذا مجال ركزت عليه القوة الأمريكية وجعلته هدفا أساسيا لها، ففي حين كانت دقة التصويب في صواريخ «توما هوك» أثناء حرب ١٩٩١ بنسبة ٢٦٪، فإن هذه النسبة ارتفعت إلى قرابة ٧٠٪، وذلك فارق مهول في فاعلية السلاح.

● مجال السرعة الفائقة في جمع المعلومات وتوصيلها: فالحروب كانت دائما ثلاثة أبعاد: بر وبحر وجو، والآن فإن هناك بعدا رابعا دخل الساحة وقلب الموازين وهو بعد الفضاء، ذلك أن أي ميدان قتال يمكن تغطيته الآن بأقمار صناعية ترصد أي حركة وهمسة عليه وترسلها في لمح البرق إلى القيادات الميدانية على الأرض، ومعنى ذلك أن دخول الفضاء لا يكشف المعلومات العسكرية فقط، ولكنه يتيح على الفور كافة البيانات الضامنة لكفاءة المعارك (بما في ذلك الطقس وتغيراته المحتملة في كل بقعة، والحركة على الطرق المؤدية إلى كافة المواقع، وأحجام الحشود وأنواع السلاح لدى الوحدات المعادية في أي اشتباك)، وذلك يزود القوات بكفاءة مذهلة لم تكن متصورة من قبل.

● والمجال الثالث هو مجال التفاعل واختصار المسافة بين الدقة والسرعة، وكانت المعلومات في عاصفة الصحراء تصل من مواقع جمعها إلى مواقع الاستفادة منها في ظرف ساعات، وأما الآن فإن التقدم في مجال التنسيق جعل الوصول فوريا في نفس اللحظة، بمعنى أن أي معلومة يمكن أن تكون لدى قوات المواقع الأكثر تقدما في ظرف دقائق، وذلك يجعل الاستجابة بالفعل فورية أو شبه فورية».

يواصل «رامسفيلد» كلامه (وفق شهادة المصدر الذي نقل عنه):

في صلب الخطة (المقدمة إليه) حسابات لقوة العراقيين مبالغا فيها بضراوة Fiercely، لأنه اطلع على تقدير لحجم الحشد العراقي يقول أن لديهم نصف مليون رجل تحت السلاح في الجيش وفي الحرس الجمهوري.

اطلع أيضا على تقديرات لقوات المتطوعين: سواء من مقاتلي حزب البعث - أو من فدائيي «صدام» - أو من الحرس الوطني المحلي تشير إلى عشرات الألوف!

وتعليق «رامسفيلد»:

«أن هذه الأرقام لا تعني شيئا لأنه ليس لدى العراقيين سلاح جوي يمكن أن يؤدي دورا فعالا، لديهم طائرات من ٣٠٠ إلى ٣٥٠، لكننا اختبرنا كفاءة هذه الطائرات في مناطق الحظر الجوي شمالا وجنوبا في العراق. وقد تأكدنا أنه ليست لديهم فرصة لمواجهة طيران حديث. طائراتهم كلها عجوزة. ليس لدى طياريهم نوع التدريب اللازم لمواجهة طيراننا - ليست عندهم الوسائل الأرضية التي تخدمهم في أي معركة، وفي كل الأحوال فإنه يبدو واضحا أمامنا أن القيادة العراقية لا تريد دفع سلاحها الجوي إلى معركة يائسة بل تريد ادخارها، لأن هذه القيادة تحت وهم حاجتها للطيران تتمكن من السيطرة به على الداخل كما وقع في المرة الأولى (١٩٩١)».

استطرد:

- «بالطبع ليست هناك قوة بحرية عراقية.

- علينا فوق ذلك أن نلاحظ أن العراق في أي معركة قادمة سوف يكون داخل صندوق مقفول. لأن كل من حوله يقفون ضده: إيران في الشرق - تركيا في الشمال - سوريا والأردن في الغرب - الخليج في الجنوب.

ميدان المعركة مغلق حولهم تماما، وهذه مسألة مهمة.

سوف تقرأ جميعا عن تحرك «ما يسمونه الشارع العربي»، ومعلوماتنا أن أي تحرك عاطفي في شوارع المدن العربية سوف يكون مما تقدر حكومات الدول العربية الصديقة أن تضبطه وتسيطر عليه.

نحن إذن في حالة تفوق كامل: بري - جوي - بحري - فضائي - وسياسي أيضا.

والعراقيون في حالة عجز وعزلة كاملة سواء فيما عندهم أو فيما هو محيط بهم.

وهذه حقائق لا يصح أن تنسى».

يواصل «رامسفيلد» كلامه:

«سؤالي الآن هل نحن في حاجة إلى خطة من هذا النوع الذي جاءني منكم؟

- جوابي مؤكدا بالنفي.

ثم جاء تعليقه بأن:

«أي جيش في العالم هو أول من يحس بنقط الضعف عنده، لأن الساسة يستطيعون - خصوصا في العالم الثالث - أن يتحدثوا كما يشاءون، لكنه حين تصل الأمور إلى نهاياتها ويصبح الاختبار الحاسم مرهونا بالقتال: فإن كل الأطراف تستطيع أن تدعي كما تشاء إلا القوات المسلحة.

وهو هنا (رامسفيلد) يريد أن يتحدث عن الجيش العراقي».

«التقديرات تقول أنه ٥٠٠ ألف في الجيش



القوات المسلحة في السياسة الأمريكية

والحرس الجمهوري، ومعهم عشرات الوف من المتطوعين. والسؤال المهم هو ما هو مقدرة الفعل لدى هؤلاء جميعا؟

أولا: هناك الجيش أو ما بقي منه. نحن نعرف يقينا أنه لم يتلق إضافات على سلاحه. ولم يجدد شيئا كان عنده. ومعنى ذلك أنه نفس المستوى الذي عرفناه سنة ١٩٩١، مخصوما منه النصف أو أكثر.

ثانيا: الحرس الجمهوري تلقى إضافات في السلاح من كوريا الشمالية، ومن الصين، ومن روسيا، ومن بعض الدول العربية. لكن ما حصل عليه محدود، متخلف، وكان الذين باعوه للعراقيين يريدون التخلص منه.

ما الذي يبقى؟:

جماعات المتطوعين من «الحزبيين» ومن «فدائيي صدام» وهؤلاء يصعب قياس قيمة تأثيرهم إلا عند التجربة العملية، وفي ظروفها. لكن فعلهم ـ مهما كان ـ محدود. كذلك تقول مصادرنا!».

يواصل «رامسفيلد» (وفق شهادة المصدر الذي نقل عنه) ـ داعيا المشاركين في الاجتماع معه إلى النظر بدقة أكثر في أحوال القوات العراقية: الجيش والحرس.

ودخل «رامسفيلد» عميقا في تحليل أوضاع الاثنين (الجيش والحرس)، وعماد تحليله أن أي قوة في مثل هذا الوضع الحرج لا تستطيع أن تقاوم بكفاءة إلا إذا وجدت مددا معنويا يلهم تشكيلاتها وأفرادها حتى درجة الموت ـ أو حافة البطولة.

وقرر «رامسفيلد» أنه يصعب عليه تصور وجود مثل هذا المدد المعنوي لدى القوات العراقية النظامية سواء في الجيش أو في الحرس الجمهوري. ومضى يشرح رأيه، ومؤداه أنه «في المرة الأولى ـ أثناء حرب الخليج بين العراق وإيران ـ كان دافع الحرب المعنوي تناقض تاريخي قديم بين العرب والفرس، يرجع إلى أيام كانت الامبراطورية العثمانية (السنية) تواجه الامبراطورية الفارسية (الشيعية)، ومنذ ذلك الوقت وهناك بين ايران والعراق ثأر نائم، لكنه جاهز كي يستيقظ في أي وقت.

«وقد أيقظه صدام!

وفي حرب الخليج الثانية ـ حرب الكويت ـ كان الجيش العراقي مدفوعا بالجائزة الكبرى لإقليم يعتقد كثيرون في العراق أنه جزء من وطنهم، كما أنه مخزن كنز عظيم.

أما في المرة القادمة فما الذي يمكن أن يحرك الجيش العراقي؟!».

أفاض «رامسفيلد» في الشرح:

«في العادة فإن الجيوش يحركها الدافع الوطني لاستقلال بلادها، لكن الجيش العراقي وكذلك الحرس يعرفان من الحقائق ما هو أكثر.

يعرفان أن منطقة الحظر الجوي في الجنوب، أخرجت جنوب العراق فعلا من مسئولية الجيش، ثم إن الشمال تقوم فيه الآن إدارتان كرديتان لكل منهما استقلالها الذاتي، وإذن تبقى منطقة الوسط وحدها تحت سيطرة النظام ـ وهذه المنطقة هي ثلث البلد، وهي الثلث الفقير لأن الثروة النفطية للعراق موزعة بين الجنوب (الشيعي حول البصرة) والشمال (الكردي حول كركوك).

ويزيد أن الجيش العراقي يعرف تماما أن الثروة النفطية لشعب العراق لم تعد ملكه، لأن قرارات الأمم المتحدة بفرض الحصار مبكرا عليه (١٣ أغسطس ١٩٩٠) ـ حجزت على النفط، ثم سمحت للعراق بتصدير جزء محدود منه على أساس برنامج النفط من أجل الغذاء، والبرنامج كله في يد الأمم المتحدة، فهي التي تحصل على العائدات، وهي التي تصرح بالعقود. وهي التي تجنب نصيبا منه للتعويضات الحرب، وتقتطع نصيبا آخر للنفقات الإدارية لهيئاتها وبعثاتها العاملة في العراق، وبينها هيئة التفتيش على أسلحة الدمار الشامل.

وإذن فإن الأرض العراقية مكشوفة، والنفط العراقي مصادر، والسيادة العراقية منزوعة.

وإذا لم يكن هناك تراب وطني ـ وإذا لم تكن هناك ثروة وطنية ـ وإذا لم تكن هناك سيادة وطنية فمن اجل أي شيء يحارب الجيش العراقي ويضحي ضباطه وجنوده بحياتهم في معركة يعرفون أنها يائسة ـ إذا دخلتها الولايات المتحدة بقوتها.

ليست مسألة شجاعة، لأن الشجاعة لا تكون إلا دفاعا عن مبدأ أو عن سيادة.

في هذه الحالة الراهنة ـ ليس أمام الجيش العراقي مبدأ، وإنما هناك حزب وهناك مجموعة حكم وهناك رجل واحد فقط.

في هذه الحالة كذلك ـ لم تعد هناك سيادة عراقية على شيء: لا أرض ولا موارد.

هذه أوضاع لا يموت الجنود دفاعا عنها مهما كانت الأوامر الصادرة لهم.

طبقا لكل معلوماتنا فإن الجيش العراقي لن يحارب، ولن يشعر أحد من قادته ـ في أعماقه ـ أنه يخون وطنه إذا امتنع عن الحرب ـ بالعكس سوف يشعر أي قائد عراقي أنه يخون جنوده إذا أمرهم بالقتال حتى الموت في هذه الظروف!

يواصل «رامسفيلد» (وفق شهادة المصدر الذي نقل عنه):

قد يسألني البعض لماذا نرى الجيش والحرس حتى هذه اللحظة متمسكين بالولاء للنظام، وردي أن ذلك لا تفسير له إلا:

١ ـ قسوة إجراءات الأمن الداخلي ووجود مندوب حزبي في كل وحدة يمنع أي «جنرال» من مفاتحة زملائه أو مساعديه بما يدور في عقله وضميره.

٢ ـ القوات العراقية معزولة عن أي اتصال خارجي، وهنا فإن قادتها لا يعرفون كيف يتصرفون على فرض أنهم وجدوا فرصة للقيام ضد النظام.

٣ ـ هناك سبب أهم هو ما يظهر لنا أحيانا من أن معظم جنرالات الجيش العراقي الحاليين ليسوا واثقين من أن الولايات المتحدة مصممة هذه المرة على شن الحرب والمضي فيها حتى إسقاط النظام، وهم إلى هذه اللحظة ـ وفق معلوماتنا من الداخل ـ يتصورون إما أننا غير معنيين ـ وإما أننا نفضل بقاء «صدام» في السلطة شبحا نخيف به بقية دول الخليج، وإما أننا غير جادين لا نريد أن ندفع تكاليف تغيير النظام ـ أو أننا سوف نتعثر في النهاية أمام عقبات دبلوماسية تثيرها دول مستفيدة من الوضع الحالي في العراق (روسيا أو فرنسا مثلا).

استطرد «رامسفيلد» (وفق ما نقل المصدر):

هذه النقطة الأخيرة هي البداية التي يلزم أن نبدأ منها: كيف تقنع جنرالات الجيش العراقي والحرس الجمهوري بأن الولايات المتحدة قررت هذه المرة بشكل قاطع ونهائي أنها سوف تضرب بكل قوتها.

كيف نفعل ذلك ـ هذا هو السؤال؟

هناك مدرستان في الإجابة عليه:

ـ إما أن نحشد قوة هائلة ـ على طريقة حرب الخليج التي سبقت، ثم نخوض حربا نمزق فيها الجيش العراقي ـ تلك هي المدرسة الأولى، ولست (رامسفيلد) من أنصارها.

ـ وإما «وهذه هي المدرسة الثانية التي أعتقد بصحة منهاجها وذلك بإشهار موقفنا بأسلوب تركيز قوة التأثير النفسي ـ وتركيز قوة النار ـ وتركيز قوة الحركة السريعة».

بمعنى أن فصل الخطاب يكون بضربة «صدمة ورعب» يفهم منها الجيش العراقي ويستوثق أننا نقصد ما نقول، ومصممون على تنفيذه، وقادرون من أول لحظة على قطع رأس هذا النظام (وكانت تلك أول مرة يذكر فيها تعبير قطع الرأس «Decapitate» قد أصبح هذا الوصف فيما بعد اسما رمزيا للمرحلة الأولى من الحرب على العراق).

استطرد «رامسفيلد»:

«لابد أن تكون ضربة قطع الرأس عنيفة إلى درجة ترغم الجنرالات ـ في الجيش وفي الحرس ـ على النظر إلى الحقيقة في وجهها بحيث يعرفون أنه لم تعد هناك فائدة، وأن دعاوى الشجاعة انتحار، وأن إلقاء السلاح ليس خيانة، لأن الأهداف الوطنية ضائعة من الأصل، ولأن ما بقي من النظام لا يستحق الموت في سبيله.

سوف أضيف ملاحظات أخيرة لابد من اعتبارها، وأنتم تعيدون النظر في الخطة:

ـ لا نريد أن نضرب المدنيين في العراق، لأنه يهمنا أن نؤكد لهم أننا نقصد النظام ولا نقصدهم.

ـ ولا نريد تخريب المرافق العامة، لأننا سوف نستعملها بعد سقوط النظام ودخول العراق، وليس منطقيا أن نهدمها اليوم ونعيد إصلاحها غدا.

ـ وإضافة إلى ذلك لا نريد تدمير الجيش العراقي، لأننا قد نحتاج إلى بعض تشكيلاته وأفراده لحفظ الأمن وضبط استقرار الأوضاع بعد سقوط النظام.

«رامسفيلد» لهيئة أركان الحرب:

«إذا لم يكن هناك تراب وطني ـ وإذا لم تكن هناك ثروة وطنية ـ
وإذا لم تكن هناك سيادة وطنية فمن أجل أي شيء يحارب الجيش العراقي
ويضحي ضباطه وجنوده بحياتهم في معركة يعرفون أنها يائسة ـ
إذا دخلتها الولايات المتحدة بقوتها؟

كان رؤساء أركان الحرب ومستشاروهم يسمعون في صمت، يريدون أن يصلوا إلى السطر الأخير المهم في كشف الحساب. وقد وصل إليه «رامسفيلد» فعلا وقال (طبقا لشهادة المصدر الذي نقل عنه):

- ما أتصوره هو حرب ذكية ورشيقة (Smart and Lean)، ولا تحتاج عملية من هذا النوع إلى أكثر من ثلاث فرق وليس ثلاث عشرة فرقة كما تفترض الخطة ١٠٠٣ (التي قدمتها له رئاسة أركان الحرب المشتركة).

- فرقتان تزحفان من الخليج إلى جنوب العراق دون تهديد تخشاه، لأن مهام الحظر الجوي في المنطقة أكدت لنا تردي أحوال وأوضاع القوات العراقية.

- فرقة واحدة في الشمال، مع فرقة إضافية من الجيش التركي، ووحدات كافية من «البشمرجة» (القوات الكردية) للزحف على «الموصل».

- ضربة أولى بالصواريخ «لقطع الرأس»، وتأكيد الرسالة بحيث يفهموا «أننا مصممون إلى النهاية».

- وتكثيف صاروخي وجوي من قواعدنا في المنطقة وبواسطة أربع أو خمس حاملات لا يترك للعراقيين وقتا ليفكروا في شيء آخر.

- وعلينا في النهاية أن نتذكر ما يؤكده لنا أصدقاؤنا من أن القوات الأمريكية الزاحفة سوف تجد حولها وورائها - وربما قبلها - كتلا من الجماهير العراقية تنقض على النظام عندما توقن أن لحظة الخلاص قد دنت.

وسكت «رامسفيلد» ونظر حوله وبدأت المناقشات.

وكان مدار المناقشات «أن ما قاله وزير الدفاع مفهوم ومنطقي، لكنه بالدرجة الأولى يعتمد على افتراضات، وشأن أية افتراضات، فهو قابل لأن يكون صحيحا، وقابل في نفس الوقت أن لا يكون، وهذا أساس يصعب أن تبنى عليه خطط عسكرية تمس مصالح حيوية للولايات المتحدة، في الشرق الأوسط وهو منطقة مجهودها الرئيسي سابقا ولاحقا في إطار مشروعها العالمي المطروح الآن للتنفيذ.

والعنصر الحرج فيما عرضه وزير الدفاع هو حجم القوة التي اقترح الوزير تخصيصها للخطة، ذلك أن التقدير المبدئي لهيئة أركان الحرب المشتركة أن هذا الحجم غير كاف، لا لضمان النجاح، ولا للحفاظ على الهيبة، وكذلك فإن هناك اعتبارين إضافيين:

● حجم القوات ليس كافيا لإقناع البلدان التي سوف تنطلق منها قوات الغزو (في الخليج)، بأن النصر مضمون، بحيث تطمئن هذه البلدان وتتعاون دون تحفظ.

● ثم إن حجم القوات على هذا النحو ليس كافيا لتوفير احتياطي حاضر على الأرض لدخول المعركة فورا إذا ظهر أن الافتراضات التي قامت عليها الخطة تحتاج إلى تعزيز.

ورد وزير الدفاع - موجها كلامه مباشرة إلى الجنرال «تومي فرانكس» (قائد المنطقة المركزية المسئولة مباشرة عن غزو العراق): «إن ما قام بعرضه على المشاركين وكبار القادة في هذا الاجتماع هو بالدرجة الأولى محاولة في لفت النظر إلى أننا أمام واقع جديد يقتضي تفكيرا متجاوزا للمألوف، جريئا يتعدى التصورات التقليدية التي لم يعد لها الآن لزوم - بسبب مستجدات هائلة دخلت على فكرة «إدارة الحرب». وهناك أيضا مسألة لابد أن تأخذوها في الاعتبار مؤداها «أن هناك ظروفا اقتصادية وتشريعية لا تسمح للرئيس أن يذهب إلى الكونجرس مسبقا في طلب اعتمادات تثير وساوس أعضائه وتستنفر قلق الرأي العام عندما يشيع الإحساس بأن المعركة القادمة باهظة التكاليف».

وعلى أي حال فإن ما يطلبه الآن من القادة «أن يعيدوا النظر في تقديراتهم، ويعاودوا التخطيط، آخذين في اعتبارهم مجمل ما عرضه عليهم».

وحين تسربت بعض التفاصيل مما جرى في هذا الاجتماع أحست العاصمة الأمريكية أن «البنتاجون» عاد إلى منطقة الزلازل مرة أخرى بعلاقة مشدودة بين مكتب وزير الدفاع وبين هيئة أركان الحرب المشتركة (مع ملاحظة أن بعض القادة بدا لديهم استعداد لتجربة نظرية «رامسفيلد» التي طلع بها الآن، حتى لو اختلفت مع نظرية «باول» التي استقر قبولها حتى الآن)®

افتتاحية الحرب: معركة سياسية مع أوروبا

** طوال شهور صيف سنة ٢٠٠٢ - لم يكن ما يجري في واشنطن خافيا على عواصم العالم الكبرى (والصغرى أيضا)، وربما أن بعض التفاصيل كانت غائبة. لكن الخطوط العريضة للنوايا الأمريكية بدت واضحة، كما بدا واضحا أيضا أن العراق ليس الهدف النهائي لمشروع أمريكي إمبراطوري، لكنه افتتاحية البداية. والحقيقة أن جماعة المشروع الإمبراطوري الأمريكي لم يبذلوا جهدا في تغطية مطالبهم، بل على العكس كشفوها ولعلهم أرادوا استجلاب التأييد بـ «دغدغة» أعصاب أطراف داخل الولايات المتحدة، خصوصا في مجالات الإعلام والنشر، وبالفعل فإن قوى كثيرة راحت ترى أن اللحظة قد حانت للجهر علانية بالحلم الإمبراطوري وتثبيته وفرضه.

وفي «موسكو» و«باريس» و«برلين» وحتى في «بكين» (التي أبدت إيثارا للعزلة) - سرى شعور بالقلق والتوجس من المشروع الأمريكي الإمبراطوري ومن أسلوب تنفيذه، وبدا مؤكدا أن الدورة الجديدة للأمم المتحدة وموعدها سبتمبر (٢٠٠٢) ستكون موقعة صاخبة، لأن الولايات المتحدة سوف تحاول من خلال الجمعية العامة ومجلس الأمن أن تمهد لتحالف دولي يقف معها شكليا في شن حرب على العراق، لكنها في القصد الحقيقي تسعى لكي تنتزع من الأمم المتحدة تفويضا يضفي الشرعية الدولية على تصرفها في العراق (كيفما تشاء).

وكانت العواصم الأوروبية الكبرى تلك اللحظة تجري حساباتها - عارفة أنها مقبلة على لحظة حرجة ومحيرة. فهذه العواصم لا تريد لأمريكا أن تنفرد، وفي نفس الوقت لا تريد لأمريكا أن تنعزل، ومع أن العواصم الأوروبية الكبرى وأولها «باريس» و«برلين» تدرك أنها لم تعد في حاجة إلى المظلة النووية الأمريكية تحميها - فإنها في نفس اللحظة ليست مستعدة لعواقب انقسام في الغرب الذي مازال يعتبر أن الاقتصاد الأمريكي والتكنولوجيا الأمريكية والقوة الأمريكية بعموم هي قاطرات النمو في العالم، وعليه فليس في مصلحة أوروبا أن تتصادم مع إدارة أمريكية مستفزة أو غاضبة.

وقد زادت الهواجس في «باريس» و«برلين» عندما أعلن في أواخر شهر أغسطس (٢٠٠٢) أن الرئيس «جورج بوش» سوف يحضر بنفسه افتتاح دورة الجمعية العامة، ويلقي خطابا هاما حول أزمة العراق.

ثم أعلن في نفس الوقت أن رئيس وزراء بريطانيا «توني بلير» سيقضي عطلة نهاية الأسبوع في «كامب دافيد» لخلوة مع الرئيس الأمريكي - وحدهما - فيما وصف بأنه: «قمة قرار».

وتأكدت «باريس» و«برلين» و«موسكو» أن «توني بلير» قرر أن يلقي الورقة البريطانية في نفس المربع مع «جورج بوش».



القوات المسلحة في السياسة الأمريكية

ولم يكن القرار سهلا فى «لندن»، فالفكرة الإمبراطورية هناك قديمة استهلكت نفسها ولم يبق انتظار نفع منها أو حنين، وخلط السلاح والغزو ثقيلة على الرأى العام البريطانى، خصوصـــا إذا كانت بالشراكة مع الولايات المتحدة، لأنها فيما سبق من التجارب، شريك صعب يريد أن يحصل على كل شىء ولا يترك لشركائه بعده كثيرا - أو قليلا.

ومبكرا - ووسط أسابيع الصيف قبل أن يذهب «بلير» إلى لقائه مع «بوش» فى «كامب دافيد» لقمة قرار، قام رئيس الوزراء البريطانى بعملية استطلاع للرأى واسعة:

- دعا عددا من كبار مسئولى شركات البترول وضمنهم بالتحديد أعضاء فى مجلس إدارة شركة «داتش شل» (أهم شركات البترول الإنجليزية)، وسمع منهم جميعا دون استثناء تقريبا «أنهم لا يحبذون حربا فى العراق، لأن ما بقى لهم من امتيازات فى الخليج مأمون، وأية تغييرات على الوضع الراهن بالسلاح قد تأتى بمفاجآت مفتوحة العواقب خصوصـــا إذا انتهت التغييرات إلى احتلال أمريكى عسكرى للعراق، وهو أمر لا شك فيه إذا صممت الإدارة الأمريكية على خيار الغزو العسكرى».

- والتقى «تونى بلير» مع عدد من كبار قادة حزب العمال، وكان معظمهم يعارض الحرب لأسباب عملية وقانونية وأخلاقية، وكان أخطر ما سمعه رئيس الوزراء البريطانى ما ذكره له صديقه القديم وزير خارجيته السابق وزعيم الأغلبية بمجلس العموم الآن «روبين كوك». وطبقا لرواية «روبين» نفسه فإنه قال لصديقه «تونى»:

«إننى فى دهشـــة من مقـــولة أن العراق يملك أسلحة دمار شـــامل، وأن تجـــريده مـــن هـــذه الأســـلحة المدمرة هو المبرر القانونى والأخلاقى للغزو.

فهو يعلم أن العـــراق كانت لديه مثل هذه الأسلحة فى حرب الخليج التى سبقت - قبل ١١ سنة - لكنه مقتنع بأنها لم تعد موجودة الآن، والأسباب متعددة:

• العراقيون لم يستعملوا هذه الأسلحة فى الحرب السابقة (١٩٩١)، لأنهم أدركوا أن عواقب استعمالها كارثية بعد أن تلقوا إنذارا بأن الرد على استعمالها سيكون ضربهم بالقنابل الذرية.

- وبعد الحرب وعندما صدر قرار تشكيل لجنة «أونسكوم» برئاسة «ريتشارد بتلر» التى ذهبت للتفتيش على أسلحة العراق ونزعها، فإن العراقيين بادروا إلى تدمير معظم ما لديهم من هذه الأســـلحة، ثم إن لجنة التفتيش السابقة («أونسكوم») قامت بتدمير الباقى.

• وعلى فرض أن العراقيين أخفوا أشياء - وذلك ما تقـــول به التقارير - فإن الخبراء البريطانيين يقررون أن هـذه الأنواع من الأسلحـــة لها مـدة صلاحيـــة لا تعود نافعـــة بعـــد انقضائها.

مدة صلاحية الأسلحة الكيماوية خمس سنوات.

ومدة صلاحية الأسلحة البيولوجية ثلاث سنوات.

وذلك معناه أن هذه الأسلحة حتى على فرض أن بقاياها مازالت موجودة - لم تعد نافعة!

• ومن المحتمل نظريا أن يسعى النظام فى العراق إلى إعادة تصنيع وتعبئة الحمولات (الصواريخ والقذائف) الكيماوية والبيولوجية - لكن المصانع التى يمكن بها تنفيذ ذلك وقع تدميرها، وهو (روبين كوك) واثق من أن العراقيين لم يتمكنوا من إعادة بناء وتشغيل هذه المصانع (لتجديد صلاحية أسلحتهم الكيماوية والبيولوجية)، وهو بنفسه كان يتابع هذا الموضوع عندما كان وزيرا للخارجية، بحكم تبعية هيئة المخابرات الخارجية M.I.6 لوزارته، وقد كان يجتمع بالمسئولين عنها مرة كل أسبوع، ولم يسمع ولم يقرأ ورقة واحدة تشير إلى إعادة بناء تلك المصانع أو تشغيلها، بل العكس فقد كان تقدير خبراء M.I.6 أن النظام فى العراق بعد أن أدرك عدم قدرته على استعمال هذا النوع من السلاح فى حرب سنة ١٩٩١ - وبعد اضطـــراره إلى تدمير ما لديه منها فى أعقاب الحرب - وبعد مجىء «الأونسكوم» لتكمل مهمـــة التدمير - لم يعد حريصـــا ولا كانت لـديه الوســـائل اللازمة ولا الاستثمارات الفائضـــة ليعيد اســـتيراد مصــــانع تعبئة يجـــدد بها أسلحة الدمار الشامل».

....

....

[والحاصل أن «روبين كوك» كان قريبا من الحقيقـــة بأكثر مما قدر، ذلك أن العـــراقيين عندما وجدوا أن صلاحية ما أخفـــوه من الأســـلحة الكيماوية والبيولوجية استنفدت صلاحيتها - وجدوا أنفسهم أمام خيارات مستحيلة:

فهـــم لا يســـتطيعون تجديدها، وهـــم لا يســـتطيعون الاحتفـــاظ بهـــا فى حـــالة تآكل وتهـــالك، لأن بعـــض هذه الأسلحة (خصوصا فى المجال البيولوجـــى) قـــابلة للتسـرب بحـــركتهـــا الذاتيـــة، لأنهـــا فـــى الواقـــع من أنواع الجـــراثيم، ومعنى ذلك أن خطـــــرها على الشـــعب العـــراقى بسبب التسرب يصبح أكثر احتمالا من خطـــرهـــا على أى عـــدو مهـــاجم عـــلى الأقل باستحالة استعمالها.

وفى الحالتين فإن استمرار بقاء هذه الأسلحة فى هذه الأحوال يعرض أمرهـا للانكشـاف بواسطة بعثات التفتيش، وبالتالى يؤخر رفع العقوبات عن العراق.

وهنا وفى وقت ما بين ١٩٩٤ - ١٩٩٥ تقـــرر التخلص من تلك الأسلحة تماما والانتهاء من أمرها، مع الاعتماد على وجـود ما يكفى من العلم بأمورها فى عقـــــول الفنيين وفى أوراق أبحاثهم].

....

....

- واستطلع مكتب «تونى بلير» آراء عدد من الرجال والنساء المؤثرين على اتجاهات الرأى العام - وبينهم زعامات فى الحركة النقابية، ولم يجد تأييدا واسعا لحرب على العراق بالشراكة مع الولايات المتحدة. ومن اللافت أن معظم التأييد الذى لقيه «بلير» جاء من أعداء تقليديين لحزب العمال واقفوا على ضرورة - ! - امتلاك العـــراق لأسلحة دمار شامل - وكان بينهم «روبرت مردوخ» مالك مجموعة صحف «التيمس»، و«كونراد بلاك» صاحب مجموعة «التلجراف».

وفى نهاية المطاف فإن رئيس الوزراء ظل مقتنعا بأنه لا يملك خيارا غير «الالتحام» بالموقف الأمريكى ومنطقه قائم على عدة أسباب:

• إن غزو العراق سوف يقع سواء شاركت بريطانيا أو امتنعت (ولهذا فالأفضل لها أن تشترك).

• إن العـمل الأمريكى القادم بالسلاح فى منطقة الخليج العربى - وهى منطقة من العالم مازالت تعترف ببقايا نفوذ إمبراطورى بريطانى (ولذلك يُستحسن أن تكون بريطانيا هنالك).

• إن أوروبا الغربية مازالت تشك فى بريطانيا المترددة فى اعتبار نفسها جزءا لا يتجزأ من القارة، فإذا زاد على الشك الأوروبى - شك آخر أمريكى - فإن بريطانيا تصبح فى عُزلة كاملة عن كافة «القوى فى العالم».

• إن هنـــاك مواريث ثقـــافية - بحـــكم اللغة الإنجليزية على الأقل - تربط بريطانيا مع الولايات المتحدة بعلاقة خاصة، ومن واجب بريطانيا أن تحرص على هذه المواريث، لأنها فى النهـــاية تقبل الترجمة إلى لغة المصالح.

وهكذا فى أوائل سبتمبر ٢٠٠٢ قام «تونى بلير» بإبلاغ «جورج بوش» أنه يســـتطيع أن يعتمـــد على بريطانيا كائنـــا مـــا كان قـــراره، فذلك الحلف بين البلدين لا يتزعـــزع، ثم هـــو صـــــداقة مبرأة من انتهـــازية الآخرين!!※

«روبين كوك» زعيم الأغلبية بمجلس العموم موجها حديثه إلى «تونى بلير» رئيس الوزراء: «أنانى دهشة من مقولة أن العراق يملك أسلحة دمار شامل، وأن تجريده من هذه الأسلحة هو المبرر القانونى والأخلاقى للغزو. فالعراق كانت لديه مثل هذه الأسلحة فى حـرب الخليج التى سبقت - قبل ١١ سنة - لكنه مقتنع بأنها لم تعد موجودة الآن، والأسباب متعددة

قـــــرار وخـطـــة الحـــرب!

في يوم الخميس ١٢ سبتمبر وقف الرئيس «جورج بوش» على منبر الجمعية العامة للأمم المتحدة، يلقي بيانه المُنْتَظَر وكان ملخصه: «أنه إما أن يقبل العراق عودة المفتشين إليه للبت في موضوع أسلحة الدمار الشامل، والعثور عليها، والخلاص منها نهائيا مع بقاء نظام دائم للرقابة - وإما أنها الحرب، وليس بين الاحتمالين مجال لحل وسط، كما أنه ليس مستعدا لسماع شروط، وإنما طلبه الوحيد هو الانصياع الكامل بلا قيد ولا تحفظ».

وفي اليوم التالي أعلنت الحكومة العراقية رفضها لطلب الرئيس الأمريكي، مؤكدة في الوقت نفسه أنها لا تملك أسلحة دمار شامل من أي نوع: لا نووية ولا كيماوية ولا بيولوجية.

والحقيقة أنه كان هناك شبه إجماع دولي على أن العراق فقد قاعدة إمكانياته النووية عندما قامت إسرائيل بتدمير مفاعله (أوزيراك) في غارتها الشهيرة عليه (ربيع ١٩٨١)، وكان كثيرون في العالم على قناعة بأن النظام في العراق توصل إلى أن الخيار النووي يتعدى قدراته الراهنة، وكان ذلك - أيضا - رأي لجنة الطاقة النووية، التي كان رئيسها في ذلك الوقت هو رئيس فريق المفتشين الجديد: الدكتور «هانز بليكس»، لكن منطقة الظل الرمادي ظلت قائمة إلى حد ما في مجال الأسلحة الكيماوية والبيولوجية، لأن أمرها يحتمل الالتباس، خصوصا أن الرأي العام العالمي - على مستوى المتابعة الإخبارية السريعة - لا يتذكر أن هذه الأنواع من الأسلحة لها مدة صلاحية لا تتجاوزها - إذا لم تتوافر وسائل تجديدها مرة أخرى!

وكان هناك أطراف دوليون على استعداد لتصديق العراق في نفيه لوجود أسلحة كيماوية وبيولوجية لديه، وكان بين هؤلاء الأطراف من أبدى استعداده لمواجهة سياسية في مجلس الأمن حول هذا الأمر مع الولايات المتحدة - والشرط أن يقبل العراق بالتفتيش، باعتبار أنه إذا لم يكن لديه ما يخفيه فما الذي يخيفه من استقبال «بليكس» وفريقه في العراق وتمكينهم من أداء مهمة تكشف براءته بشهادة الخبراء؟

لكن النظام في العراق ظل يحاول أن يجد مخرجا، ولم تُجدِ المحاولات، وبينها دعوة لـ «بليكس» إلى زيارة في العراق «للتباحث في الموضوع»، وأعلن «بليكس» أنه يرفض الدعوة.

ولم تكن الولايات المتحدة راضية - ولا كان لديها الوقت لتسمع، لأن اهتمامها كان من الأول للآخر محصورا في الخطط العسكرية، وزادت عليه تلك الخلافات التي احتدمت حولها داخل «البنتاجون» بين مكتب وزير الدفاع وبين هيئة رئاسة الأركان المشتركة، خصوصا عندما دخل الجنرال «تومي فرانكس» قائد المنطقة المركزية المكلفة بالحرب - على الخط معتمدا على صداقة قديمة تربطه بالرئيس «جورج بوش».

كان «جورج بوش» هو الذي دعا قائد المنطقة المركزية - المكلف «بعملية العراق» إلى قضاء عطلة نهاية الأسبوع الثالث من شهر أغسطس (٢٠٠٢) معه، في مزرعته (كراوفورد) في تكساس، وكان الرجلان - وكلاهما من ولاية تكساس (كان «تومي فرانكس» من مواليد بلدة ميدواي - تكساس) - قد عرفا بعضهما من زمن طويل، ثم حدث أن علاقاتهما توثقت عندما تقابلا عدة مرات في فلوريدا، لأن «جيب بوش» شقيق الرئيس هو حاكم فلوريدا، وفلوريدا هي مقر قيادة قوات المنطقة المركزية (التي يقودها «تومي فرانكس»).

وقد سُئل الجنرال «فرانكس» وهو يغادر مزرعة الرئيس بعد الغداء يوم الأحد (٢٥ أغسطس)، وكان رده على الصحفيين الذين سألوه:

"إنه جاء إلى هنا مع زوجته بوصفهما أصدقاء لأسرة «بوش»، وهو يعرف الفارق بين الاجتماعي والوظيفي، وهو لم يفاتح الرئيس مبتدئا في شيء لأنه لا يستطيع أن يتكلم مع القائد العام بدون حضور وزير الدفاع ورئيس هيئة الأركان».

لكنه طبقا للذين يعرفون التفاصيل (بحكم مواقعهم)، فإن «بوش» بالفعل أثار موضوع العراق، مبتدئا بقوله للجنرال «فرانكس": «إنه يراجع الآن نص خطابه أمام الأمم المتحدة (بعد ذلك بثلاثة أسابيع)».

واتسع باب الكلام ووصل إلى مسألة الخلافات بين وزير الدفاع وهيئة أركان الحرب، وعندها اعتبر الجنرال «فرانكس» أن من حقه أن يشير إلى النقطة الحيوية بالنسبة له وهي حجم القوات المتاحة المخصصة لعملية العراق، وأبدى «فرانكس» أن وزير الدفاع حاول أن يتوصل خلال اجتماعات أخيرة إلى صيغة حل وسط مع هيئة أركان الحرب المشتركة، إلا أن الحد الذي عرضه لا يزال - في تقديره - (تقدير الجنرال «فرانكس») دون الكفاية، ومع أن هيئة أركان الحرب تحاول بكل وسيلة أن لا تثير مشاكل مع الوزير ومعاونيه، فإن هناك مسائل معلقة لا يمكن أن يحسمها غير القائد العام (أي الرئيس نفسه).

كان «رامسفيلد» في تلك الاجتماعات قد وافق على قوة توازي ضعف ما كان عرضه أولا، أي قرابة مائة ألف جندي، ولم تكن رئاسة الأركان مع تقديرها لنظرية الوزير عن معركة تدور بأقصى سرعة وأقصى خفة Fighting Fast and Fighting Light - تعتقد أن ما يعرضه «رامسفيلد» الآن يكفيها، وأبدى «فرانكس» أنه «فيما يتعلق به شخصيا كقائد مسئول عن الحروب القادمة فهو يريد أن يساعد، ولكنه لا يريد أن يغامر، ولكي يسهل الأمور على الوزير ومعاونيه فإن ما يستطيع أن يساعد به هو تقليل مدة بقاء القوات في الميدان إلى أقصى حد ممكن، وهو لا يريد الآن أكثر من أن يطمئن على هياكل القوات وعلى خطوط إدارة العمليات، لكنه لا يريد وصول القوات إلى مسرح العمليات إلا قبل ساعة الصفر بأسابيع قليلة، هذا مع أنه لا يرغب في تدفق مكشوف للقوات على المسرح في آخر وقت».

وأبدى الجنرال «فرانكس» تقديره لأن القوات البريطانية أبلغته أنها سوف تسبق في الوصول إلى مواقع الحشد: لأن قواعدها جاهزة، ولأنها لا تريد زحاما في اللحظة الأخيرة يُحدث للحكومة حرجا سياسيا إذا بدت في موقف عناد مستفز للرأي العام البريطاني، وبالطبع فإنه مما يساعد البريطانيين على ذلك أن مشاركتهم محدودة بأربعة ألوية من المدرعات والقوات البرية والقوات الخاصة - (ما بين خمسة وثلاثين إلى أربعين ألف رجل)، وذلك يريحه (الجنرال فرانكس) على نحو ما، لأن معناه درجة من الانتشار حول مسرح العمليات وعلى مداخله، خصوصا وهو شبه واثق أن العراق ليس بمقدوره أن يوجه ضربة استباقية للقوات حتى وهو يراها تحتشد أمامه - وطبقا لما لديه من معلومات فإن مواقع القوات العراقية لم تتغير خلال السنوات الأخيرة وهو أمر يدهشه، ثم إن التركيز الرئيسي لهذه القوات في الشمال بتوقع أن تكون الضربة الرئيسية في اتجاه «بغداد» مباشرة عن طريق كركوك (الموصل).

....

....

[وثبت أن الجنرال «تومي فرانكس» كان دقيقا فيما أورده عن تحركات القوات البريطانية، لكن الذي تكشف فيما بعد هو أن القيادة البريطانية السياسية والعسكرية - ورغبة منها في التستر على تحركات قواتها نحو العراق سبتمبر ٢٠٠٢ - حرصت ألا تبعث بقوات إلى



القوات المسلحة في السياسة الأمريكية

مسرح العمليات في الخليج من القواعد البريطانية ذاتها، بل آثرت إرسال تشكيلات من قواتها العاملة في ألمانيا تحت لواء حلف الأطلنطي، وكذلك بدا أن القوات التي تتحرك من الجزر البريطانية قاصدة إلى أوروبا (بالتوافق مع قوات بريطانية تغادر أوروبا في نفس الوقت إلى الخليج)، وإمعانا في الإخفاء فإن هذه القوات المتحركة من أوروبا إلى الخليج توجهت إليه في البداية دون عتادها بل وبدون دباباتها، وقد ظهر عند التجربة العملية (وطبقا لتقرير صادر عن الجيش البريطاني أواخر شهر يونية ٢٠٠٣ - أي بعد انتهاء العمليات بثلاثة شهور) أن فرقة المشاة الخفيفة الأولى شاركت في القتال حول البصرة بغير أسلحتها القتالية الثقيلة والعادية، وبغير ملابسها الصيفية، وبغير خوذات الميدان على رؤوس أفرادها، وبغير قنابلها اليدوية، وبغير مناظير الرؤية الليلية، وبغير حتى أحذية الصحراء...]

....

....

وفي نهاية لقائه مع الرئيس «بوش» في مزرعة «كراوفورد» (تكساس) أبدى الجنرال «فرانكس» أنه سوف يسافر إلى منطقة قيادته ويغيب هناك فترة لا تزيد عن أسبوعين ثم يعود ومعه «تقدير صورة» على الطبيعة، لكنه حتى ذلك الوقت يرجو الرئيس بوصفه القائد العام أن يهتم بقضية العلاقات بين هيئة رئاسة الأركان وبين وزير الدفاع وأعضاء مكتبه من المدنيين (وفي الغالب فإنه كان يشير إلى «بول وولفويتز» مساعد الوزير، و«ريتشارد بيرل» رئيس مجلس سياسات الدفاع)، ذلك أن هذه العلاقة لا تزال خشنة وتحتاج إلى عملية «تزييت» تجعلها «سلسة».

وقبل أن يتوجه الجنرال «فرانكس» إلى مركز قيادته دعاه نائب الرئيس «ريتشارد تشيني» إلى إفطار معه لأنه أراد أن يسمع منه مباشرة (وفي الغالب أن ذلك تم بطلب من الرئيس «بوش»).

وبعد أيام كان الجنرال «تومي فرانكس» في طريقه إلى المنطقة قاصدا أن يتفقد مركز قيادته في «قطر»، ويحضر تجربة عملية لمراكز الربط بين القوات في الميدان ومع مركز الإدارة الجديدة لنقل المعلومات الفورية إلى مستوى «السرايا»، بما في ذلك سرايا القوات الخاصة حيث تكون، وقد أنشئ لهذا الربط جهاز إدارة خاص، أدخل الفضاء عنصرا لأول مرة في الحرب، وكان مقر ذلك الجهاز قاعدة «الأمير سلطان» في «السعودية».

فجأة يوم الاثنين ١٦ سبتمبر، أي بعد أربعة أيام من خطاب الرئيس «بوش» أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، وبعد ثلاثة أيام من رفض عراقي قاطع لعودة المفتشين الدوليين - تلقى الأمين العام للأمم المتحدة تبليغا بأن الحكومة العراقية غيرت رأيها، وقبلت استقبال المفتشين الدوليين «هانز بليكس» وفريقه، وكذلك الدكتور «محمد البرادعي» (رئيس الوكالة الدولية للطاقة النووية).

وقام «دوفيلبان» (وزير خارجية فرنسا) بإخطار السكرتير العام للأمم المتحدة أن وزير خارجية العراق السيد «ناجي صبري» سوف يطلب مقابلة في دقائق ليقدم إليه رسالة حسن نية يعلن فيها نزول العراق على إرادة المجتمع الدولي وقبول تفتيش كافة منشآته وقواعده وأي مكان في أرضه، بما في ذلك القصور الرئاسية، وبدون قيد أو شرط.

وكان ذلك مفاجأة رآه معظم أعضاء مجلس الأمن بابا إلى انفراج الأزمة، وجرى التعبير عن ذلك فعلا في «باريس» و«موسكو» و«برلين».

لكن رد الفعل في «واشنطن» بدا مستغربا، ومؤكدا لأسوأ مخاوف هؤلاء الذين تشككوا من البداية في النوايا الأمريكية مهما فعل العراق، لأن القضية لم تعد وجود أو عدم وجود أسلحة للدمار الشامل، وإنما القضية هي «الاستيلاء» على العراق، وإسقاط النظام فيه واحتلال البلد.

وبالفعل فإنه يوم الاثنين ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٢، كان الرئيس «جورج بوش» يجلس في قاعة مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض ومعه نائبه «ريتشارد تشيني»، وحول المائدة من ناحية جلس وزير الدفاع ومساعدوه، وعلى الناحية الأخرى جلس رؤساء هيئة أركان الحرب ومعهم مجموعة محددة من المستشارين - فقد جاء الآن وقت عرض خطة العمل العسكري، وكان على رئيس الأركان الجنرال «ريتشارد مايرز» أن يشرح هيكلها العام، وبعده يجيء الدور على الجنرال «تومي فرانكس» قائد القيادة المركزية المكلفة بالحرب على العراق - ليتحدث عن تفاصيل العمليات والتحركات.

....

....

[وطبقا لرواية «بول وولفويتز» (مساعد وزير الدفاع) في شهادة مسجلة بصوته في حديث لملحق الأسبوعي لمجلة «نيويوركر» فإن «الاجتماع بدأ بملاحظات سريعة حول اتجاهات الرأي العام، بما فيها مظاهرات جرت في نيويورك، وتعليقات نشرتها الصحف، وتدخل الرئيس في المناقشة قائلا وهو يهز رأسه بأسف: إن هؤلاء «الكتاب اليساريين» لن يرضوا عني مهما فعلت، ثم راح يروي نكتة تشرح وجهة نظره، روى:

«أن بابا الفاتيكان كان ضيفا على عائلته في عطلة نهاية الأسبوع في «كينيبنكبورت»، على شاطئ «ماين»، وأخذه هو (بوش) في نزهة بحرية في قارب سريع راح يشق الموج وسط الريح، وفجأة إذا بقوة الريح تخلع قبعة البابا وتقذف بها وسط الأمواج.

ويستكمل «بوش» النكتة:

النكتة تقول إنني أوقفت القارب ونزلت إلى الماء ماشيا على سطح الموج واستعدت قبعة البابا وعدت بها إليه.

الصحف في اليوم التالي لم تقل في عناوينها إنني حين مشيت على الموج قمت بمعجزة، لكن خرجت تقول:

«هذا الرئيس الغبي لم يتعلم دروس السباحة، ولم يتقن فن العوم!».

واستطرد «بوش» معلقا:

«هذه النكتة لها معنى بالنسبة لي - هو أن ليس علي أن أهتم بأي شيء يقوله هؤلاء المغرضون - ومهما فعلت فإنني لن أعجبهم، ولا يهمني أن أعجبهم!»].

....

....

كان وزير الخارجية «كولين باول» مشاركا في الاجتماع بوصفه عضوا في مجلس الأمن القومي، وقد قال لمستشارة الأمن القومي «كونداليزا رايس» قبل الاجتماع بأنه سوف يقلص تدخله عند مناقشة الشئون العسكرية إلى أقصى حد، لأنه يقدر أن ذلك الآن ليس اختصاصه، ثم إنه يريد للاجتماع أن يكون «مناقشة عسكرية راهنة» معلقة بوقت اللحظة وليس بما قبلها، وفي إطار ما يراه المسئولون عن تنفيذها وليس في أي إطار آخر، وفيما بعد أشار «كولين باول» إلى أن ذلك الاجتماع كان من أصعب ما شارك فيه، «فهو بحكم تجربته يعرف أكثر من آخرين، لكنه بحكم مسئوليته الحالية يرد نفسه». وقد سمع أثناء المناقشات إشارات إلى آرائه التي شكلت الإستراتيجية الأمريكية العسكرية خلال السنوات العشر الأخيرة - لكنه برغم ذلك منع نفسه من التعليق، وإن اضطر للتدخل عدة مرات خلال المناقشة حتى لا يثير حساسيات أو مشاكل جانبية.

....

[روى «كولين باول» هذه التفاصيل في إطار جلسات مخصصة لتسجيل سريع لوقائع وانطباعات حية لا تزال في ذاكرة وناظرة أصحابها، وذلك أسوة بما فعله الرئيس «جون كنيدي» أيام أزمة الصواريخ، إذ أمر بتسجيل كل اجتماعات مجلس الأمن القومي بالصوت والصورة أثناء وقوعها لكي يمكن الإمساك بالتاريخ حيا «مرئيا ومسموعا».]

....

....

في نهاية لقاء الجنرال «فرانكس» مع الرئيس «بوش» رجاه بوصفه القائد العام أن يهتم بقضية العلاقات بين هيئة رئاسة الأركان وبين وزير الدفاع وأعضاء مكتبه من المدنيين (وفي الغالب فإنه كان يشير إلى «بول وولفويتز» مساعد الوزير، و«ريتشارد بيرل» رئيس مجلس سياسات الدفاع)، ذلك أن هذه العلاقة لا تزال خشنة وتحتاج إلى عملية «تزييت» تجعلها «سلسة».

قــوة الشـرعية أو قـــوة الـسلاح!

كان ذلك الاجتماع فى ٢٣ سبتمبر (٢٠٠٢) هو الفرصة التى تمكنت فيها هيئة الأركان المشتركة من إقناع الرئيس بزيادة حجم القوات المخصصة للعملية، بحيث زادت من حدود الخمسين ألفا التى اقترحها «رامسفيلد» فى البداية، إلى حدود مائة ألف التى قبل بها كحل وسط مع هيئة الأركان - إلى مائة وخمسين ألفا فى حضور الرئيس، وبعد ذلك عرض الجنرال «تومى فرانكس» العائد لتوه من منطقة الحرب القادمة تقريره عما لاحظه.

وكان إطار الخطة المعروض فى الاجتماع - (طبقا لتقرير أعده «مركز دراسات الأمن العالمى» برئاسة الجنرال المتقاعد «جون بيت») - على النحو التالى:

- ٩ قواعد فى منطقة العمليات وحولها: منها سبعة فى سبع دول عربية، واثنتان إحداهما فى تركيا والثانية فى جزيرة «دييجو جارسيا» (يحدد التقرير الأصلى مواقع هذه القواعد فى الدول العربية، ولم أشأ أن أنقلها فى هذا الحديث حتى لا يتصور طرف أن إحراجه مقصود).
- ٦ حاملات طائرات تتواجد فى المنطقة على أهبة الاستعداد للاشتراك فى العمليات، تتوزع من الخليج إلى البحر الأحمر إلى المحيط الهندى.
- ٤ مناطق حشد للقوات المتقدمة على الأرض من ثلاثة بلدان عربية، واحدة منها تخصص لتحركات القوات الخاصة الأمريكية - ومبكرا قبل ساعة الصفر بأسابيع.
- حجم القوات المشاركة فى العملية:

٧ - ٨ فرق أمريكية (حوالى مائة وخمسين ألف رجل).

٤ ألوية بريطانية (ما بين ٣٥ إلى ٤٠ ألف رجل).

فرقتان من الجيش التركى (بحجم خمسين ألف رجل).

- قوات خاصة غير نظامية تابعة لفرق عراقية معارضة:

١٥٠٠٠ من قوات الحزب الديمقراطى الكردى (مسعود برزانى).

١٠٠٠٠ من قوات الحزب الوطنى الكردستانى (جلال طالبانى).

٦٠٠٠ قوات شيعية (تابعة لجماعات معارضة).

٥٠٠٠ قوات تابعة لأحزاب عراقية فى المنفى، وقد توجه بعضها للتدريب فى معسكر خاص فى المجر.

وكان تقدير التحركات (طبقا لنفس التقرير الذى وقعه «جون بيت») - كما يلى:

١٠ أيام لحشد المعدات فى مواقع الهجوم.

١٠ أيام لدخول القوات إلى الخطوط استعدادا لساعة الصفر.

١٠ أيام للوصول إلى بغداد وتجاوز المدن دون خشية، لأن أى محاولة عراقية لقطع الخطوط يمكن تثبيتها والقضاء عليها بالطيران.

وكان هناك اتفاق عام على أن الخطة يمكن تنفيذها فى هذه التوقيتات، ولم تكن هناك خشية من حرب على نطاق واسع فى المدن، لأن هذا النوع من الوقفات الباسلة (على طريقة ستالينجراد ولينينجراد) فات وقته، وأنهته أسلحة الصواريخ والليزر والقنابل العنقودية.

وكان المنطق الرئيسى للخطة هو أنه عندما تبدأ «ضربة الصدمة والرعب» الأولى وتشعر القوات العراقية (الجيش والحرس) أن الموضوع جد لا هزل فيه، وأن القتال إلى النهاية محتوم - وفى ظروف ينعدم فيها التوازن بين الطرفين المتحاربين، وفى غيبة هدف وطنى يستحق التضحية - فإن هذه القوات لن تخوض معركة يائسة من أجل لا شىء، لأن العسكريين يموتون فى المواقع دفاعا عن وطن، وأما إذا ضاع الحافز الوطنى فأى عسكرى يعرف أن التضحية بالدم انتحار لا فائدة منه، ثم إنه لا يسجل تاريخا لأن دافع المبدأ وداعى الوطنية وراءه ضائع.

وكانت كل المعلومات الواردة من الداخل خصوصا بواسطة شبكة استطلاع تصغى إلى كل همسة تجرى فى القواعد العراقية والمعسكرات - تزكى الافتراض الأمريكى بأن الحرب سوف تكون بالفعل سريعة وخفيفة - عنيفة وقاسية فى نفس اللحظة.

ويوما بعد يوم، ساعة بعد ساعة كانت الخطة العسكرية تتكامل، بينما انتقلت بؤرة الحركة إلى الساحة السياسية: واشنطن ونيويورك ولندن، باريس وموسكو وبرلين، وتصادمت وتراشقت السياسات والمواقف والبيانات والتصريحات ألسنة لهب (باردة) تشتعل وتنطفئ ثم تعود إلى الاشتعال مرة أخرى.■

■■ كانت الصورة فى مجلس الأمن فوضى عارمة، فالمعلومات الواردة من واشنطن إلى نيويورك تكشف للوفود جميعا أنه برغم استعداد العراق لقبول عودة المفتشين إليه لاستئناف مهمتهم بلا قيد ولا شرط (حتى فى القصور الرئاسية) - فإن الولايات المتحدة وبريطانيا تقومان الآن بالتعطيل بادعاء عدم الجدوى، لأن النظام فى العراق لم يقبل بعودة فريق المفتشين إلا بعد أن تمكن من إخفاء ما لديه من أسلحة الدمار الشامل.

وفى أوائل أكتوبر كان الملحقون العسكريون لسفارات فرنسا وروسيا وألمانيا فى واشنطن يحضرون يوميا إلى نيويورك لإحاطة وفود بلادهم علما بمدى تقدم الاستعدادات للحرب، وبتصميم الرئيس الأمريكى على إسقاط النظام فى العراق واحتلال البلد، وباعتبار أن الولايات المتحدة وبريطانيا لديهما من الذرائع ما يكفى - دون حاجة لقرار من مجلس الأمن تصدره وفود لا تعرف ما فيه الكفاية، وتعبر عن حكومات ليست معنية بغير ما يمسها مباشرة - ثم إن معظمها حكومات لا تنوى المشاركة مهما كان فى العمليات العسكرية المقبلة، لأنها مرتبطة مع النظام العراقى إما بمستحقات ديون تنتظر تحصيلها، وإما بعقود استغلال للبترول آجلة تتمسك بها ولا يضمن تسليمها غير النظام الحاكم فى العراق الآن.

وبدا أن المواجهة السياسية فى نيويورك تجرى على عدة مستويات:

- مستوى وفود الدول الكبرى فى مجلس الأمن، ومعها الأمانة العامة للأمم المتحدة، وطلب هؤلاء الملح إعطاء المفتشين الدوليين تفويضا من مجلس الأمن يمنحهم سلطة فوق حكومة العراق ذاتها.
- ومستوى آخر تمثل تولاه فكر وإعلام مستنير خصوصا فى أوروبا، وساندته قطاعات ضخمة من الرأى العام الدولى - حتى فى الولايات المتحدة - لأن الكل بدأ يرى نوايا العدوان ظاهرة وبادر إلى إدانتها، بظن أن فى الإمكان إيقاف العملية قبل أن تدور تروسها!
- ومستوى ثالث من المواجهة - حشدت فيه الإدارة الأمريكية أقطابها من الإمبراطوريين الجدد - مسروحا من الصخر لا تتأثر، وتطل على ما ترى أمامها وتسمع دون استجابة، ويبدو أنه عناد تحكم فى العقل، وأنه غرور القوة وأخذ أصحابه إلى منتهاه.

على أن قصارى ما كانت الإدارة فى واشنطن على استعداد له هو إلحاحها المستمر على امتلاك معلومات سرية عن أسلحة الدمار الشامل كيماوية وبيولوجية (وربما نووية أيضا) يملكها العراق، ومن المدهش أن وكالة المخابرات المركزية فى ذلك الوقت كانت أول من يشكك فى صدق المعلومات التى تدعى الإدارة الأمريكية بامتلاكها.

وحدث بالفعل أن السكرتير العام للأمم المتحدة «كوفى أنان» انتهز فرصة لقاء مع المندوب الأمريكى الدائم السفير «جون نجروبونتى» وسأله إذا كان ممكنا وبصفة



شخصية وسرية أن يحصل على ملخص معلومات من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. يؤكد امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل.

وكانت هناك سوابق لمثل هذا الطلب فى مناسبات سابقة حين أرادت واشنطن أن تكون الأمانة العامة للأمم المتحدة على علم بدواعيها فى تصرف معين أو ظرف طارئ، وفى تلك المناسبات السابقة تلقى الأمين العام بصفة شخصية ملخص معلومات. وفى بعض الأحيان جاء إلى مكتبه مندوب خاص من الوكالة يقدم له مباشرة «إيجازا» يحوى ما يلزم له أن يطلع عليه.

ومع أن المندوب الأمريكى الدائم السفير «جون نجروبونتى» وعد «كوفى أنان» بنقل طلبه إلى واشنطن. إلا أن السكرتير العام للأمم المتحدة لم يتلق ردا. وقد يئس من تلقى الرد عندما شاعت فى أروقة مجلس الأمن. (نقلا عن الملحق العسكرى لإحدى القوى دائمة العضوية فى المجلس) - روايات مؤداها «أن وكالة المخابرات المركزية اضطرت إلى عقد صفقة تراضى مع المجموعة الإمبراطورية فى الإدارة، وبمقتضى الصفقة تسكت الوكالة وتكتم شكوكها - وفى المقابل فإن الآخرين يسكتون ويكتمون على إهمال الوكالة وتقصيرها فى شأن حوادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١».

....

....

فى الوقت نفسه كانت رئاسة الوزارة البريطانية منهمكة فى عملية «دعاية سوداء» مماثلة، فقد أصدر مكتب «تونى بلير» رئيس الوزراء «بيان معلومات» لما تملكه الحكومة البريطانية من أدلة على امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل. وأحدث ذلك البيان توترا ملحوظا فى «هوايتهول»، داعيه أن أجهزة المخابرات المسئولة وفيها جهاز المخابرات الخارجية (M.I.8) راحت تسرب معلومات بأن ما أذيع عن طريق مكتب رئيس الوزراء لم يكن من عندها. وإنما جاء من مصادر أخرى لا يعلمها غير مكتب رئيس الوزراء؛ لأن ما لديها هى (M.I.6) يتناقض مع ما صدر رسميا عن مكتب «تونى بلير»، ووصل الأمر إلى حد أن بعض المسئولين فى جهاز المخابرات اتصلوا فعلا - فى سابقة قل نظيرها - بأعضاء فى الوزارة (منهم وزيرة التعاون الدولى «كلارا شورت» وفق روايتها) كى يبرئوا ساحتهم من مسئولية هذه المعلومات وما قد يترتب عليها من عواقب.

يوم ٧ أكتوبر (٢٠٠٢) - وكانت عملية المواجهة السياسية تتطور بسرعة - دفع الرئيس «جورج بوش» عجلة الحوادث إلى الدوران أسرع بإعلانه فى بيان لـ «الأمة الأمريكية «أن صدام حسين يستطيع مواجهة الولايات المتحدة أو حلفائها الأقربين بأسلحة الدمار الشامل فى أى «يوم يختاره»، وأن إدارته سوف تؤدى الواجب العاجل المفروض عليها لمواجهة أسوأ الاحتمالات».

وطلب الرئيس «بوش» تفويضا من الكونجرس باستعمال القوة المسلحة إذا وجد ذلك ضروريا، وبالفعل حصل على هذا التفويض يوم ١١ أكتوبر (٢٠٠٢)، وفى ظرف ساعات كان وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» يطلب من هيئة أركان الحرب المشتركة أن تتحرك مجموعة الجيش الخامس وفرقة جنود المارينز الأولى إلى منطقة الخليج.

وفى هذه اللحظة (منتصف أكتوبر ٢٠٠٢) وقع «إشكال من نوع ما» لا يستطيع أحد أن يقطع فى تفاصيله، بين مكتب وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» وبين هيئة أركان الحرب المشتركة وعلى رأسها الجنرال «مايرز».

كان الإشكال فيما يبدو متصلا بصياغة التوجيه السياسى إلى القوات المسلحة بشن الحرب على العراق.

كانت العلاقات من الأصل متوترة بين وزارة الدفاع وبين رئاسة أركان الحرب، والأسباب معروفة:

- فيها رغبة وزير الدفاع الجديد فى وضع العسكريين فى مكانهم الصحيح بعد نوع من «الشرود» زمن إدارة «كلينتون» (كذلك تقدير «رامسفيلد»).

- وفيها نوعية الرجال الذين جاءوا مع «رامسفيلد» إلى وزارة الدفاع وأحاطوا به معتبرين أنفسهم خبراء فى الإستراتيجية، ولهم مشروع إمبراطورى عالمى شامل.

- وفيها اعتقاد الوزير ورجاله بأن المؤسسة العسكرية الأمريكية (جنرالات «كلينتون») ترهلوا وفقدوا شهية القتال، وأعفوا أنفسهم من مسئوليته.

- وفيها خلاف «رامسفيلد» مع عقيدة «باول» التى حددت شروطا لاستعمال القوة، تقوم على أساس أن ظهور تفوقها قد يغنى عن استعمال سلاحها.

- وفيها ما وقع خلال التحضير لعملية العراق من خلافات حول حجم القوات الضرورية لتنفيذها.

- وفيها أيضا ما يتصل بالخطوط الإستراتيجية العامة التى يقترحها «رامسفيلد»، والتى تعتمد على ضربة أولى بالصدمة والرعب، يعقبها تقدم سريع مباشرة إلى بغداد دون اهتمام كبير بتأمين المؤخرة والحفاظ على خطوط المواصلات والإمداد وتأمينها.

والآن وإزاء كل ما كان يجرى فى «واشنطن» و«نيويورك» و«لندن»، وفى «باريس» و«موسكو» و«برلين» - فإن رئاسة القوات عاودها ما استوجب «إشكالا» «من نوع ما» مع وزير الدفاع.

فى يوم من أيام الأسبوع الأول من أكتوبر (٢٠٠٢) اتصل وزير الخارجية «كولين باول» بمستشارة الأمن القومى للرئيس «بوش» السيدة «كونداليزا رايس»، ورتب معها اجتماعا على غداء لا يحضره غيرهما، وبالفعل وقع الاجتماع على الغداء فى الجناح الخاص بوزير الخارجية فى مبنى الوزارة المشهور باسم ("فوجى بوتوم").

وفيما هو متاح من التفاصيل - فإن وزير الخارجية قال لمستشارة الأمن القومى ما مؤداه «إنه يشعر بأزمة تضارب ولاءات. فولاؤه للرئيس لا يحتاج منه إلى تأكيد، وولاؤه لعمله يستطيع الرئيس تقديره، كما أن ولاءه لوطنه يشهد عليه تاريخ طويل فى الخدمة العامة. وأخيرا فإن ولاءه للمؤسسة التى أفنى فيها عمره (يقصد القوات المسلحة) مستغن عن أى شرح.

ومضى إلى «أنه حاول منذ أُسندت إليه وزارة الخارجية أن يؤدى واجبه، لكنه هذه اللحظة يشعر أنه وصل إلى موقف قد يضطره إلى ما لا يريد، وأنه لو كانت الظروف عادية لقدم استقالته للرئيس حتى يحافظ على ولاءاته كلها سليمة ومتسقة، مع علمه بأنه إذا قدم استقالته يرتاح ويريح آخرين يتصورون أنهم انفردوا بالمكتب البيضاوى وحجبوا غيرهم عن الوصول إليه - إلا أنه الآن (باول) لا يجد كملاذ أخير - إلا أن يطلب مقابلة الرئيس وحده لحديث من القلب إلى القلب، وهو يطلب - بصداقة وثقة متبادلة بينهما (باول وكوندليزا رايس) - أن ترتب لإجراء مثل هذا الاجتماع، وأن تبلغ الرئيس «جورج بوش» نقلا عنه: «إنه فى حاجة إلى جلسة خاصة معه لا يحضرها غيرهما». ويظهر أن «باول» شرح لكوندليزا رايس بعض أسبابه، وأنها اقتنعت على الأقل بضرورة حديث مباشر بينه وبين الرئيس.

وبعد أيام (وعلى الأرجح يوم ١٦ أكتوبر) اتصلت «كوندليزا رايس» بـ«كولين باول» تبلغه أن «الرئيس ينتظره الليلة على العشاء فى الجناح الخاص للبيت الأبيض، وأنهما سوف يكونان وحدهما، وأن الرئيس على استعداد لسماعه بعقل مفتوح وتمنت له حظا سعيدا».

ومساء (الأربعاء) ١٦ أكتوبر (على الأرجح) وفى الساعة السادسة والنصف كان «كولين باول» يدخل بابا جانبيا للبيت الأبيض يؤدى مباشرة إلى الجناح الخاص الذى يعيش فيه الرئيس مع أسرته!

وفيما هو مُتاح من التفاصيل - فإن الرئيس «بوش» بادر وزير الخارجية حين دخل عليه غرفة المعيشة المجاورة لغرفة الطعام الخاصة - مبديا ملاحظة عن نتائج استفتاء جرى فى العراق على «تجديد» رئاسة «صدام حسين»، وكانت

بادر الرئيس «بوش» وزير خارجيته «باول» مبديا ملاحظة عن نتائج استفتاء جرى فى العراق على «تجديد» رئاسة «صدام حسين»، وكانت النتائج تفيد أن «صدام» حصل على ١٠٠٪ من أصوات الشعب العراقى»، ثم أضاف أنه لا يعرف «كيف يصنع هؤلاء الناس مثل هذه النتائج؟» - وزاد ضاحكا «علينا فى المرة القادمة (انتخاباته هو للرئاسة سنة ٢٠٠٤) أن نطلب خبراء من عندهم!!

هذه النتائج قد وصلت إليه قبل قليل، وكانت ملاحظة «بوش» بما معناه «هل رأيت مثل هذا الجنون؟!... «صدام» حصل على أصوات ١٠٠٪ من أصوات الشعب العراقى» ثم أضاف انه لا يعرف «كيف يصنع هؤلاء الناس مثل هذه النتائج؟» . وزاد ضاحكا «علينا فى المرة القادمة (انتخاباته هو للرئاسة سنة ٢٠٠٤) أن نطلب خبراء من عندهم!!»، وضحك الاثنان عاليا (ويبدو أن «جورج بوش» أراد تخفيف توتر «باول» لأنه أحس «أنه مشحون بما يريد قوله له»!).

وبدأ «باول» بمقدمة قريبة مما سبق وقاله لكونداليزا رايس، وأبدى «بوش» «أنه سمع من «كوندى» وأنه من جانبه يريد أن يؤكد ثقته بوزير خارجيته الذى اعتبره دائما عمودا قويا راسخا «Pillar» من أعمدة إدارته، وهذا أيضا رأى «ديك تشينى» نائب الرئيس» (ولم يكن ذلك دقيقا، لأن «ديك تشينى» كان باستمرار أقرب إلى «رامسفيلد» ومجموعته الإمبراطورية).

....

....

وقال «باول» ما مؤداه: «إنه يريد أن يتحدث مع الرئيس فى موضوع واحد وهو «القيمة المعنوية المطلوبة ضروريا» لأى عمل عسكرى تقوم به الولايات المتحدة فى العراق؛ وهو بصفة عامة يفهم ويقدر ويؤيد الأسباب التى تدعو إلى التعامل بشدة وحزم مع نظام «صدام حسين» فهذا النظام بالتأكيد لابد له أن يسقط . وذلك موضوع لا يختلف هو عليه مع أحد وإنما الخلاف على الأسلوب.

واستطرد «باول» «بأنه كان فى «نيويورك» طوال هذا الأسبوع يشارك فى مداولات الدورة الجديدة للجمعية العامة للأمم المتحدة؛ وقد رأى أشياء وسمع أشياء تخص موقف الولايات المتحدة فى مجتمع الدول؛ ثم إنه بعد ذلك عاد إلى «واشنطن» وفى العاصمة رأى وسمع أشياء أخرى تخص موقف القوات المسلحة الأمريكية والمهمة الموكولة إليها فى العراق».

وفى رأيه أن هناك صلة بين الاثنين، بل إنهما فى الواقع موضوع واحد وليسا موضوعين منفصلين!».

استطرد «باول» يحكى عما رأى وسمع فى «نيويورك» وملخص ما عنده فى هذا الصدد:

«أن الولايات المتحدة بتصميمها على المضى فى حرب ضد «صدام حسين» دون قرار من الأمم المتحدة - وفى وجه معارضة ظاهرة فى مجلس الأمن تلح على وجوب صدور قرار جديد عن المجلس يُظهر حزم المجتمع الدولى إزاء النظام العراقى إذا اعترض عملهم.

بينها: أن الولايات المتحدة سوف تبدو فى حالة تحد لمجلس الأمن وللميثاق، وذلك يؤثر على مشروعية عملها فى العراق، ويأخذ من قيمته، ويظهره وكأنه مسألة طمع إمبراطورى فى ذلك البلد أو فى موارده؛ وذلك مسىء للولايات المتحدة.

وبينها: أن ظهور مثل هذه المعارضة من جانب أصدقاء للولايات المتحدة وحلفائها، سوف يؤثر على «أخلاقية» التصرف الأمريكى، إلى جانب التأثير على قانونيته؛ وذلك يغذى موجات المعارضة الشعبية للسياسة الأمريكية، وهى الآن تزداد اتساعا حتى فى أقرب العواصم الأوروبية إلينا ("لندن").

وبينها: أن هؤلاء الأصدقاء والحلفاء الذين يظهرون المعارضة ضدنا فى مجلس الأمن لا يفعلون ذلك «لأنهم اكتشفوا مرة واحدة أنهم يكرهوننا»، وإنما هم يفعلون ذلك بتأثير حرص يبدونه (سواء كانوا صادقين فيه أو منافقين) على قواعد استقرت فى ممارسات النظام الدولى، وفى تقديره وهذا حساب خبراء وزارته (الخارجية) «أن هؤلاء جميعا يمكن أن يتماشوا مع قرار امريكى صارم ضد العراق إذا جريا اتباع الإجراءات التى استقرت عليها الممارسات فى الأمم المتحدة ووفق الميثاق».

وبينها: أن الولايات المتحدة لا تحتاج إلى «لوى» ذراع أحد، بل إنها تستطيع بقليل من الجهد أن تحصل على القرار الذى تريده من مجلس الأمن، وهو شخصيا (كولين باول) يضمن بعد كل ما أجراه من مشاورات مع زملائه من وزراء الخارجية الذين شاركوا فى دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة أن المجلس يمكن أن يصدر بالإجماع - وبموافقة فرنسا وروسيا والمانيا وحتى سوريا، وهى العضو العربى الوحيد فى مجلس الأمن - قرارا قويا حازما يعطى الرخصة القانونية للقوة الأمريكية تتصرف كما تشاء.

وبينها: أنه يتفهم عدم حاجة الولايات المتحدة إلى حلفاء معها لشن الحرب، لكن الأفضل (وهذا رأى خبراء الخارجية) أن يتم ما يلزم إتمامه فى العراق بواسطة تحالف دولى واسع؛ ويرى أن ذلك هو الإطار الأمثل رغم كل ما يعرفه هو بالتجربة الشخصية من صعوبة «إدارة العمل فى نظام تحالفات».

قال «باول»: إن ذلك سوف ينقله إلى النقطة الأخرى وهى متصلة به: لكنها تخص القوات المسلحة للولايات المتحدة الأمريكية.

ثم استطرد فى هذا الصدد بما مؤداه:

«إنه لا يريد أن يتدخل فى الشأن العسكرى - بوصفه محاربا قديما - لكنه الآن وكسياسى يجد نفسه مضطرا إلى استذكار ماضيه القريب؛ والاعتماد على التجربة التى تعلمها - وإنما يثير قلقه أنه أحس بأصداء قوية فى واشنطن نتيجة لما يجرى فى «نيويورك»، وفى بقية العالم من معارضة للسياسة الأمريكية فى أسلوبها الراهن».

استطرد «باول»:

«إن أول درس تعلمه فى الخدمة العسكرية «أن القوة الأمريكية دائما فى خدمة مبدأ، وهذا المبدأ يلزمه دائما غطاء قانونى وغطاء أخلاقى».

ثم إن الولايات المتحدة حاربت باستمرار من أجل مبادئها ومع حلفاء لها يشاركونها نفس المبادئ.

وكان اتحاد هذين العنصرين: المبدأ والتحالف - هو الذى أعطى للقوات المسلحة الأمريكية أفضل أسلحتها - أى معنوياتها وإيمانها بما تفعل.

وأشار «باول» إلى أمثلة:

- فى الحرب العالمية الأولى كنا نحارب من أجل الحرية، ومع حلفاء لنا، وانتصرنا . وفى الحرب العالمية الثانية كنا نحارب ضد النازية والفاشية ومع حلفاء لنا وانتصرنا - وحتى فى «كوريا» - بعد الحرب العالمية الثانية - فإننا حاربنا تحت علم الأمم المتحدة.

أضاف «باول» «أنه حين انفردنا بالعمل وحدنا فى «فيتنام» فإن النتيجة كانت ما يعرفه الجميع.

وأمامنا هذه المرة فى العراق خيار صعب، من ناحية نحن نستطيع شن الحرب على العراق وحدنا . لكننا فى هذه الحالة سوف نكون بغير عنصرين أساسيين:

- غطاء قانونى وأخلاقى يغطى العمل العسكرى.

- وتحالف معنا نبدو فيه الحرب مسئولية مشتركة مع أصدقاء لنا فى الموقف.

أضاف «باول» أنه خلال الأسبوع الأخير فى «واشنطن» - بعد عودته من «نيويورك» - أحس بالقلق الذى يساور هيئة الأركان المشتركة بسبب «الانكشاف المعنوى للتدخل العسكرى».

وأكد «أن أحدا من هيئة أركان الحرب المشتركة لم يتصل به ولم يصارحه بهمومه، لكنه من تأثير خبرة عمره شعر بأن القوات لديها أزمة».

أضاف «باول»:

«إنه بالنسبة للسياسة فإن الغطاء القانونى والأخلاقى لعمل عسكرى يكون مطلبا مرغوبا فيه، لكنه بالنسبة للعسكريين قضية أكثر دقة وحساسية، لأنه بدون الغطاء القانونى والأخلاقى يتحول القتال إلى مجرد قتل، لا يختلف فيه جنرال على كتفه اربعة نجوم عن مرتزق يمسك فى يده بسكين، وهذه مسألة بالغة الدقة - ويتعين عليه ("بوش") بوصفه القائد العام للقوات المسلحة أن يضعها فى اعتباره؛ لأن الغطاء القانونى والأخلاقى بالنسبة للقوات المسلحة ليس مسألة إجراءات شكلية، لكنه مسألة ضرورة تميز (فى أداء المهمة) بين أن يكون المحارب مقاتلا، وبين أن يكون المحارب قاتلا، أى أن



المشروعية هنا هي المبرر الحقيقي لكل ما تفرضه الحرب على الرجال!

عندما انتهى «باول» من كلامه، كان واضحاً أنه استطاع إقنــــــاع «جــــورج بوش» بما عرضه عليه، وفي تقدير أقرب مساعدي «باول»: «أن النقطة التي تخص القوات المسلحة الأمريكية كانت العامل الحاسم في تحول موقف الرئيس».

....

....

[هناك رواية أخرى تؤكدت أصابعها، فقد «همست بشيء من الافتعال فيها حتى باعتبار حساسية العلاقات بين «كولين باول» (وزير الخارجية) و«دونالد رامسفيلد» (وزير الدفاع) ومع ذلك فقد وجدتها دالة في حد ذاتها على أجواء واشنطن السياسية ذلك الوقت وإلى الآن - بصرف النظر عما إذا كانت التفاصيل كاملة أو أصابها التحريف.

وملخص الرواية أن «كولين باول» بعد أن طلب من «كوندا ليزا رايس» (مستشارة الرئيس للأمن القومي) ترتيب مقابلة خاصة بينه وبين الرئيس، بعث لها قصاصة بمقال راه في جريدة، ويحتوي على عرض لديوان شعر تنشره «دار سيمون وشوستر» الشهيرة بنيويورك، والشاعر هو «دونالد رامسفيلد» نفسه الذي لا يعرف كثيرون أنه شاعر له ديوان يصدر في مؤسسة النشر الجديدة (أكتوبر ٢٠٠٢).

وفي هذه القصيدة التي نُشرت مبكرا من الديوان في جريدة «كريستان ساينس مونيتور» يقول الشاعر - «دونالد رامسفيلد» بالنص:

«كما نعرف
فهناك أشياء لا نعرفها
بعضها نعرف أننا لا نعرفه
وبعضها الآخر لا نعرف أننا لا نعرفه
الأشياء التي لا نعرفها - لا نعرفها
والأشياء التي نعرفها قد لا نعرفها!».

وبجوار هذه القصاصة كتب «كولين باول» بخط يده (ولعله أراد تذكير «كونداي» بطلبه):

«إذا كنا لا نعرف ما يجري في رؤوسنا، فكيف لنا أن نزعم معرفة ما يجري في العالم!»]

....

....

في الأسبوع الأول من شهر نوفمبر كان «كولين باول» يقود ما أسماه هو «معركة مصداقية» في مجلس الأمن.

وقد يختلف الناس هنا في نسب هذه المصداقية: وهل مصداقية «كولين باول» أمام الأمم المتحدة (القانون والمبدأ). أو أنها مصداقية «كولين باول» أمام الرئيس «جـــورج بوش» (الغطاء والملاءمة).

وعلى أية حال فقد بدا «كولين باول» في مجلس الأمن مقاتلا شديد المراس في طلبه إلى مجلس الأمن إصدار قرار قوي، إلى درجة الصرامة ضد العراق، ومع أنه واجه معارضة شديدة أثناء إعداد مشروع قرار يحظى بموافقة إجماعية - فإنه مارس جهدا امتزج فيه الحزم والمرونة مع فنون الصياغة - مع تلميحات إلى عهود ووعود يمكن تفسيرها باعتبارها نوعا من التعهد بالرجوع إلى مجلس الأمن مرة أخرى قبل التصرف النهائي - وقد نجح في النهاية.

وفي هذه الأجواء يوم ٨ نوفمبر صدر قرار مجلس الأمن ١٤٤١ الذي يفرض على العراق عودة المفتشين. ويأمر النظام فيه بفتح كل الأبواب أمامهم «دون عوائق». ويعطي لرئيسهم «هانز بليكس» مهلة ثلاثة أسابيع لا تزيد لكي يعود بتقرير إلى مجلس الأمن عن مهمته الأولية في العراق. وهل وجد تعاونا كاملا وأبوابا مفتوحة في أي لحظة وأي مكان، أو أن هناك عراقيل توضع في وجهه. وفي وجه زميله الدكتور «محمد البرادعي» (رئيس الوكالة الدولية للطاقة النووية) - وكان التلويح باستعمال القوة يرن في كل فقرات القرار وتعبيراته.

وكان اللافت للنظر أن «سوريا» وهي العضو الوحيد العربي في مجلس الأمن - وافقت على القرار.

....

....

[ويقول الوفد السوري أن دمشق وافقت بعد أن تلقت تأكيدات بأن صيغة الحزم الطاغية على القرار كانت تهدف إلى «تخويف العراق» بحيث ينصــاع، وتمر الأزمة هذه المرة بسلام كما حدث في مرات سابقة، ولم يكن في الحسبان ووفق التطمينات التي أعطيت للوفد السوري أن القرار تفويض مفتوح للولايات المتحدة تتصرف بالسلاح كما يحلو لها].

....

....

وفي اليوم التالي لصدور قرار مجلس الأمن (١٤٤١)، أعلن في بغداد أنه سوف يُعرض على المجلس الوطني العراقي ليرى فيه رأيه.

ووقف الرئيس «جورج بوش» في مؤتمر صحفي ليعلن أن انصياع العراق دون قيد أو شرط لقرار مجلس الأمن مسألة لا تتعلق بإرادة أحد في العراق يقبل أو يرفض. وأن أمام «صدام حسين» أسبوعا واحدا لكي يعلن امتثاله بالكامل لقرار مجلس الأمن ودعوة المفتشين ليقوموا بمهمتهم دون عوائق، وإلا فإن الولايات المتحدة تحتفظ لنفسها بحق التصرف بالقوة دون انتظار.

وفي واقع الأمر فإن الرئيس «جورج بوش» في تلك اللحظة لم يكن يوجه إنذارا إلى «صدام حسين»، وإنما كان يوجه رسالة إلى القوات المسلحة الأمريكية، وإلى هيئة أركان الحرب المشتركة، بأنه يعمل جاهدا ليوفر لها الغطاء القانوني والأخلاقي الذي تحتاج إليه.

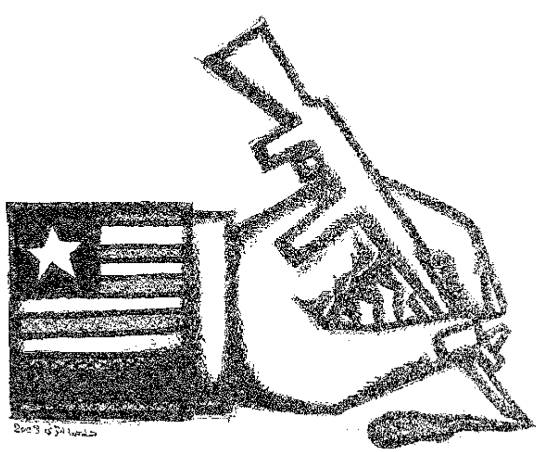
كان قد اتخذ فعلا قراره بالحرب.

لكن همه الآن كان أن يشعر الضباط والجنود الأمريكيون أنهم في العراق لمهمة قتال - وليس لمهمة قتل!

....

....

وكانت تلك لحظة تستحق إطالة النظر في التأثير على المستقبل: وبما هو أوسع من حرب على العراق!



جورج أورويل

نبوءاته التحذيرية

ودلالة الاحتفال بذكراه المئوية

ثقافتنا تميل عادة عندما تحتفى بذكرى كاتب كبير للجوانب الاحتفائية وحدها، والمهرجانات التى تعقد وتنفض دون أن تتمخض عن أثر ذى بال، يبقى فى الثقافة ويعمق فهمها بدور الشخص المحتفى به ويعيد تمحيص إنتاجه، واختيار مواقفه، وتحديد مكانته من جديد فى ماضى الثقافة وحاضرها على السواء.

* * لاشك أن احتفال بريطانيا خلال هذا الشهر، بمئوية الكاتب الكبير جورج أورويل له دلالات عديدة بالنسبة للقارئ الإنجليزى، تختلف اختلافا بيّنا عن تلك التى ينطوى عليها تذاكر القارئ أو المثقف العربى له. ولاشك أن من المفيد للقارئ العربى معرفة ما تفعله الثقافة الإنجليزية فى احتفالها بواحد من أعلامها، بقدر ما هو ضرورى أن نعيد نحن، ومن منظور ثقافتنا العربية الراهنة، النظر فى تصورنا لهذا الكاتب وفق ما توفره لنا هذه المناسبة من مادة إضافية عنه. لأن التعرف على ما تفعله بريطانيا فى مناسبة كهذه، أى الاحتفال بمئوية كاتب مهم، قد يفيدنا فى الاحتفال بمئويات مثقفينا المهمين فى قابل الأيام، ويقدم لنا بعض الأفكار القيمة فى هذا المجال، لأن ثقافتنا العربية فقيرة فيه إلى حد كبير. ليس فقط لضعف الذاكرة العربية التاريخية، ومثل هذه الاحتفالات مناسبات لإرهاف وعى هذه الذاكرة بذاتها وإعادة النظر فى عناصرها المختلفة. ولكن أيضا لأن ثقافتنا تميل عادة عندما تحتفى بذكرى كاتب كبير للجوانب الاحتفائية وحدها، والمهرجانات التى تعقد وتنفض دون أن تتمخض عن أثر ذى بال، يبقى فى الثقافة ويعمق فهمها بدور الشخص المحتفى به ويعيد تمحيص إنتاجه، واختيار مواقفه، وتحديد مكانته من جديد فى ماضى الثقافة وحاضرها على السواء. كما أن ثقافتنا، إذا ما كان لها أن تتخلص مما تعانى منه من ركود وانحدار، فى أمس الحاجة إلى إعادة النظر لا فى أدوار كتابها وإعادة تمحيص مكاناتهم فحسب، وإنما فى معلوماتها عن كتاب الثقافات الأخرى، وإعادة فهمهم وفق متغيرات هذه الثقافات من ناحية، ووفق حاجات ثقافتنا نحن من ناحية أخرى.

ولنبدأ بمعرفة ما قامت به الثقافة الإنجليزية فى احتفالها بمئوية أورويل، حيث حرصت على ما يمكن دعوته بجوانب الاحتفال التنويرية والنقدية والتمحيصية معا وتحقيق التوازن بينها جميعا. فظهرت بعض الطبعات الشعبية لأعماله المشهورة. وأذاعت الإذاعة البريطانية BBC قراءة مسلسلة لأشهر أعماله وأكثرها شعبية ألا وهى (مزرعة الحيوانات Animal Farm). كما أعاد المسرح عرض المسرحية المأخوذة عن هذه الرواية فى أكثر من فرقة. وأفردت صحيفة (الأوبزرفر) على مدار أسابيع ـ وهى الصحيفة التى عمل فيها لعدة سنوات ـ أكثر من صفحة للحديث عن دوره فى الارتقاء بلغة الخطاب الصحفى وتخليصه من الركاكة والترهل. واستكتبت الصحف الأخرى كتابا مرموقين، لا فى انجلترا وحدها، ولكن فى العالم الناطق بالإنجليزية، لتقييم أثر أورويل عليهم، وتحديد ما بقى منه فى واقع الأدب المكتوب بالإنجليزية اليوم. وقد كتبت الكاتبة الكندية المعاصرة، والتى حصلت قبل عامين على جائزة البوكر البريطانية المشهورة، مقالا مهما فى هذا المجال تكشف فيه عن تأثيره الطاغى عليها منذ قرأت روايته (مزرعة الحيوانات) وهى فى التاسعة من عمرها. كما كلفت الدوريات الأدبية المتخصصة نقادا مرموقين، مثل تيرى إيجيلتون أو فرانك كيرمود، بتناول دوره فى الأدب الإنجليزى المعاصر بالتمحيص وإعادة التقييم. وصدر كتابان جديدان عنه، يقرب كل منهما من الخمسمائة صفحة، حظيا بمراجعات واسعة فى معظم الصحف والمجلات الإنجليزية: هما (جورج أورويل لجوردون بوكر Goerge Orwell by Gordon Bowker) و(حياة أورويل لد. ج تايلور Orwell: The Life by D. J. Taylor). كما نقبت الصحافة الأدبية فى ملفات المخابرات البريطانية، واستخرجت الوثيقة التى لم تنشر من قبل، ونشرتها (الجارديان) فى أسبوع ميلاده، والتى تثبت وشاية أورويل بعدد كبير من كتاب اليسار آنذاك، وأدارت حول هذه الوثيقة حوارا تقييمياً واسعا لاتزال أصداؤه تتردد فى الواقع الثقافى حتى اليوم. فأين هذا كله من احتفالاتنا التى تنعقد وتنفض فى غيبة الجمهور؟ تنفق فيها الميزانيات الطائلة دون أن تتمخض عن ثمار، ولا يتم فيها إدارة حوار واسع حول الكاتب ومواقفه، وإعادة تقييم دوره فى الثقافة التى استكانت عندنا إلى تراتباتها القديمة؟

* * *

والواقع أن الخلاف حول دور جورج أورويل وتقييمه ظل محل جدل كبير يطفو على السطح ويخبو بين فترة وأخرى. وقد كان آخر احتفال واسع به، وتمحيص لرؤاه ومقولاته عام ١٩٨٤ بمناسبة مقدم العام الذى جعله عنوانا لروايته الأشهر والأكثر إثارة للجدل والنقاش. كما أن هذه المناسبة كانت هى التى أدت إلى طبع أعماله الكاملة لأول مرة فى عشرين مجلدا، ظهرت عام ١٩٨٦. ولم تقتصر على أعماله العشرة المنشورة فحسب، وإنما ضمت كل مقالاته المتفرقة بالصحف والدوريات، ومراسلاته. فقد ظل هذا الكاتب محل جدل طويل فى ثقافته أو فى غيرها من الثقافات التى ترجمت لها أعماله. وخاصة روايتيه الشهيرتين (١٩٨٤) و(مزرعة الحيوانات). لأنه استطاع أن يخلق عبر كل منهما أمثولة سردية تدير حوارها العميق والخلاق مع الواقع السياسى فى منتصف القرن العشرين، ومع أكثر القضايا الحضارية فيه إلحاحا على العقل والوجدان. وتوشك المعرفة الإنسانية الواسعة بجورج أورويل فى كثير من الثقافات أن تقتصر على هذين العملين، برغم أن لكاتبهما كتباً عديدة أخرى وآلاف المقالات والقصائد والمحاكاة الساخرة. لكن هذين العملين بالتحديد هما المسئولان عن شهرته فى الثقافة الإنجليزية وفى غيرها من الثقافات. ويرجع ذلك إلى ما أود دعوته بسحر الأمثولة الرمزية Allegory عامة، والأمثولة السياسية political allegory خاصة. لأن الأمثولة بشكل عام ـ وليس فى أدبنا العربى نماذج كثيرة منها، وإن كان أشهرها هى رواية كاتبنا الأكبر نجيب محفوظ (أولاد حارتنا) ـ تتسم ببساطتها الخادعة من ناحية، وبنصاعة دلالاتها الرمزية من ناحية أخرى، وبانفتاحها على حقل ألغام من التأويلات من ناحية ثالثة. فما بالك إذا ما كانت هذه الأمثولة ـ كما هو الأمر فى حالة أورويل ـ قد موضعت نفسها فى قلب أكثر الفضاءات الفكرية إشكالية وخلافية، ألا وهو فضاء الحرب الباردة التى اندلعت بين المعسكرين الاشتراكى والرأسمالى عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، واستمرت معاركها دون توقف طوال نصف قرن من الزمان تقريبا. بل إن مصطلح «الحرب الباردة cold war» نفسه كان من صياغة أورويل، وهو الآن مسجل باسمه فى قاموس أوكسفورد للغة الانجليزية.

لا غرابة إذن إذا كان هذان العملان ـ (١٩٨٤) و(مزرعة الحيوانات) ـ اللذان كتبهما أورويل فى أواخر سنوات حياته القصيرة العاصفة هما اللذان حظيا بالشهرة، ووضعا اسمه على خريطة الجدل الفكرى والأيديولوجى الحاد. ولاغرابة أيضا فى أن يتأثرا بالجدل الآن، وخاصة بعدما وضعت الحرب الباردة أوزارها، وبدأت الرأسمالية المنتصرة فى هذه الحرب تكشر للعالم عن أنيابها، وتظهر لمن كان واهما سوءاتها. بل أخذت مع تجليات هذا الوجه البشع الجديد للرأسمالية المنتصرة مجموعة جديدة من التأويلات النقدية لروايته الشيقة (١٩٨٤) فى الظهور. تكشف لنا عن أن الرأسمالية المنتصرة والمسيطرة تستخدم نفس اللغة المشوهة الجديدة التى دعاها أورويل «الرطانة الجديدة newspeak» والتى طالما فسرها البعض بأنها لغة

الأنظمة الشمولية الاشتراكية وحدها. وتجعل الكذب نبراسها في تبرير هيمنتها على العالم، وعدوانها علينا. وها هي الوثائق تكشف لنا هذا الشهر كيف كذبت الولايات المتحدة وبريطانيا على العالم أجمع في حملتهما المسعورة لتبرير حربهما العدوانية على العراق. وإنهما استخدمتا استراتيجيات الدعاية والتضليل والكذب التي كان الغرب يتهم الكتلة الاشتراكية بها. كما كانتا تدركان أنه ليس لدى العراق أسلحة دمار شامل - وأن أكبر ترسانات أسلحة الدمار الشامل في المنطقة - وهما تعلمان ذلك وتخرسان عنه لدى الدولة الصهيونية في فلسطين المحتلة - ولكن الكذب كان مواتيا ومقبولا لتسويغ هذه الحرب العدوانية القذرة، وتمكين المستعمر الجديد من وضع يده على ثروات العراق النفطية واحتياطيه الذي يعد ثاني أكبر احتياطي نفطي في العالم، لإطالة عمر الامبراطورية الأمريكية الظالمة.

وقبل الاسترسال في استقصاءات نبوءات هذه الرواية الدالة، أو الدخول في شبكة التأويلات المتناقضة لها على مر السنين، علينا أن نتعرف أولا على حياة هذا الكاتب المهم الذي تحتفل بريطانيا بمئويته. فقد ولد جورج أورويل - واسمه الحقيقي هو إيريك آرثر بلير — في ٢٥ يونيو عام ١٩٠٣ في موتيهاري في البنغال بالهند، حيث كان أبوه موظفا انجليزيا رسميا في إدارة مكافحة الأفيون في الهند. لكن أمه سرعان ما عادت به إلى بريطانيا وهو في الثالثة من عمره، وما أن بلغ السادسة حتى ألحقه والده بمدرسة «إيتون» الداخلية الشهيرة، وهي مدرسة الطبقة الأرستوقراطية الإنجليزية. ولكنها كانت تسمح كذلك بقبول أبناء موظفي الإدارة الانجليزية في المستعمرات بدخولها حتى ولو كانوا من الشرائح الدنيا في هذه الطبقة، كي ينشأ أبناء الأرستوقراطية وهم على وعي مبكر بأهمية المستعمرات كحقيقة ملموسة في واقعهم من واجبهم إدارتها. وكان من المأمول أن يدخل إيريك الشاب جامعة عريقة مثل أكسفورد أو كيمبريدج بعد انتهاء دراسته الثانوية في «إيتون» لكن لا أحد يعرف على وجه اليقين إذا ما كان انحداره من طبقة متوسطة نسبيا هو الذي حال بينه وبين ذلك، أم أنه فضل الانصراف عن التعليم الجامعي، والعمل منذ سن مبكرة. فما أن أنهى دراسته الثانوية عام ١٩٢١ حتى التحق عام ١٩٢٢ بوظيفة من وظائف وزارة المستعمرات، هي وظيفة ضابط في الشرطة الإنجليزية في بورما. مكنته من أن يعيش حياة أقرب إلى حياة الأرستوقراطية الإنجليزية في المستعمرات. وقد استمر في هذه الوظيفة لخمس سنوات. وحتى عام ١٩٢٧ حينما قادته قراءاته الأدبية والفكرية الواسعة، وضيقه بعدم مبالاة الإدارة الاستعمارية الإنجليزية بثقافة بورما وأهلها، إلى التمرد على ما يتمتع به، هو وأمثاله، من امتيازات طبقية مجحفة لم يعد في طاقته احتمالها. فقدم استقالته من هذه الوظيفة وعاد إلى بريطانيا للعمل بالصحافة واحتراف الكتابة التي طالما حلم بها منذ صباه.

وبرغم تمرده على الوضع الاستعماري الذي خبر تفاصيله الدقيقة بشكل شخصي ومباشر، ورفضه الواضح لمبدأ أن تفرض ثقافة ما هيمنتها وسلطتها الكاملة على ثقافة أخرى، ومعرفته الواسعة بالفكر الاشتراكي في هذا الوقت، وبمقولاته حول استغلال الإنسان الاقتصادي للإنسان، فإنه لم يعلن في شبابه إيمانه بهذا الفكر. بل كان عادة ما يجيب في فترة شبابه ككاتب بين عامي ١٩٢٧ و١٩٣٤ على سؤال زملائه له «ما هو موقفك؟» بتعبير شاع عنه وقتها «فوضوي محافظ A Tory anarchist». فقد كان شديد الولع بالحفاظ على فرديته، وبالرغبة في إثبات ذاته ككاتب مستقل. وقد بدأ أورويل في كتابة الرواية مباشرة عقب عودته من بورما، ولكن الرواية التي كتبها في هذا الوقت المبكر لم تصلنا، ويبدو أنها فقدت كلية، وإن كانت روايته الأولى المنشورة



أورويل

تسجل لنا تجربته فى بورما بين ١٩٢٢-١٩٢٧. وكان يكتب الشعر والمقالات والقصائد الساخرة التى يعارض فيها قصائد شهيرة شائعة، ومراجعات الكتب فى عدد من الصحف والمجلات. وكانت صدمة تعرفه على معاناة شعب بورما تحت وطأة الاستعمار الإنجليزى من الدوافع التى تحدوه لاكتشاف حقيقة الوضع الذى تعيشه الطبقة العاملة الإنجليزية. فقرر عقب عودته أن يجرب حياة التشرد ليتعرف حقيقة على الفقر فى مجتمعه. فعاش بين المشردين والعاطلين على العمل ستين. وجرب بشاعة الاستغلال حينما عمل فى عدد من المدارس الخاصة وبأجر زهيد. ثم انتقل إلى باريس مقررا تكريس حياته للكتابة، وكانت باريس كعبة الكتاب الشبان فى هذا الزمن، ولاتزال، ولكنه قصدها مفلسا. وعاش حياة الفقراء والمشردين فيها أيضا. وعمل فى غسل الصحون فى المطاعم، وسكن فى أحد أحيائها الفقيرة، وواصل الكتابة فى هذا المناخ المعتم المثير معا.

فقد كانت هذه التجربة الباريسية هى التى نتج عنها كتابه الشهير (التصعلك فى باريس ولندن Down and Out in Paris and London) عام ١٩٣٣. وأدى نجاح هذا الكتاب النسبى إلى عودة أورويل من جديد إلى أيام تصعلكه فى بريطانيا، وتعميق قراءاته الأدبية وتوسيعها. وفى العام التالى لفراغه من هذا الكتاب المهم، نشر روايته الأولى (أيام فى بورما Burmese Days) عام ١٩٣٤، التى يعدها الكثيرون أهم روايات ما قبل الحرب، وأكثر رواياته تعبيرا عن نزعته الاشتراكية، بسبب موقفها المناهض للاستعمار الانجليزى فى بورما، ونقدها الجارح للممارسات الاستعمارية عامة. وقد وصفها هو نفسه فى خطاب للكاتب الأمريكى الشهير هنرى ميلر بأنها أحب كتبه إليه. وقد جسد فيها تجربته فى بورما، ومعرفته الوثيقة بآليات عمل الآلة الاستعمارية فيها. وتبعها برواية ثانية هى (ابنة قس A Clergyman's Daughter) فى العام التالى ١٩٣٥. وهى رواية عن سعى ابنة قس انجليزى للتحقق العاطفى، استقى مادتها من تجربته فى جنوب انجلترا أثناء عمله فى المدارس الخاصة. ولم يرض عن هذه الرواية بعد نشرها بفترة قصيرة، إلى الحد الذى منع فيه إعادة طبعها طوال حياته.

أما روايته الثالثة (اهتموا بالزنابق Keep the Aspidistra Flying) عام ١٩٣٦ فيعتبرها الكثيرون من دارسى أورويل من أعماله الأقل توفيقا وبصيرة. لكنها فى الوقت نفسه من أكثر أعماله كشفا عن حقيقة تكوينه الادبية ودوافعه للكتابة. وهى فى الوقت نفسه نقيض روايته السابقة من حيث أنها رواية مترعة بالتوتر والأفكار والغضب من المجتمع المادى والشغف بالمال. لأنها تستمد تجربتها الأدبية من فترة عمله كمساعد فى مكتبة للكتب المستعملة فى هاميستيد Hampstead بين عامى ١٩٣٤ ١٩٣٦، وتتناول أبعاد عملية تكوينه الثقافى والأدبى، ومحاولاته فى التدريب على الكتابة وفى تكوين أسلوب واسم له فى باريس ولندن. وتستمد الرواية اسمها لحدة المفارقة من اسم أحد نباتات فصيلة الزنبقيات Aspidistra التى تعد رمزا للانضباعية الاجتماعية البريطانية، إلى الحد الذى قال معه «لن تكون ثمة ثورة فى إنجلترا طالما بقيت الزنبقيات فى النوافذ». وهذا هو سر الغضب على كل الرواسى الاجتماعية التى تحول دون التغيير والثورة فى انجلترا الذى يسرى فى كل أنحاء هذه الرواية. ويرى بعض النقاد، أنه برغم الإخفاق الفنى النسبى لهذه الرواية فإن فيها الكثير من جذور الغضب، والصراع ضد ضيق الأفق الذى تبلور فيما بعد فى (١٩٨٤). وبعد نشر هذه الرواية مباشرة مع مطلع العام كلفه الناشر فيكتور جولانز بالقيام برحلة إلى قلب انجلترا الفقيرة ودراسة أحوال العاطلين عن العمل فى تلك المناطق من بريطانيا. وقد فهم أورويل من هذا التكليف أن ما سيكتبه نتيجة لهذه الرحلة سينشر فى كتاب، وأن هذا الكتاب سيقدم ضمن مختارات (نادى الكتاب اليسارى) الشهرية التى كان الناشر نفسه قد طرحها فى السوق.

وبدأ أورويل رحلته فى يناير ١٩٣٦ بالتجول فى منطقة البلاد السوداء، وهى المنطقة الواقعة وسط بريطانيا إلى الغرب من برمنجهام، نسبة إلى منطقة الثورة الصناعية واستخدام الفحم المكثف الذى لون هذه المنطقة من انجلترا باللون الأسود، ثم لانكشير واختتمها فى يوركشاير فى أواخر مارس من العام نفسه، وزار خلالها عدد من المدن الصناعية المهمة فى انجلترا من برمنجهام وولفرهامبتون إلى ليدز ومانشيستر وشيفيلد وويجان وليفربول وبارنزلى، وهى المناطق التى اندلعت منها الثورة الصناعية وعانت من قسوتها معا. وتعرف أورويل فى هذه الرحلة على حياة عمال المناجم ونوعية مساكنهم، وآثار سوء التغذية على حياتهم وبصمة الفقر على سلوكهم. كما تعرف على المسؤولين عن مكاتب البطالة، وعلى عدد من العاطلين عن العمل وكيف أثر هذا الوضع عليهم ودمر حياتهم. وقد دون يومياته عن هذه الرحلة وعن كل المقابلات التى أجراها مع العمال والعاطلين عن العمل هناك. وهى اليوميات التى ظلت ضمن أوراقه ونشرت بعد ذلك ضمن أعماله الكاملة. لكنه اعتمد عليها فى كتابة كتابه التالى وهو (الطريق إلى مرسى ويجان The Road to Wigan Pier) الذى صدر عام ١٩٣٧ ضمن مختارات (نادى الكتاب اليسارى) وطبع منه أربعون ألف نسخة. وهو كتاب يعتبره الكثيرون نموذجا للريبورتاج الأدبى الاجتماعى الجاد، يعتمد على الوقائع ولكنه يرتفع فوق تفاصيلها، ويسعى لاقتناص الخلل الذى تنطوى عليه بنية الواقع الانجليزى الطبقية. ويتضمن وصفا دقيقا ومؤثرا لحياة الانجليز العاطلين عن العمل فى قلب انجلترا الصناعية، ولما يعانونه من شظف العيش، وتحلل المجتمع من مسؤوليته تجاههم. كما أن القسم الثانى منه، وهو مجموعة من المقالات الفكرية، ينطوى على ما يمكن اعتباره وثيقة اعترافية مهمة فى تحول أورويل الفكرى. لأنه يعلن فيه اعتناقه للاشتراكية، وينتقد فيه فى الوقت نفسه لامبالاة كثير من الكتاب والمفكرين الاشتراكيين بقضية الحرية، فقد كان ثمة تعارض فى هذا الوقت بين القضيتين.

وبعد انتهائه من هذا الكتاب، وتقديمه للنشر، انطلق أورويل إلى أسبانيا ليتعرف على حقيقة ما يدور فيها عقب اندلاع الحرب الأهلية بها فى يوليو ١٩٣٦. ووصل برشلونة فى ديسمبر من نفس العام باعتباره مراسلا صحفيا، ولكنه سرعان ما انضم إلى الذين تطوعوا للدفاع عن الحرية فيها أمام زحف الفاشية واليمين الرجعى، الذى دعمه فى هذا الوقت للأسف اليمين العربى. ولأنه كان قد جاء مراسلا لجريدة «حزب العمال الإنجليزى المستقل»، فقد التحق بكتيبة الماركسيين، مع أنه لم يكن عضوا بهذا الحزب بعد. وأمضى الشهور السبعة التى قضاها هناك بين الحرب فى الجبهة، حيث أصيب برصاصة فى زوره كادت أن تودى بحياته، وزيارات قصيرة لبرشلونة. ووجد نفسه وسط حقل ألغام الخلافات الأيديولوجية التى كانت تمور بها ساحة هذه الحرب. وقد تمخضت هذه التجربة عن كتابه الجميل (تقديرا لكتالونيا Homage to Catalonia) عام ١٩٣٨، كتالونيا هى القسم الجنوبى الشرقى من أسبانيا، ومن أكثر أجزائها ثراء ماديا وفكريا وفنيا وإنسانيا، والذى كان سقوطها إيذانا بنهاية الجمهورية الأسبانية كلها. وهو كتاب يعد من أهم نصوص هذه المرحلة. ليس فقط لأنه استوحاه من تجربة الحرب الأهلية الأسبانية المأساوية، وسجل فيه بأسلوب مشرق وتجسيد أدبى قوى تفاصيل هذه الحرب ووقعها على الضمير الأوروبى — فقد استوحى منها إرنست همنجواى «لمن تدق الأجراس»، وأندريه مالرو «الأمل»، وغيرهم كثيرون - ولكن أيضا لأنه يعد من أول النصوص التى طرحت على العقل الأوروبى إشكالية التناقض بين الاشتراكية والحرية، وموقف المثقف المستقل إزاء الإرث الستالينى فى هذا الوقت المبكر. فقد انتقد فيه بشدة المحاولات الستالينية للهيمنة لا على الجمهورية الأسبانية التى كانت تعانى تحت وقع ضربات الفاشية الصنمية، ولكن على اليسار الأوروبى بأكمله. إنه وثيقة أدبية ناصعة تجسد لنا نضال الأسبان لتحقيق العدالة والمساواة فى وجه قوى اليمين العاتية، وتكشف عما تنطوى عليه

مصطلح «الحرب الباردة cold war» نفســـه كـــان مـــن صياغـــة أورويـــــل، وهـــو الآن مســـجل باسمـــه فى قاموس أوكســفورد للغـــة الانجليزيـــة

الحرب من قسوة وبشاعة من ناحية أخرى.

وقد أدت تجربة أورويل المريرة فى الحرب الأهلية الأسبانية والتى نقرأ تفاصيلها الدقيقة والمستبصرة فى كتابه الجميل هذا إلى دعوته المناهضة للحرب بشدة إلى الحد الذى وصفه البعض فيه بالسلبية أو الدعوة للنزعة اللاعنفية Pacifism، ونعته الآخرون ـ خطأ ـ بالتروتسكية، بسبب هجومه الشديد على قطيعية المثقفين الاشتراكيين وقبولهم للهيمنة الستالينية. وخاصة أنه انضم عام ١٩٣٨ إلى «حزب العمال المستقل»، وهو حزب صغير اتسم بيساريته الواضحة من ناحية، وبمعارضته الشديدة لكل من «حزب العمال» و«الحزب الشيوعى» فى بريطانيا وقتها من ناحية أخرى. وهذا ما عزز اتهام الكثيرين له بالتروتسكية. وقد أثرت هذه الاتهامات، وعدم نجاح كتابه عن الحرب الأهلية الأسبانية عليه نفسيا، وكانت صحته قد أخذت فى التضعضع بسبب إصابته بمرض السل. ونصحه الأطباء بالسفر إلى مناخ دافئ: فسافر فى سبتمبر ١٩٣٨ إلى مراكش وعاش بها حتى مارس عام ١٩٣٩. وفى هذه الفترة كتب روايته (بحثا عن نسمة هواء Coming Up for Air أو شهقة الحياة) ونشرت عقب عودته مباشرة فى يونيو ١٩٣٩، قبل اندلاع الحرب بشهور ثلاثة. وهى من الروايات القليلة التى يواصل فيها ميراث ديكنز الواقعى والتى حظيت بتقدير نقدى واسع. كما أنها تنطوى على كثير من الرؤى والمخاوف التى تبلورت فيما بعد فى روايته الشهيرة (١٩٨٤) إذ يتوقع بطلها وراويها «جورج بولنج» أن تندلع الحرب، ويعقبها عالم شديد الصرامة مترع بشعارات الكراهية ومليء بالحواجز والأسلاك الشائكة، بالازدواجية والتعذيب، بقمع الحريات وتكميم الأفواه، وبتزييف اللغة والخداع. وهى فى الوقت نفسه رواية عن عالم يتحلل ويوشك على الانهيار وعن ضرورة إيقاظ بريطانيا من سباتها على ما يدور فى العالم من فظائع، وعلى ما توشك أن تنزلق فيه هى الأخرى من مخاطر، لأنها رواية مشحونة بخطر وشيك، وكارثة محدقة، استثارتها فيه دون شك تجربته المأساوية فى كتالونيا.

وفى هذا العام نفسه اندلعت الحرب العالمية الثانية بالطبع، وسقطت معها كل دعواته ضد الحرب وعدم العنف. لأنه وهو الذى جعل قضية الحرية نبراسه الهادى فى معمعة الخلافات الفكرية والأيديولوجية، سرعان ما أدرك ضرورة الدفاع عن الحرية فى وجه زحف الفاشية الحثيث، وكرس قلمه للهجوم الضارى على الفاشية والدفاع حتى عن أقل الديموقراطيات مصداقية. وعمل جاهدا فى مقالاته العديدة والقوية بسبب لغته الإنجليزية المترفة، وبيانه المقنع على فصل النزعة الوطنية عن النعرة القومية التى كانت تستغلها النظم الفاشية، والإجهاز على أى شكل من أشكال التماهى بين الاثنين. وتمييز الثورة الاشتراكية التى رأى أنها تتخلق بين الجنود فى الجيش البريطانى، عن الاستغلال الفاشى لها باسم النعرة القومية. وحاول أن يبرهن على أن جذور الوطنية تتغلغل بشكل أساسى فى الواقع الاجتماعى: ولا تتناقض حتى مع أكثر النزعات المحافظة فى المجتمع. وتتجلى هذه الأفكار بوضوح فى كتابه (الأسد والخرتيت The Lion and the Unicorn) عام ١٩٤١ والذى يضم أهم مقالاته التى كتبها فى مطلع الحرب. وحينما حاول جورج أورويل الانخراط فى الخدمة العسكرية أثناء الحرب للدفاع عن بلاده، رفضه الجيش لأنه مصاب بداء السل، ولذلك لم يقبل فى الخدمة العسكرية. وكان يتوهم أنه قد شفى من هذا الداء الوبيل نتيجة إقامته العلاجية فى المغرب. فانضم إلى الحرس الوطنى Home Guard ووصل فيه إلى درجة «سارجنت»، كما التحق بهيئة الإذاعة البريطانية BBC ككاتب للأحاديث فى إدارة الشرق الأقصى وعمل بها لمدة عامين حتى ١٩٤٣، قبل الالتحاق بجريدة (التريبيون) Tribune كمحرر أدبى، بينما كان أنورين بيفان Aneurin Bevan ـ والذى أصبح فيما بعد وزيرا للخارجية ـ هو رئيس التحرير. وهى الوظيفة التى تلاءمت مع مواهبه الأدبية وظل يعمل بها، وبجريدة (الأوبزرفر) الإنجليزية حتى وفاته.

وكان أورويل قد خطط قبل بداية الحرب لرواية اجتماعية طويلة من ثلاثة أجزاء يريد فيها أن يحلل الواقع الاجتماعى الإنجليزى وأن يقدم رؤيته له بصورة تبلور مدى ما فى النظام القديم من تحلل، وتستشرف بزوغ أنوية التغيير والواقع الجديد تحت إهاب هذا القديم المتهالك والآيل للسقوط. وكيف خان الكثيرون الثورة الثاوية فى رحم هذا الواقع وأجلوا تحققها، وكيف يمكن لنظام إنجليزى شمولى أن يتخلق لإجهاض هذا التغيير، وتصوره لطبيعة هذا النظام الشمولى ولخصائصه الإنجليزية. ومع أن هذه الخطة الروائية لم يتح لها التحقق بسبب الحرب التى غيرت أجندة أولويات الكاتب وانشغالاته، وأخذته بعيدا عما أراد إنجازه، ناهيك عن عبء المرض عليه، فإن شيئا من هذا التصور ألهم روايته القصيرة الساخرة التى ظهرت عقب الحرب مباشرة (مزرعة الحيوانات) عام ١٩٤٥. وهى الرواية التى حققت له شهرة واسعة. وبدأ يفكر فى كتابتها منذ تجربته فى الحرب الأهلية الأسبانية. ورغبته على حد قوله فى إنقاذ الاشتراكية من قبضة شمولية الاتحاد السوفيتى، وخيبة أمله فى النظام الستالينى، والكشف عن أسطورته الخاوية. ولذلك أراد أن يكتب قصة أو أمثولة رمزية يستطيع القارئ فهمها فى كل مكان، ويمكن ترجمتها بسهولة لأى لغة. وما أن انتهى من كتابتها عام ١٩٤٤، وعرضها للنشر حتى رفضها ثلاثة ناشرين تباعا. لكن المناخ وقتها لم يكن مواتيا لنشر رواية يمكن أن تفهم على أنها هجوم على الاتحاد السوفيتى الذى كان حليفا لبريطانيا أثناء الحرب، وكان جنوده يقاتلون ببسالة على الجبهة الشرقية. وكان عليه أن ينتظر نهاية الحرب عام ١٩٥٤ حتى يعثر على من يقبل نشر أمثولته الرمزية الساخرة.

و(مزرعة الحيوانات) كما يقول عنوانها هى رواية ساخرة من قصص الحيوانات تدور كلها على ألسنتها كما هو الحال فى (كليلة ودمنة). وسر نجاحها أنه من الممكن فى مستوى بسيط للتلقى قراءتها على أساس أنها من قصص الحيوان، أو على أساس أنها أمثولة رمزية عن التسلط والاستبداد. ولكنها من حيث البنية السردية الأعمق أمثولة عن لسان الحيوانات فى مزرعة ريفية إنجليزية، عن الواقع السياسى الذى تمخضت عنه الثورة الاشتراكية. يمكن ترجمة الكثير من شخصياتها إلى نظائرها الواقعية والتاريخية بسهولة. بحيث يعد السيد جونز معادلا للقيصر نيقولاى الثانى، وميجور ممثلا لماركس. والحصان بوكسر ملخصا للطبقة العاملة، والخنزير نابليون مجسدا لستالين، وبقية الخنازير كأعضاء للحزب البولشفى، والمهرة موللى تمثل الروس البيض، وسكويلر ملخصا لبوق الدعاية «برافدا»، وموسى ممثلا للكنيسة الروسية. وفريدريك للألمان، وبيلكينجتون للإنجليز وهكذا. كما أن أحداثها تناظر عددا من الأحداث فى التاريخ السوفيتى، حيث يناظر «تمرد الدجاج» انتفاضة البحارة عام ١٩٢١، و«إخفاق المحاصيل» التحول صوب المزارع الجماعية بين ١٩٢٩-١٩٣٣، و«اعتراف الخنازير» محاكمات موسكو بين ١٩٣٦-١٩٣٨، و«مؤتمر الخنازير والبشر» مؤتمر طهران عام ١٩٤٣. وتكشف لنا الرواية كيف أن مطامح الثورة الإنسانية وأهدافها النبيلة سرعان ما تنقلب على ذاتها، وتتحول إلى أداة لتبرير واقع استبدادى لا يقل بشاعة عن الواقع الذى ثارت عليه. ويتحول الشعار السياسى «كل الحيوانات متساوية» إلى شعار ساخر «كل الحيوانات متساوية، ولكن بعض الحيوانات أكثر تساويا من البعض الآخر». وتكشف لنا كيف تنقلب حركات التحرر الإنسانية على ذاتها، وتتحول إلى نظام شمولى صارم للقمع والانصياع.

وقد دفعه الصدى الواسع والنجاح الكبير الذى حققته هذه الرواية القصيرة إلى العكوف على روايته الساخرة التالية (١٩٨٤) أو أمثولته الرمزية الكبرى التى كرست اسمه كواحد من أهم أدباء القرن العشرين. وقد أكمل أورويل كتابة هذه الرواية عام ١٩٤٨، فما كان منه إلا أن عكس الرقمين الأولين فى التاريخ، وجعل هذا التاريخ المستقبلى عنوانا لروايته التى أثارت، ولاتزال تثير الكثير من الجدل حتى اليوم. لأنها تمثل نوعا من اليوتوبيا المقلوبة وتسجل نبوءة أورويل التحذيرية مما سيئول إليه حال النظام السياسى، وحذر من فساد اللغة. وإذا كانت كل



أعمال أورويل وكتابته تصدر عن وعي بآليات الواقع الأوروبي وتناقضاته في السنوات الممتدة من الأزمة الاقتصادية الطاحنة في نهاية العشرينيات وحتى اندلاع الحرب الباردة في نهاية الأربعينيات، فإن روايته الشهيرة (١٩٨٤) تنطوي على حركية هذه الآليات التي بلورتها كتاباته الأدبية والصحفية الأخرى قبلها. كما تستشرف مستقبل أوروبا القاتم بعد زلزال الحرب العالمية الكبير. وقد أكمل أورويل هذه الرواية عام ١٩٤٨، وكان قد بدأ كتابتها عام ١٩٤٥، وقد قرر وقتها أن يكون عنوانها المبدئي هو «الرجل الأخير في أوروبا The Last Man in Europe» وهو تعبير يقوله المحقق لبطلها أثناء تعذيبه في «وزارة الحب» في نوع من تأكيد نهاية عصر النزعة الإنسانية، ومركزية الإنسان الفرد، وقدوم عصر الدولة الشاملة الحديثة، وآليات تهميش الفرد والإجهاز على فرادته، ولكنه قرر في نهاية الأمر أن يقلب تاريخ عام كتابتها ويدعوها ١٩٨٤. لأنها أمثولة خيالية ساخرة عن المستقبل، وهي في الوقت نفسه نص واقعي شديد التجذر في سياق كتابته، وحياة كاتبه، وشروط الواقع الذي صدر فيه.

فقد كان السياق الذي شهد بداية كتابته لهذه الرواية هو سياق مجموعة من المتغيرات المحلية والدولية التي كان لها دور كبير في صياغة بنية الرواية وعالمها معا. فقد شهد عام ١٩٤٥ نهاية الحرب العالمية الثانية التي عانت فيها بريطانيا من الغارات والفقر وتقنين استهلاك المواد الغذائية وتوزيعها بالبطاقات. وشهد إلقاء القنبلتين الذريتين على هيروشيما ونجازاكي، وانتحار هتلر، وانتصار الحلفاء في أوروبا. كما كان هو عام انتخاب حكومة عمالية في بريطانيا بزعامة أتلي. وكانت السنوات التي استغرقتها كتابتها سنوات محفوفة بالصعوبات الشخصية والقومية. فقد عاني فيها أورويل من مرض السل الذي استأداه حياته بعد نشرها بعامين، وعانت فيها بريطانيا من الضرائب الباهظة التي فرضها حزب العمال حتى يمول برنامجه الطموح في الرعاية الاجتماعية والسكنية وإنشاء الخدمات الصحية القومية والمجانية لكل المواطنين. وتأميم السكك الحديدية ومناجم الفحم. كما شهدت محاكمات نورمبرج وما كشفت عنه من مذابح النازي البشعة، وإعلان استقلال الهند: درة التاج البريطاني، ثم اغتيال المهاتما غاندي. واجتياح الصهاينة العسكري لفلسطين، وتأسيس دولة صهيونية لهم في أرضها المحتلة. كما أن انتصار التحالف في الحرب العالمية الثانية لم يؤد إلى استقرار السلام، بل إلى اندلاع الحرب الباردة، والجدل العقائدي الحاد بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي. وكان أورويل لايزال يؤمن بالاشتراكية أثناء كتابته لها، ولكنه أصبح أكثر شهرة بعد روايته السابقة (مزرعة الحيوانات) وسخريته اللاذعة من النظام الستاليني. ولذلك فإن هذه الرواية شديدة التجذر في سياق كتابتها هذا، لأنها تبلور كل تناقضات هذا الواقع في أمثولتها الرمزية الساخرة، وتخلق واقعا من المواضعات المقلوبة والقوانين الشائهة والتشريعات الكابوسية الغريبة، والمؤسسات الممسوخة التي تتربع على قمتها مؤسسة الحزب.

لكن أحد أسباب سحر هذه الرواية وبقاء تأثيرها، ليس تجذرها في السياق الذي صدرت عنه فحسب، ولا نبوءتها التحذيرية الحساسة التي أثبت الواقع صدق الكثير من مقولاتها، ولكن أساسا لأنها تنطوي في داخلها على وعي تناصي بعدد من كبريات النصوص والروايات الغربية. فهي في مستوى من مستويات التأويل تنتمي إلى روايات اليوتوبيا، وإن انتهت إلى نوع من الكابوس أو اليوتوبيا المقلوبة. ولذلك فإن أولى علاقاتها التناصية هي علاقتها الأساسية مع (الكوميديا الإلهية) لدانتي. فإذا كانت الكوميديا تنتقل بالإنسان من الجحيم عبر الأعراف إلى الفردوس، فإن هذه اليوتوبيا المقلوبة تبدأ من الأعراف وتنتهي إلى الجحيم الأبدي. أو هي بالأحرى تبدأ من الجحيم العرضي، وتنتهي إلى الجحيم الأبدي، وقد أجهزت على كل أمل لبطلها في الخلاص. وهي رواية بحث تستفيد من روايات البحث في الأدب الإنجليزي من (رحلات جاليفر) لجوناثان سويفت، وحتى (يوليسيز) لجيمس جويس. وهي أيضا رواية أخلاقية يوشك مشهد التعذيب/النقاش الطويل الذي ينطوي عليه قسمها الثالث، ويدور بين المحقق «أوبراين» وبطلها «وينستون سميث»، أن يكون إعادة إنتاج معاصرة لمشهد المدعي الأكبر في محاكم التفتيش في رواية ديستويفسكي العظيم (الإخوة كرامازوف). فـ«براين» المسئول الحزبي والمحقق الأول مع البطل، شديد الاقتناع بأنه يقوم بدور أخلاقي تعليمي لصالح الفرد والمجتمع معا. وبأن انتزاعه الاعتراف من «وينستون» لا يقل أهمية عن اعتراف المسيحي الكاثوليكي للقس ـ فليس صدفة أن اسمه «براين» كاثوليكي الوقع ـ من أجل تحقيق خلاصه الفردي والروحي معا.

يقول أرويل «كل الكتب اليوتوبية هي أمثولات رمزية أو ساخرة. ومن الواضح أنك إذا ما ابتدعت بلدا متخيلا فإنك تفعل ذلك كي تعالج بعض مؤسسات بلد حقيقي، ربما بلدك أنت» (الأعمال الكاملة جـ١٧ ص ١٦٩)، ومع أن كثيرا من المقالات التي استقبلت هذه الرواية بالترحيب، وأدت إلى تحول كاتبها بين عشية وضحاها إلى بطل من أبطال اليمين إبان استعار رحى الحرب الباردة، فسرتها على أنها أهجية لاذعة للنظام الستاليني، فإن أورويل كان يكتب روايته أساسا عن بلده كما يقول لنا في هذا المقتطف، وعن خيبة أمله في حزب العمال الذي حكم بريطانيا عقب الحرب. ولذلك جاءت روايته نبوءة تحذيرية صادقة. لأنه استطاع أن يوائم فيها بين الرؤية الفكرية النقدية التي يطرحها وبين البنية الروائية التي يستخدمها في روايته. ويحقق أرويل نبوءته التحذيرية من خلال بنية روائية دائرية وبطل مضاد. ومع أن هذه الرواية تنطلق من وعي أورويل بخيط سردي مهم في التراث الروائي الأوروبي يمتد من دانتي وسويفت حتى ويلز وهكسلي وجويس، إلا أن دين هذه الرواية الكبير هو بلاشك لرواية الكاتب الروسي الشهير يفجيني زامياتين Yevgeny Zamyatin (نحن We) التي كتبت عام ١٩٢٠ ومنعت من النشر في روسيا ولم تظهر لأول مرة إلا عام ١٩٢٤. وهي رواية يمكن اعتبار عالمها ويوتوبياه المقلوبة هو السلف المباشر لرواية أورويل. لأنها تدور في دولة تسمى بالدولة الواحدة One State، وليس لمواطنيها أسماء بل أرقام، وكل حركاتهم يترصدها «أوصياء guardians» أو حراس، وحاكمها يدعى «المحسن Benefactor»، والشخصية الأساسية فيها كل ذنبها أنها تسجل يومياتها، وتقع في الحب وهما أمران محظوران، كما أنها تفكر في التمرد والتآمر ضد الدولة. ومن الطبيعي أن يقبض عليها، وأن تجرى لها عملية غسيل مخ تنتهي بخيانتها لحبيبتها، ثم إعدامها أمام نظرها، وهي تراقب في نوع من السادية والإحساس بالذنب معا.

لأن حبكة هذه الرواية الروسية الرائدة لهذا النوع من اليوتوبيات المقلوبة شديدة الشبه بحبكة (١٩٨٤) إلى الحد الذي يمكن معه اعتبار رواية أورويل إعادة لكتابة رواية زامياتين. إذ تدور هي الأخرى في دولة خيالية تدعى «أوشانيا Oceania»، وهي أكثر الأسماء ملاءمة لدولة بريطانيا ذات التاريخ البحري الشهير، لأن الاسم مشتق من كلمة محيط الإنجليزية. وهي دولة يحكمها حاكم فردي هو «الأخ الأكبر» يتربع على قمة الحزب الذي يتكون من طبقتين هما طبقة الحزب الداخلي، أو التنظيم الأعلى للحزب، وطبقة الحزب الخارجي أو الجموع المنخرطة فيه. وتدير شئون الدولة مجموعة من الوزارات ذات الأسماء الغريبة مثل «وزارة الحقيقة»، و«وزارة الحب» و«وزارة السلام»، و«وزارة الوفرة». وفي «وزارة الحقيقة» يعمل بطل الرواية المضاد «وينستون سميث»، وهو اسم مركب من أسماء التضاد هو الآخر، لأن الاسم الأول «وينستون» من أسماء الطبقات الراقية، يستدعي بالطبع اسم وينستون تشرشل، والاسم الأخير هو الاسم الشائع بين أفراد الطبقة العاملة (لأنه يعني صانع أو عامل) بلا نزاع وأكثر الأسماء شيوعا في بريطانيا. وتبدأ أحداث الرواية حقا عندما يكتشف «وينستون» أن ثمة كذبة أساسية في التاريخ الذي تصوغه «وزارة الحقيقة» التي يعمل فيها، ومهمتها بالطبع نشر الكذب. واكتشاف وينستون لدليل الكذب الذي يتغلغل في جوهر النظام نفسه من خلال قضية رفاق الأخ الكبر «جونز، وآرونسون، ورذرفورد»، يزلزل يقينه في كل رواسي النظام، ويطرح الأسئلة المقلقة عليه وعلى الرواية ككل. لأن الدليل الذي اكتشفه والذي ينفي بشكل قاطع الاتهامات التي اعترفوا قهرا بارتكابها، هو

إذا كـان هـذان العمـلان - (١٩٨٤) و(مزرعة الحيـوانات) - اللـذان كتبهما أورويل في أواخر سنوات حياته القصيرة العاصفة هما اللذان حظيا بالشهرة، إلا أنهما وضعا اسمه على خريطة الجدل الفكري والأيديولوجي الحاد

أن ثلاثتهم كانوا خارج البلاد فى رحلة حزبية رسمية حين وقوع ما اعترفوا بارتكابه فيما بعد، وما ترتب عليه إعدامهم.

وهو دليل يشبه كما يقول أورويل فى روايته العثور على عظمة فى حفرية فى طبقة أرضية جيولوجية مغايرة للطبقة التى نتوقع وجودها فيها، مما يعرض نظرية جغرافية بأكملها للتهاوى. وهكذا تتهاوى نظرية «أوشانيا» فى نظره، ويبدأ فى البحث عن شىء آخر يتسم بالصلابة والصدق يتعلق به: فلا يجد إلا أن يخلق بنفسه هذا الدليل من خلال كتابته لمذكرات أو يوميات يسجل فيها «الحقيقة». وهو أمر محظور قطعيا. وكما هو الحال فى رواية زامياتين، يتم القبض على «وينستون» ويتعرض للتحقيق والتعذيب فى «وزارة الحب» ويعيش تجربة غرفة التعذيب «الغرفة رقم ١٠١» على يدى أقرب أصدقائه إليه، والذى كان يعده مرشده وراعيه «أوبراين». إن علاقة «وينستون» بـ«أوبراين» هى علاقة تضادية. ففى البداية يصمد «وينستون» ويرفض خيانة صديقته وحبيبته «جوليا» أو الاعتراف عليها. لكن مثابرة «أوبراين» وبراعته فى التحقيق، تقوده إلى اكتشاف أن لكل فرد وسيلة التعذيب الخاصة به، أو بالأحرى نقطة ضعفه وكعب أخيل الخاص به والتى تقهر قدرته على المقاومة. وكانت الفئران هى أكثر ما يخافه «وينستون». وما أن وضعه فى زنزانة مليئة بالفئران الجائعة حتى تحطمت قدرته على الصمود وصرخ صرخته الشهيرة التى أصبحت مثلا بعد ذلك «لاتفعلوا ذلك بى افعلوه بجوليا»، واعترف على حبيبته هو الآخر فى غرفة التعذيب «الغرفة رقم ١٠١»، حيث يسلمهم فى النهاية جسد حبيبته «جوليا».

فى هذه الغرفة ينكسر «وينستون» ويضطر إلى خيانة حبيبته وتسليمها. ويتحول إلى «يهوذا» معاصر يحقق نجاته بتسليم جسد حبيبته، كما سلم يهوذا المسيح، وظل يحمل بعدها عبء الخيانة الفادح. ويمكن اعتبار هذه الغرفة هى غرفة إعادة الإنتاج أو التأهيل recycling للبشر كى يمكن إعادة استخدامهم من جديد، وإن بعد استلابهم وتحويلهم إلى خرق رثة. وتقدم لنا طبيعة البنية الدائرية للرواية، لأن الرواية لا تنتهى إلا بعد أن تعترف «جوليا» هى الأخرى على «وينستون» وتنكره، كما أنكرها. وهى بنية مقلوبة ترهف حدة التأثير من الجهل إلى الوعى ثم من الوعى إلى الجهل والانخراط فى القطيع مرة أخرى. حيث ينتهى إلى حال أسوأ من تلك التى بدأ بها. وكأن الإنسان يسير - فى منظور أورويل - نحو التدهور المستمر، وليس نحو الارتقاء والتطور. وكيف أن تدمير «أوبراين» للدليل الذى يعتمد عليه وينستون ينطوى على تدمير لأى يقين ممكن يستطيع «وينستون» أن يتشبث به. إذ يصفه أوبراين بأنه «الرجل الأخير» أو بأنه «أقلية من واحد» لاقيمة لها. فالرواية تضع العقل الجمعى فى مواجهة العقل الفردى الخطاء. لأن العقل الفردى - كما يقول له أوبراين - يقع فى الخطأ ويزول، أما عقل الحزب الجمعى فإنه معقل الحقيقة، وأبدى. ولذلك فمن المستحيل رؤية الواقع إلا من خلال عيون الحزب ومنظوره الأبدى.

لكن المشكلة أن «وينستون» اكتشف أن منظور الحزب ليس أبديا ولكنه متغير ومتذبذب كمنظور أى فرد خطاء. لأن الحروب المستمرة، وما يترتب عليها من تغير التحالفات الأساسية، حيث عدو الأمس يصبح حليف اليوم، وحليف الأمس يتحول بقدرة المناورات الحزبية إلى عدو اليوم. تؤكد تذبذب الحزب وتغير منظوره للواقع باستمرار. إن أحد أهم إنجازات هذه الرواية أنها استطاعت أن تقيم تناظرا عميقا بين بنيتها ومحتواها، وأن تجعل محتوى الشكل الروائى نفسه تجليا أساسيا من تجليات موضوعها الأساسى. فسطحية الحياة فى «أوشانيا» فرضت على البنية الروائية هذه الشخصيات ذات البعد الواحد، ولا أقول الشخصيات النمطية. لأن من المستحيل فى عالم كابوسى مثل عالمها أن يخلق شخصيات إنسانية متكاملة. بل إن الرواية نفسها فى مستوى من مستويات الدلالة فيها هى رواية عداء هذا العالم الشائه الغريب لتخلق شخصية إنسانية سوية فيه، لها استقلالها ولها القدرة على التحكم فى حياتها ومشاعرها. لأن الرواية تؤكد لنا أن الإنسان المقاوم فى مجتمع مشوه يصيبه حتما قدر من تشوهات هذا المجتمع. وينتهى به الأمر إلى التشوه مثله. فحتى «وينستون» الذى يريد أن يحقق استقلاله وفرديته فى هذا المجتمع القطيعى، يقع فى خطأ الشك فى حبيبته «جوليا»، وأنها قد تكون من «شرطة الفكر» والثقة الكاملة فى «أوبراين» وهو أحد أعمدة «شرطة الفكر» وجهاز «وزارة الحب» الجهنمى. بالرغم من أن جوليا هى المرأة الوحيدة التى تقدم له الجانب الإيجابى لعلاقة الرجل بالمرأة، من خلال علاقة حب حقيقية يصبح فيها الجنس ممارسة للحب وتعبيرا عن إنسانية الإنسان وفرديته. بعدما أخفقت زوجته الباردة جنسيا «كاثرين» فى أن تحقق له ذلك. ولم تستطع العاهرة القبيحة أن تعوضه عن الإخفاق فى حياته الزوجية.

والأمر الذى يؤكد لنا قتامة الصورة التى تقدمها لنا هذه اليوتوبيا المقلوبة هو تصوير أورويل للشعب فى هذه الدولة. لأن ٨٥٪ من أهل «أوشانيا» من البرول Proles وهى من الكلمات التى اخترعها أورويل أو اختصرها من الكلمة الأصلية الأطول Proletariat أو الطبقة العاملة. ويعتبرهم الحزب من طبقة أدنى من البشر، أو بالأحرى من الرعاع الذين لا يحسب لهم أى حساب، أن الحزب يقرنهم بالحيوانات ولا يعبأ بهم كثيرا. ولا يتصورهم إلا بشكل جمعى أو قطيعى. فهم جماعة من السكارى أو الشحاذين أو العاهرات أو اللصوص. ليس لهم أى كيان فردى يستحق الذكر أو الاهتمام. ولا يرى الحزب فيهم أى خطر، وإن أبقى على بعض عناصر من شرطة الفكر بينهم، يحددون من باستطاعته أن يشكل خطرا منهم ويستأصلون شأفته أولا بأول، وينشرون الخوف بين صفوفهم والقناعة بأن قائد الحزب «الأخ الأكبر» لايخطئ أبدا. ويحافظون على الإبقاء عليهم فى حاجة دائمة إلى الغذاء والمأوى والدواء واللهاث وراء كل ضروريات الحياة. يلهثون وراءها باستمرار دون إشباع حاجاتهم الأساسية منها أبدا، لأنهم يعيشون فى واقع من الأزمات المتواصلة. وبالتالى لا يبقى لديهم الوقت للتفكير فى السياسة، أو مخالفة تعليمات «الأخ الأكبر» الذى يطل عليهم من شاشات التليفزيون المنزلية. ولم يفكر الحزب أبدا فى توعيتهم أو فى ضمهم إلى صفوفه. وكان يكتفى بنشر الشائعات المطلوبة بينهم. وكل المطلوب منهم أن يكونوا على قدر من الوطنية البدائية اللازمة للهيمنة عليهم، أو إقناعهم بقبول زيادة ساعات العمل أو نقصانها لمصلحة البلد كما تقتضى أوامر الحزب. وهى طبقة تتميز بالجشع والأنانية واللامبالاة وضيق الأفق، والغرق فى تفاهاتها اليومية، وعدم القدرة على الارتفاع فوق مستوى حاجاتها الوضيعة. ألا يبدو كل هذا معاصرا لنا حتى اليوم فى أغلب مجتمعات عالم العولمة الغريب؟

وكان من الطبيعى أن نجلب هذا التصور السلبى للطبقة العاملة، من كاتب اشتراكى مثل أورويل، الكثير من النقد، فقد اعتبر الكثيرون أن تصويره المبسط للطبقة العاملة ذاك من أشد عيوب روايته خطورة، ومن عوامل قصرها الفكرى فى آن. بينما اعتبره البعض الآخر تعبيرا عن خيبة أمل أورويل فى حكومة أتلى العمالية بعد الحرب العالمية الثانية. كما أن ثقة «وينستون» فى «كارينجتون» الذى ينتمى إلى هذه الطبقة، ويؤجر لوينستون الحجرة التى يلتقى فيها مع «جوليا» هى ثقة فى غير مكانها. إذ نكتشف فى نهاية الأمر أنه من عملاء «شرطة الفكر». لكن قتامة هذه الصورة تعوضها نصاعة اللغة وقدرة النص على الكشف عن جدلية العلاقة بين الفساد اللغوى والفساد السياسى. لأن فساد اللغة هو أحد الشروط الضرورية لإحكام قبضة الفساد. وهو السبيل إلى تسهيل هذا الفساد وتسويغه. فاللغة هى الأداة الأساسية للهيمنة السياسية والإقناع والسيطرة. وهى وسيلة تحقيق الهيمنة الشاملة على الواقع وعلى عقول المواطنين معا. إن هدفها النهائى ليس تحقيق السيطرة على ما يستطيع الإنسان الجديد التعبير عنه. بل أن نصوغ كلية ما يستطيع قوله. وما يمكنه التفكير فيه كذلك. إن اللغة الجديدة Newspeak هى التجسيد للغة المنتهكة. لغة الحزب العارية من قدرة اللغة التمثيلية أو التصويرية، والتوالغة فى وظيفتها الإقناعية وتحقيق الهيمنة. إن الخطاب السياسى المعاصر يتغيا الدفاع عما لايمكن الدفاع عنه كما يقول لنا أورويل فى تعبيراته الجميلة التى أصبحت الآن دليلا على بصيرته فى آليات الفساد



(رواية ١٩٨٤) قد تكون نموذجاً لأى حكومة شمولية. فقد استخدمت كمعادل للاتحاد السوفيتى إبان الحرب الباردة. ولكن أى قراءة جديدة لها اليوم تكشف لنا كيف أنها تنطبق كلية على الولايات المتحدة الأمريكية

السياسى واستخدام الكذب وشتى صيغ ما يدعوه بالرطانة المزدوجة doublespeak والتفكير المزدوج doublethink والتى نشهد كل يوم المزيد من تجلياتها فى استخدام الكذب فى اللغة السياسية الراهنة. لا فى المجتمعات التى كان يقال عنها شمولية فحسب، بما فى ذلك جل مجتمعاتنا العربية، وإنما فى المجتمع الرأسمالى نفسه فى كل من بريطانيا وأمريكا. وما الجدل الشائع عن الكذب واستخدام شتى صيغ التضليل والتزييف فى الحديث عن أسلحة الدمار الشامل لدى العراق لتسويغ الحرب عليه، إلا حالة كلاسيكية من حالات ما يدعوه أورويل فى روايته بالكلام الفاسد أو الكلام الجديد newspeak وهو كلام ينطوى بالقطع على تفكير إجرامى crimethink أصبح لسوء الحظ هو الخطاب الشائع فى هذا الزمن الردىء الذى نكتشف فيه يوما بعد يوم أن نبوءة أورويل التحذيرية كانت صادقة، وأنها يوتوبياها المقلوبة هى ما نعيشه اليوم فى المجتمع الغربى لا فى أوروبا الشرقية كما توهم البعض لزمن طويل.

إن حكومة «أوشانيا» أو حكومة «المطار رقم ١ Airstrip One» فى الرواية قد تكون نموذجا لأى حكومة شمولية. فقد استخدمت كمعادل للاتحاد السوفيتى إبان الحرب الباردة. ولكن أى قراءة جديدة لها اليوم تكشف لنا كيف أنها تنطبق كلية على الولايات المتحدة الأمريكية. فى قسوتها، وتحكمها المستمر فى تدفق المعلومات، وحاجتها الدائمة لأعداء حقيقيين أو متوهمين، واستخدامها للولاء للأعداء فى تخويف الناس، وتوحيدهم فى الكراهية المنظمة ضد الآخر، وتشويهها للغة واستخدامها المتدنى للشعارات والأفكار، وإلغاؤها للكلمات التى لا تناسبها أو تثير حفيظتها مثل الاستعمار أو الاستعمار الجديد، ولى الألفاظ حتى تعنى عكس دلالاتها الأصلية، وفى تجريمها للفكر، واستخدامها لسلاح عدم الولاء للنظام الأمريكى، ووضع أسماء المعارضين فى قوائم سوداء وغير ذلك من تجليات الواقع الجديد فى النظام العالمى الذى تترأسه الولايات المتحدة الآن. وهذا كله ما يمنح هذه الرواية قدرتها على الفاعلية والاستمرار فى عالم متغير. تصبح فيه وزارة التعذيب هى وزارة الحب، ووزارة المعلومات هى وزارة محو المعرفة وحذف الماضى، ووضع الافكار فى ثقب الذاكرة مع كل ما لاتريد الوعى به فيه وتدميره. ومثل هذا النص القادر على الفعالية فى عالم متغير من النصوص التى ستبقى من أورويل برغم دينه الكبير لزمياتن. والتى يمكن الاستفادة منها وقراءتها على ضوء جديد فى واقعنا العربى فى هذا المنعطف التاريخى فيه عقب سقوط بغداد من جديد فى براثن الاستعمار، ودخول الشعب العربى فى حالة جمعية من الإحباط الأليم، الذى يضعنا جميعا فى الغرفة رقم ١٠١.

يبقى أخيرا واحد من أهم الدروس التى يمكن استنتاجها من مسيرة هذا الكاتب، والتى يصلح الكثير منها لعالمنا المعاصر، وهى العلاقة الشائكة والمعقدة بين المثقف والسلطة. فقد كشف الواقع الثقافى الإنجليزى مؤخرا صفحة سرية من حياة هذا الكاتب تم التعتيم عليها لزمن طويل. وهى استخدام المخابرات البريطانية لامرأة جميلة هى «سيليا كيروان Celia Kirwan»، كان أورويل مغرما بها، فى حثه على الوشاية بعدد من أصدقائه من كتاب اليسار البريطانى. وقد تم أخيرا الكشف عن وثائق هذه الصفحة المجهولة فى تاريخه بمناسبة مئويته. وقد حدثت وقائع هذه الوشاية فى العام الأخير من حياته عام ١٩٤٩، وبعد نشر روايته الأخيرة (١٩٨٤). وكان يعانى وقتها من مرض العزلة وهجوم عدد من كتاب اليسار عليه بسبب أمثوليته الأخيرتين ضد النظام الاشتراكى. وهذا كله ما دفع البعض لالتماس العذر له فى هذه الوشاية. ولكن دعنا نتعرف على قصة هذه الوشاية أولا. كانت سيليا كيروان، واسمها قبل الزواج «سيليا باجيت»، فتاة بالغة الجمال والحيوية تتحرك فى أوساط اليسار الإنجليزى، وكانت صديقة لمامين التى تزوجت من آرثر كوستلر صاحب الكتاب الشهير أو سيئ السمعة (ظلام فى الظهيرة). وكان أورويل قد قابل سيليا عام ١٩٤٥ وأعجب بها عندما أمضيا معا عطلة رأس السنة فى ديسمبر من هذا

كتاب الزاوية

مذكراتى فى نصف قرن

أحمد شفيق باشا

صاحب هذه المذكرات سياسى مصرى بارز لعب دوراً مهماً فى الحياة السياسية المصرية فى نهايات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. فقد كان رئيس الديوان الخديوى ووكيل الجامعة المصرية الأهلية. ولد فى ١٨ مايو ١٨٦٠ بالقاهرة لأب شغل عدة وظائف مهمة خلال عهود سعيد وإسماعيل وتوفيق. تلقى أحمد شفيق تعليمه الابتدائى فى مدرسة المبتديان ثم مدرسة القبة التجهيزية وتدرج فى عدة وظائف صغيرة ثم عمل فى الديوان الخديوى فى عهد توفيق وفى ١٨٨٥ سافر إلى فرنسا لإتمام دراسته وعاد إلى مصر عام ١٨٨٩ حيث واصل العمل فى معية الخديو وتولى وظائف عديدة.

وتعد مذكرات أحمد شفيق باشا من أهم المذكرات التى صدرت لسياسيين مصريين فى تلك الفترة من تاريخ مصر. وقد صدرت فى ٣ أجزاء: الأول من ١٨٧٣ إلى وفاة الخديو توفيق فى يناير ١٨٩٢، والثانى من ١٨٩٢ إلى ١٩١٤، والثالث من ١٩١٥ إلى ١٩٢٣ عن الخديو عباس والحرب العظمى.

وقد أفاض أحمد شفيق فى الحديث عن الجوانب السياسية والتعليمية والاقتصادية والفكرية فى تلك الفترة إلا أن الجوانب الاجتماعية كانت من أكثر الموضوعات متعة وثقافة فى هذه المذكرات. فقد تحدث عن التعليم والرقيق والمنتديات والمجالس والمتنزهات العامة والتمثيل والموسيقى والغناء والزواج والمآتم وغيرها.

وقد اخترنا بعضاً من الموضوعات التى تضمنها الجزء الأول من المذكرات من طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٩.

العام فى بيت كوستلر. وبدأ يكتب لها خطابات عاطفية فى يناير عام ١٩٤٦ يبدأها بحبيبتى سيليا، ويقترح عليها فيها الزواج أو إقامة علاقة عاطفية، ولكنها صدته برقة. ثم غادرت بريطانيا بعد ذلك إلى باريس.

ولم تعد «سيليا» إلى بريطانيا إلا فى عام ١٩٤٩ وذلك للعمل فى إدارة جديدة بوزارة الخارجية سميت «إدارة البحث والمعلومات» مهمتها الحد من نفوذ دعاية الكومنفورم اليسارية الناجحة. وكان أورويل وقتها فى مصحة للاستشفاء من مرض السل، وذهبت «سيليا» لزيارته فى مارس عام ١٩٤٩، حيث أعرب لها عن تأييده لأهداف هذه الإدارة الجديدة وغاياتها. وطلبت منه مساعدة هذه الإدارة الجديدة فى اقتراح أسماء يمكن الثقة فيها من الكتاب، بل طلبت منه الكتابة لإدارتها. ولكنه اعتذر بسبب مرضه، واقترح عليها عددا من الأسماء التى يمكن الثقة فيها. وفى ٦ أبريل ١٩٤٩ أرسل إليها عددا آخر من المقترحات، لكن أهم ما تضمنته هذه الرسالة الأخيرة هو أن لديه قائمة طويلة من الذين لايمكن الثقة بهم ممن وصفهم بالشيوعيين المستترين أو رفاق الطريق، وأنه سوف يطلب من بيته الكراسة التى تتضمن هذه القائمة، وأنه لو أرسلها لها فلابد أن تتعامل معها بأقصى قدر من السرية. وقد حولت «سيليا» الخطاب لرئيسها «آدم واطسون»، الذى أشر عليه بضرورة الحصول منه على قائمة بأسماء الشيوعيين المستترين ورفاق الطريق، فالإدارة تعرف أسماء معظم الشيوعيين المعلنين، وأن تتعامل معها بسرية مطلقة وتعيدها إليه بعد يوم أو يومين. وقد كتبت له «سيليا» ما أمرد بها رئيسها، وعلى ورق وزارة الخارجية المطبوع فى ٣٠ أبريل قائلة أن إدارتها مهتمة أشد الاهتمام برؤية قائمته، وأنها ستكون ممتنة جدا لو أتاح لها رؤية قائمته بالشيوعيين المستترين ورفاق الطريق، وستتعامل معها بسرية مطلقة. وقد طلب أورويل فى ١٧ أبريل، وقبل أن يصله خطابها ذلك، من صديقه «ريتشارد ريز» أن يرسل له الكراسة المذكورة من البيت الثانى الذى كان يقيم فيه فى جزيرة جورا الأسكتلندية والذى كتب فيه روايته الأخيرة.

وما أن يصله خطابها حتى يرسل لها القائمة وهى قائمة طويلة تتضمن ١٣٥ اسما، شطب منها على عشرة أسماء لاتزال مقروءة، ووضع فيها علامة استفهام أمام عدد اخر من الأسماء. وقد تضمنت هذه القائمة أسماء كتاب وصحفيين مثل جون أندرسون مراسل صحيفة (الجارديان) العمالى، وجون بيفين رئيس تحرير صحيفة (مانشيستر) المسائية، ومارتن كينجزلى رئيس تحرير (نيوستيتسمان)، وإسحق دويتشر الذى يكتب فى (الأوبزرفر) و(الإيكونوميست) ومايكيتزى نورمان، وكتاب الشئون الخارجية توم دريبرج وآليريك جاكوب، ومارجورى كوهين، وولتر دورانتى، وألكسندر ريث، وستيفن ليتون، وأيريس مورلى، وسيدريك دوفر لعدائه الشديد لأمريكا، وتايور ميندا، ورالف باركر، وبيتر سموليت، ومارجريت ستيوارت، وعدد لابأس به من الروائيين مثل آرثر كولدر مارشال، د. جولدريدج، ون، ميتشيسون، و ر. نيومان، وكاتب المسرح الشهير ج.ب. بريستلى، والشعراء نيكولاس مور، وهيو ماكديرميد، وممثلين مثل تشارلى شابلن، ومايكل ريدجريف، والناقد المسرحى نورمان ماكينزى، والناقد بيدر آونيل، وأساتذة جامعة مثل بروفيسور بيرتراند راسل، وبروفيسور ب.م. بلاكيت، وبروفيسور أ.ه. كار، وبروفيسور جوردون تشايلد، وبروفيسور جون ميرى، وغيرهم. وهى قائمة دامغة بأى حال من الأحوال، تتضمن أسماء عدد من ألمع كتاب بريطانيا وأساتذتها وصحفييها. صحيح أن البعض الآن يعللها بأن دافع أورويل لكتابتها هو حرصه على إنقاذ بريطانيا من الوقوع فى شرور الحكم الشمولى، وحرصه على إنقاذ الجمهور من الرطانة الاشتراكية المضللة. ولكننا فى نهاية الأمر لا يمكننا إلا أن نعتبرها وصمة عار، وتقريرا بوليسيا يشى فيه بعدد ممن اعتبرهم أصدقاءه فى فترات سابقة من حياته، وسقطة من كاتب كبير وهو على فراش الموت، لأن أورويل مات بعدها بشهور معدودة فى ٢١ يناير عام ١٩٥٠. وها هى الحقيقة تظهر الآن ولو بعد أكثر من نصف قرن، لتدفع الكثيرين إلى إعادة النظر فى الكثير من مواقفه ونصوصه ■

كتاب الزاوية

مذكرات أحمد شفيق باشا

الرقيق

كان الرقيق يكاد يعتبر يومئذ جزءًا من الأسرة وكانت تجارة الرقيق منتشرة فى البلاد، سواء منه الأسود أو الأبيض.

وكانت توجد فى القاهرة بيوت خاصة ببيع الرقيق تعرض بواسطة (يسرجيات أو يسرجيين)، فكان يرتاد هذه البيوت من يريد اقتناء الجوارى أو المماليك أو العبيد.

وكان المعتاد أن يكشف عن الجنسين وهم عرايا. وقد يبالغون فى ذلك. خصوصًا بالنسبة للإماء. فيوضعن فى طسوت ملأى بالماء، ثم يخرجن، فإن نقصت كمية الماء دل ذلك على الصحة.

وكان يوجد بين الجراكسة عائلات بتمامها. ذكورًا وإناثًا، كبارًا وصغارًا، وقد اقتنى أبى عائلة مؤلفة من رجل وامرأة وولد وبنت صغيرين.

وكان مالكو الرقيق يستمتعون بالإناث منه (الجوارى) وخصوصًا البيض منهن. وكن يملأن بيوت الكبراء. وبذا اختلط الدم المصرى بدم الجراكسة فى بعض الأسر. وكان المصريون يعاملون الرقيق معاملة حسنة، فيرسلون الذكور للمدارس ويعتقونهم. ومن هؤلاء من وصل إلى وظائف مهمة فى الجيش والإدارة، حتى أن شوارع حلوان قد سمى أكثرها بأسمائهم؛ ومنهم من كان يزوج بناته منهم، أما الإناث فكان يعنى بتزويج الكثيرات منهن.

وقد ضعفت تجارة الرقيق على أثر المعاهدة التى عقدت فى شأنه فى عهد إسماعيل ثم انقطعت تجارته بعد ذلك بتاتًا.

شريعة البقرة الحمراء.. التوظيف

ليلى إبراهيم أبو المجد

إن أية محاولة لهدم وتدمير المساجد الإسلامية الموجودة على جبل المكبر، من أجل بناء «الهيكل الثالث» وإقامة دولة دينية تحكم بالشريعة فى إسرائيل، ستهدد ليس فقط الديمقراطية فى دولة إسرائيل، ولكن ستهدد وجود وكيان الدولة ذاته!!

دأب بنو إسرائيل منذ تاريخهم القديم على استغلال الدين وتوظيفه بما يخدم أهواءهم وأطماعهم، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً وتمتلئ بها أسفار العهد القديم، وأبواب المشنا Mishna[1]. وسنكتفى هنا بتناول نموذج منها وهو شريعة البقرة الحمراء[2]، التى علقوا إعادة بناء الهيكل على إقامة هذه الشريعة التى وردت فى سفر العدد الإصحاح التاسع عشر، وهو من أسفار التوراة الخمسة التى تنسب إلى موسى عليه السلام. ووردت هذه الشريعة فى المشنا فى كتاب الطهارة، باب البقرة.

وقد وقع اختيارى على هذا النموذج لارتباطه بقضية الصراع العربى ضد الصهيونية ومشروعها الاستعمارى فى فلسطين، ولارتباطه بالمحاولات التى تقوم بها الجماعات الدينية المتطرفة فى إسرائيل من أجل هدم المساجد الموجودة على جبل المكبر بما فيها المسجد الأقصى، تمهيداً لإقامة «الهيكل الثالث»، والتى عرضها The Center for the Protection of Democracy in Israel «مركز الحفاظ على الديمقراطية فى إسرائيل» فى «بحث على الإنترنت فى الموقع www.Keshev.org.il باللغة العربية تحت عنوان: «الهدف.. جبل البيت (أى جبل بيت الرب ويقصدون به جبل المكبر) نظرة حالية على التهديدات التى يتعرض لها جبل البيت من عناصر قنائية ومسيحانية «ويكون مقدساً وعقبة وحجر عثرة لبيتى إسرائيل وفخاً وشركاً لسكان أورشليم».

سفر إشعيا ٨/١٤

استخدم هذا البحث عدة مصطلحات ذات دلالات دينية وتاريخية. تربط بين ما تقوم به الآن الجماعات الدينية المتطرفة فى إسرائيل فى سعيها المحموم من أجل إقامة «الهيكل الثالث» لأغراض سياسية، وبين الجماعات اليهودية المتطرفة التى عاصرت ظهور السيد المسيح عليه السلام، ومنها «القناءون، وتعنى بالعبرية المغيورون، قد اشتهرت هذه الجماعة بالغلو والقسوة فى تطبيق الشريعة، واللجوء إلى استخدام العنف والإرهاب لدرجة أنهم لُقبوا بـ «سيقارين» وتعنى بالعبرية إرهابيون أو سفاحون، وكانوا يفضلون الخروج على القانون، بل يفضلون الموت لهم ولذويهم على الانصياع إلى الآخر المخالف لهم فى العقيدة.

لقد تسببت تلك الجماعة ومن انتهج نهجها فى العنف والإرهاب والتطرف الدينى، فى القضاء على الوجود اليهودى فى فلسطين، وذلك عندما قام القائد الرومانى «تيتوس» بالانتقام منهم كرد فعل لما قاموا به من جرائم وفظائع، وقام بتدمير «الهيكل الثانى» سنة ٧٠م، وطرد البقية الباقية منهم من فلسطين، وتشتتوا منذ ذلك التاريخ فى سائر أرجاء المعمورة وظلوا هكذا حتى منحهم الاستعمار البريطانى «وعد بلفور» وتحالف مع الصهيونية حتى تم تنفيذ هذا الوعد بإقامة إسرائيل على قسم من أرض فلسطين العربية.

والبحث الذى يقدمه «مركز الحفاظ على الديمقراطية فى إسرائيل» يقرع ناقوس الخطر ويضع أمام الحكومة الإسرائيلية، ومن يهمه أمر بقاء دولة إسرائيل، النتيجة التى توصل إليها وهى: أن أية محاولة لهدم وتدمير المساجد الإسلامية الموجودة على جبل المكبر، من أجل بناء «الهيكل الثالث» وإقامة دولة دينية تحكم بالشريعة فى إسرائيل، ستهدد ليس فقط الديمقراطية فى دولة إسرائيل، ولكن ستهدد وجود وكيان الدولة ذاته!!

فلقد رصد البحث تزايد نشاط الجمعيات والمنظمات الداعية إلى إقامة الهيكل خلال التسعينيات من القرن الماضى. وخصوصاً فى السنوات الخمس الأخيرة منها، بعد أن اتسعت دائرة النشطاء والمؤيدين والقاعدة الجماهيرية المؤيدة عقدياً لفكرة هدم المساجد الموجودة فوق جبل المكبر (فى سنة ١٩٩٠م بلغ عدد أعضاء «دعاة الهيكل» ٦٠ شخصاً وفى أغسطس عام ٢٠٠٠م بلغ ٥٠٠٠٠ شخص). كما رصد البحث دور المؤسسات الحكومية فى هذا النشاط (دور وزارة الأديان، الوزراء، القضاة، رئيس لجنة التشريع فى الكنيست).

وقد أرجع البحث هذه الظاهرة إلى عاملين: خارجى وهو الخوف من توقيع الحكومة الإسرائيلية اتفاقية تضفى على الوضع القائم الصفة الشرعية، وهو سيطرة الفلسطينيين الفعلية على «جبل الهيكل».

أما العامل الداخلى فقد ألمح إليه البحث فى عنوانه، وهو توقعات اليهود بقرب مجىء المسيح المخلص مع اقتراب حلول الألفية الثالثة، لإقامة مملكة الرب، وهو ما أدى إلى زيادة الاهتمام والتفكير فى موضوع الهيكل. لقد أصبح الأمل فى مجىء المسيح المخلص ركناً من أركان العقيدة اليهودية، وأصبح يسمى عند كثير من المؤرخين باسم «المسيحانية». والواقع أن الحلم المسيحانى لم يكف عن مداعبة خيال اليهود منذ السبى البابلى وحتى مطلع القرن الحادى والعشرين، فظهر العديد من اليهود الذين ادعى كل منهم أنه المسيح المنتظر، وآمن بهم الآلاف، وفى كل مرة يثبت فيها كذب هذا المسيح أو ذاك كانت العاقبة وخيمة ليس فقط على هذا المسيح الكذاب، ولكن على جمهور المؤمنين فهم يتعرضون لبطش السلطة الحاكمة فى البلد التى ظهر فيها المسيح، ثم تتفشى فيهم حالة من اليأس والإحباط تؤدى بالكثيرين منهم إلى التخلى عن اليهودية برمتها والكفر بها.

ونظراً لأن المستهدف والمتلقى لهذا البحث هو الحكومة الإسرائيلية، التى يتوجه إليها باقتراحاته فإنه تعمد فى مواضع كثيرة التلميح دون التصريح مستخدماً مصطلحات ذات دلالات دينية وتاريخية وسياسية لتوصيل ما يريده من رسائل، والتى لن يفهمها إلا من يقصدهم بهذا البحث أو المتخصصون فى التاريخ والديانة اليهودية، لذلك فقد أخذت على عاتقى مهمة عرض أهم النقاط التى أبرزها البحث، بالإضافة إلى توضيح وشرح الجوانب التى سكت عنها دون فصل بينهما.

رصد البحث حوالى عشر هيئات تعمل فى مجال الإعداد للهيكل، وكل واحدة من هذه الهيئات التى يذكرها تعمل فى مجال تخصصها ولكنها ترتبط بالآيديولوجية العامة «لدعاة الهيكل» التى تقوم على نظرية التدرج، والتى تعتبر دراسة وإحياء الخدمة فى الهيكل والطقوس، هى البداية أما المرحلة النهائية فهى إقامة الهيكل فى المكان الذى توجد فيه المساجد على جبل المكبر.

يدعم هذه الهيئات جماعة مساندة تشمل هيئات تشريعية، مثل «دار القضاء المجاورة لجبل الهيكل»، الجمعيات التى تقوم باستيطان «احتلال» شرق القدس، مثل «عطرت كوهنيم» التى تركز على شراء المبانى والأراضى المجاورة لحائط البراق وأسوار «جبل البيت»، معاهد دينية متطرفة مثل معهد «شوفوباتيم».. وحاخامات وقادة طوائف:

١ . أولى هذه الهيئات «دعاة الهيكل» وهى هيئة عليا تضم المنظمات المهتمة بجبل الهيكل. وأحد الناشطين الأساسيين فيها هو الحاخام باروخ كهانا، ابن زعيم حركة كاخ الذى تم اغتياله، وله سجل معروف فى ممارسة العنف والإرهاب.

٢ . «حركة إعداد الهيكل» تهتم بالناحية العملية لإحياء طقوس تقديم القرابين، وغيرها من الطقوس المرتبطة بالهيكل. ونقوم بإعداد زى الكهنة وأدوات الهيكل.

٣ . «معهد الهيكل» أُقيم عام ١٩٨٣م، ويركز على إعداد الأدوات اللازمة لإحياء مائتى شريعة، والتى لا يمكن إقامتها إلا بعد إعادة بناء الهيكل، ويضم المعهد متحفاً لأدوات الهيكل، العطور، وملابس الكهنة وغيرها. والمعهد يتلقى تمويلاً دائماً ومساعدة من السلطات القومية، ويؤكد الناشطون فى المعهد أنهم يتلقون مساعدات من هيئات بروتستانتية مسيحية.

٤ . «حى وموجود» أُقيمت سنة ١٩٩٠م، وتصف تلك الحركة نفسها بأنها مسيحانية «حركة الخلاص من أجل إحياء مملكة إسرائيل» وأهدافها هى:

أ. تحويل إسرائيل إلى دولة دينية تطبق الشريعة اليهودية.

ب. تفجير ونسف المساجد الموجودة فوق «جبل المكبر».

٥. «إلى جبل المُرّ» وهي هيئة فكرية.

٦. «نساء تعمل من أجل بيت المقدس» وتهتم بجمع الحلي الذهبية والأحجار الكريمة من النساء وذلك من أجل بناء الهيكل.

٧. «منذ البداية» والموضوع الأساسي الذي يدور حوله النقاش في دوائر هذه الهيئة هو الصراع حول «جبل البيت» وإقامة الهيكل، ويتمحور حول أن إعداد بيت المقدس يتم بيد الإنسان، وذلك تطبيقاً للفريضة «اصنعوا لي مَقْدِساً» أي أن إقامة الهيكل ليست معلقة ولا مرهونة بمجيء المسيح.

٨. «حراسات الكهنة» وينتسب أعضاؤها للكهنة، من سبط لاوي: وهم

ذوي سجل بشع في الإجرام والإرهاب، ولديهم القدرة على القيام بأعمال تخريبية، ولكن في كل الجمعيات والهيئات حتى الصغيرة منها والمؤقتة، نظراً للتنظيم والتخطيط والتناغم الذي تعمل هذه الجمعيات في إطاره ويجعلها في النهاية تصب جميعاً في هدف واحد هو:

أ. إقامة الهيكل الثالث في المكان الذي تقوم عليه المساجد الإسلامية فوق «جبل المكبر».

ب. إقامة دولة يهودية تحكم بالشريعة.

والمحاولات التي تتم من أجل تحقيق هذه الأهداف، لا تشكل خطورة أو تهديداً، كما يرى كاتب البحث، على الديمقراطية في دولة إسرائيل فقط، ولكنها تهدد كيان الدولة ذاته ووجودها. فإذا كانت المرويات الدينية ترى أن «الخلاص» أمر حتمي،

قدره الرب ولا تدخل للإنسان فيه، فإن هذه الجمعيات والهيئات تتبنى وجهة نظر مرويات هامشية متطرفة ترى أنه من الممكن استعجال «الخلاص» عن طريق القيام بخطوات فعلية تمهيدية منها:

١. إحياء السنهدرين (الهيئة القضائية الدينية).

٢. البحث عن بقرة حمراء من أجل التطهر.

«فدعاة الهيكل» يرون أن إقامة «الهيكل الثالث» توجب إحياء عمل «السنهدرين». وقد توصل البحث إلى أن «دعاة الهيكل» قد أحيوا في الآونة الأخيرة في هدوء وسرية «السنهدرين الصغير» وهي هيئة قضائية دينية تضم ثلاثة وعشرين عضواً. والاسم مأخوذ عن الكلمة اليونانية التي تعني «مجلس الشيوخ». وقد شكل اليهود «السنهدرين» في فترة الحكم اليوناني للمنطقة وكان

بمثابة مؤسسة دينية تشريعية وسياسية، وهنالك «السنهدرين الكبير» ويتألف من واحد وسبعين عضواً، والمؤسستان بمثابة دار قضاء لها صلاحية إصدار أحكام إعدام وفقاً للشريعة. وكان مقر السنهدرين في فترة الحكم اليوناني للمنطقة، في قاعة من قاعات الهيكل. وقال بروفيسور هليل فايس وهو أحد أعضاء «السنهدرين الصغير» الذين تم تعيينهم، في حديث لمندوب كشف بتاريخ ٢٠٠٠/٨/١٦م: «يدور الحديث حول إيجاد قيادات دينية بديلة لقيادات الدولة العلمانية».

ثم يرصد البحث بعد ذلك المحاولات والجهود المبذولة من أجل تربية «البقرة الحمراء» والتي سوف يستخدم التراب الناتج عن حرقها في تطهير الكهنة لكي يكونوا صالحين ويسمح لهم بالقيام بالطقوس والخدمة في الهيكل. فتطهير

السياسي للنص الديني عند اليهود

المكلفون بالخدمة وإقامة الطقوس والشعائر في الهيكل. ومن أجل الإعداد الفعلي والتمهيدي لبناء الهيكل تم تقسيم إسرائيل إلى مناطق، يعين على كل منها مسئول عن الكهنة في هذه المنطقة. والمهام اليدوية التي ستناط إليهم تشمل أعمال البناء، والتطهير، ذبح وتقريب القرابين، العزف. وفي مستوطنة «مصفة أريحا» يجري الإعداد لبناء الهيكل في تكتم شديد كما يتم تدريب الكهنة على القيام بالطقوس.

٩. «أمناء جبل الهيكل» وتعمل هذه الهيئة خارج سيطرة المنظمة العليا، ويتلقى رئيسها مساعدات من طوائف مسيحية بروتستانتية في أمريكا. وهي الطوائف التي تؤمن بأن حرب يأجوج ومأجوج[٣] وإقامة الهيكل، مرحلة لاهوتية لابد أن تحدث قبل قيامة المسيح عليه السلام.

وقد صرح رئيس الهيئة لمندوب كشف موقع الإنترنت في حديث بتاريخ ٢٠٠٠/٦/٢٨م: أنه في الآونة الأخيرة انضم لتلك الحركة نصارى من كافة أرجاء العالم، بما في ذلك، دول إسلامية مثل مصر، وإندونيسيا، وبلدان أفريقية، ويبلغ إجمالي الأعضاء عشرة آلاف. أما في إسرائيل فيبلغ عدد أعضاء هذه الحركة ما يربو على عشرة آلاف...

وبعد أن عرض البحث نشاط الهيئات والجمعيات والمنظمات الداعية إلى إقامة الهيكل، يؤكد البحث على النتيجة التالية: أن الخطورة لا تكمن فقط في الجمعيات والهيئات التي تضم نشطاء



الكهنة شرط ضروري لإحياء الطقوس والشعائر المتعلقة بالهيكل. وسوف نتوقف عند هذه النقطة من البحث الذي يقدمه «مركز الحفاظ على الديمقراطية في إسرائيل» لنناقش الإشكاليات التي أوقع اليهود أنفسهم فيها نتيجة توظيف الدين وتأويله معان لم يقصدها. فشريعة البقرة الحمراء فريضة أمر بها موسى عليه السلام، وقد تضمن النص سبب فرض هذه الشريعة (العدد/١٩/١٣): «كل من مس جثة إنسان قد مات ولم يتطهر ينجس مسكن الرب...» فالوحي كان ينزل على موسى عليه السلام في خيمة الاجتماع. لذلك أمرهم الرب بالتطهر، فالإنسان النجس بدخوله خيمة الاجتماع ينجس المكان الذي يحل عليه الرب، ويسمى في النص (العدد١٩/١٣) «مشكان» وهو اسم مكان من الفعل العبري «سكن» ويسمى أيضاً في موضع آخر (العدد ١٩/٢٠) «مقداش»[٤] وهو اسم مكان من الفعل العبري «قدس» ويعني المكان الذي تحل فيه القداسة أو التقدس.

وتتلخص شريعة البقرة الحمراء في أنه إذا مات إنسان في خيمة فقد تنجست الخيمة، وتنجس كل من فيها من أشخاص وكل ما فيها من متاع وأدوات. ويظل الفرد نجساً طيلة سبعة أيام، ولكي يطهر يجب أن ينثر عليه ماء مخلوط بتراب البقرة الحمراء في اليوم الثالث لحدوث النجاسة وفي اليوم السابع ثم يغسل ملابسه ويغتسل بالماء ويصبح طاهراً في المساء.

وتنحصر شريعة البقرة



الحمراء كما نصت عليها التوراة في ثلاثة أركان:

١ - مواصفات البقرة
٢ - كيفية حرق البقرة
٣ - كيفية إعداد ماء التطهير

فالبقرة يجب أن تكون صحيحة، لا عيب فيها، لم تحمل على ظهرها شيئًا قط، وأن تكون حمراء داكنة، ويجب أن تذبح أمام كاهن (من أبناء هارون الذين اختارهم الرب لخدمته) ويأخذ الكاهن من دمها بإصبعه وينثره في اتجاه باب خيمة الاجتماع سبع مرات، ثم تُحرق البقرة على مرأى منه، ثم يجمع رجل طاهر الرماد الناتج عن حرق البقرة ويضعه في مكان طاهر خارج مكان سكنى وإقامة الناس، ويتم حفظه من أجل إعداد ماء التطهير.

ولإعداد ماء التطهير يؤتى بماء جار في إناء ويُنثر عليه قليل من رماد حرق البقرة، ثم يمسك رجل طاهر بنبات عطري (زوفا) ويغمسه في هذا الماء ثم ينثره على الخيمة التي تنجست، وعلى جميع الأمتعة، وعلى كل من تواجد داخلها، وعلى كل من مسَّ العظم، أو القتيل، أو الميت، أو القبر، ينثر الطاهر على النجس في اليوم الثالث وفي اليوم السابع من حدوث النجاسة.

والنص كما جاء في التوراة لم يشترط أو يحدد مكانًا بعينه لإقامة تلك الشريعة، ولم يشر من قريب أو بعيد إلى أرض كنعان، بل على العكس اشترط أن تقام بعيدًا عن مكان إقامة وسكنى الناس، ولم يشر إلى خيمة الاجتماع إلا في نقطة فرعية، وهي أن ينثر الكاهن بإصبعه من دم البقرة في اتجاه باب خيمة الاجتماع سبع مرات.

فلماذا علق اليهود إذن بناء الهيكل على جبل المكبر، الذي لا علاقة له بموسى عليه السلام بإقامة شريعة البقرة الحمراء؟

لماذا تذكر اليهود الآن وبعد مرور ألفي عام تقريبًا على تدمير الهيكل أنهم نجسون؟

في واقع الأمر لا توجد أدنى صلة لموسى عليه السلام بأرض كنعان فقد مات ودفن في أرض مؤاب ولم تطأ قدماه أرض كنعان (سفر التثنية ٣٣/٤٩، ٥٠، ٣٤/٥، ٦) وليس لموسى عليه السلام صلة بهذا الهيكل أو بعقيدة الخلاص التي يؤمن بها اليهود الآن. ففكرة «الخلاص» أخذها اليهود عن الزرادشتية أثناء السبي في بابل (٥٨٦ ق.م) حين دفعتهم محنة السبي واليأس الذي انتابهم إلى التفكير في الغيبيات، فأضفوا على فكرة الخلاص الزرادشتية، وهي فكرة لاهوتية، طابعًا ماديًا سياسيًا، للخروج من محنتهم، ومع الحوادث الجسام التي تعرض لها اليهود إبان السبي البابلي، وما كان قد سبقه من فساد في ملوك إسرائيل ويهوذا، أصبح حلم الأنبياء والمصلحين والكثرة الكثيرة من اليهود أن يأتي ملك قد من نوعه، مخلص، معه القوة والبركة، يعيد الأمجاد السالفة، فيكون هو الملك بحق، وهو «المسيح»، ولا تظهر هذه الفكرة في أسفار التوراة الخمسة، ولكن الباحثين، واليهود منهم بوجه خاص، تأولوا ذلك من خلال جملتين في كل التوراة، مع كثير من التكلف والتعسف: الأولى وردت في (تكوين ٤٩/١٠) والثانية وردت في (العدد ٢٤/١٧) وهي ليست أقل غموضًا عن سابقتها، ولم يرد فيهما ذكر المسيح أو الخلاص صراحة.

أما الهيكل فقد ارتبط بناؤه بمفهوم «العودة أو الإعادة» الاستعماري، فالملك قورش الفارسي هو الذي أصدر الأمر بإعادة بناء الهيكل (بيت الرب) الذي كان قد دمره نبوخذ نصر الملك البابلي، كما قرر قورش إعادة آنية وأدوات «بيت الرب» التي نهبها نبوخذ نصر من أجل إعادة عبادة الإله «يهوا» وهو المعبود القديم الذي كان يعبد في أورشليم، كما قرر إعادة سبايا اليهود من بابل إلى أورشليم، ومهما كان الشعب الذي نُقل أو أُعيد إلى فلسطين، فهم بالتأكيد لم يكونوا من بني إسرائيل، ورغم ذلك اعتبرتهم المرويات التوراتية التي ظهرت، كما اعتبروا أنفسهم سكان إسرائيل العائدين «إليها» من منفى مرير بعد أن خلصهم منقذهم الملك قورش[٥].

ولقد قوبل هذا الاستيطان الاستعماري الذي زرعه قورش في هذه المنطقة بين سكان وشعوب مستقرة منذ زمن، بمقاومة شديدة، مما دفع «العائدين» إلى التركيز منذ ذلك التاريخ على دور الهيكل في الطقوس والشعائر من أجل تثبيت أقدام هذا الاستيطان الغريب، فاستبدل حكماء «المشنا» الهيكل بخيمة الاجتماع في التوراة، وغالوا في العنت والتشدد، فشريعة البقرة الحمراء التي شغلت إصحاحًا واحدًا في التوراة (العدد/ ١٩) أفرد لها كتاب المشنا بابًا كاملاً يتكون من اثنى عشر فصلاً

رصد البحث تزايد نشاط الجمعيات والمنظمات الداعية إلى إقامة الهيكل خلال التسعينيات من القرن الماضي، وخصوصًا في السنوات الخمس الأخيرة منها، بعد أن اتسعت دائرة النشطاء والمؤيدين والقاعدة الجماهيرية المؤيدة عقديًا لفكرة هدم المساجد الموجودة فوق جبل المكبر

ويتضمن خمسة وتسعين تشريعًا وتشددوا في كل طقوسها.

ونظرًا لارتباط الاستيطان اليهودي في فلسطين في العصر الحديث، بالمخططات الاستعمارية أيضًا، لذلك تراه يستخدم مفهوم «العودة، أو الإعادة» فالمهاجر إلى فلسطين هو «عائد إلى أرض الآباء» وإقامة الهيكل هي «إعادة بناء بيت الرب» أو «إعادة المقداش» أي إعادة المكان الذي تسكن فيه القداسة. لذلك فليس غريبًا أن تلتزم الجماعات الدينية المتطرفة في إسرائيل، في إحياء الطقوس والشعائر، بالتشريعات التي وضعها حكماء «المشنا» لتثبيت الاستيطان، على الرغم مما تتسم به من عنت وتشدد، فالبقرة يجب أن يتراوح عمرها من ثلاث إلى أربع سنوات، ويجب ألا يكون بها لون يخالف لونها الأحمر الداكن، فإذا ظهرت شعرتان بيض أو سود في بصيلة واحدة تعد البقرة غير صالحة (وهذا هو ما حدث في «كفار حسيديم» في مارس ١٩٩٧م فقد ولدت بقرة حمراء من تلقيح صناعي تم أخذه من ثور أمريكي أحمر ووضع في رحم بقرة إسرائيلية ولكن بعد عدة أشهر ظهر في ذيلها شعرتان بيضاوان، وبالتالي فلا تصلح لإقامة الفريضة، وغيرها من المحاولات، التي تكلفت مبالغ طائلة.. ولكنها جميعًا باءت بالفشل).

وقرر كتاب «المشنا» ألا تكون تلك البقرة الحمراء قد جاءت إلى الحياة عن طريق شق بطن البقرة الأم، أي بولادة غير طبيعية. يجب ألا يكون قد ركب عليها أحد، أو استند إليها، أو تعلق بذيلها ليعبر نهرًا، أو لف الحبل ووضعه فوق ظهرها، أو وضع وشاح الصلاة الخاص به فوق ظهرها. ويجب ألا تكون عشارًا.

كما فرض كتاب المشنا على الكاهن الأكبر أن يعتزل بيته قبل حرق البقرة بسبعة أيام، وهذا ما لم تنص عليه التوراة، وإنما من تأويل الحكماء، والزم الكاهن أن يقيم طوال هذه الأيام في حجرة إلى الشمال الشرقي من الهيكل، وكلها مصنوعة من الحجر بما فيها من أدوات وأواني لأنه لا يتنجس. ويجب أن يُنثر على الكاهن طيلة تلك الأيام السبعة من ماء التطهير المخلوط بتراب بقر قديم.

ويبلغ كتاب المشنا ذروة الغلو والتزمت عندما يحدد مَن الذي سيأتي بالماء الجار الذي سيُخلط بتراب البقرة؟ ومن أين سيأتي به؟ وكيف؟

فينص كتاب المشنا أنه قبل الشروع في شريعة البقرة بثماني سنوات يؤتى بنساء ذوات أحمال، ويقمن في أفنية مخصصة لهذا الغرض، فهي مقامة فوق صخور بينها فراغات لكي تكون بمثابة عازل بين أرضية تلك الأفنية وما قد يكون في باطن الأرض من قبور أو رفات، لكي يضمنوا طهارة تلك الأفنية!!

وتضع النساء أحمالهن في تلك الأفنية ويقمن بتربية الأبناء فيها حتى يبلغوا ثمانية أعوام، ويقوم هؤلاء الأطفال بجلب الماء الجار اللازم لعملية التطهير من نهر (شيلوه)، ولكن لكي يبلغوا هذا النهر يجب ألا تطأ أقدامهم الأرض، خشية أن يتنجسوا لوجود رفات قديم مدفون في باطن الأرض، لذلك يؤتى بثيران توضع عليها ألواح خشبية (لتكون عازلاً) ليجلس عليها الأطفال، ويمسكون في أيديهم كئوساً مصنوعة من الحجر، وإذا بلغوا النهر، اختلف الحكماء هل ينزلون ويملأون الكئوس؟ أم يدلونها وهم على ظهر الثيران؟ وهكذا تتمادى تشريعات المشنا في الغلو، فواضعو التشريعات يعتقدون أن سير الإنسان على الأرض من الممكن أن ينجسه، لاحتمال وجود رفات قديم في باطن الأرض، وهذا غلو من واضعي المشنا ولم يأت به نص في التوراة.

وقد اكتفينا بهذا القدر من تشريعات البقرة في المشنا، ولم نأت بها كاملة، لكي تنقل للقارئ مقدار ما في نص المشنا من مغالاة، ولكي نمهد القارئ للنتيجة المتوقعة، فقد تسبب حكماء المشنا بتطرفهم وتشددهم وغلوهم في عدم التزام الجمهور بهذه الشرائع وبالتالي توقفت هذه الطقوس قبل ظهور دعوة السيد المسيح عليه السلام وقبل تدمير الهيكل (المشنا، كتاب النساء، باب الجانحة ٩/٩). فلا ارتباط بين وجود الهيكل أو غيابه بالتزام اليهود بالشرائع والطقوس، وهذا يفضح أغراض «دعاة إقامة الهيكل» السياسية التي يغلفونها بستار ديني، والدين براء منهم.

وكما ذكرنا في سياق الحديث عن المواصفات التي وضعها حكماء المشنا ويجب توافرها في البقرة الحمراء، لم تتمكن الجماعات الدينية المتطرفة للآن وعلى الرغم من ثورة الاتصالات، وسهولة تبادل الأخبار والمعلومات، وعلى الرغم من التقدم العلمي الهائل في علم الهندسة الوراثية، وعلى الرغم من التمويل السخي الذي ينهال عليهم من جميع أنحاء العالم، كما رصد البحث، على الرغم من كل هذا لم يتمكنوا من تربية بقرة واحدة بمواصفات «المشنا».

الإشكالية الأولى:

وإذا كان الحال هكذا مع بقرة واحدة، فمن أين سيؤتى بالأعداد الهائلة من الحيوانات والطيور اللازمة للتقديم كقرابين يومية، والتي تخضع هي الأخرى لمواصفات وشروط مثل البقرة الحمراء.

الإشكالية الثانية:

إذا كانت الجماعات الدينية المتطرفة في طريقها إلى إحياء الطقوس والشعائر المرتبطة بالهيكل، والتي من بينها تقديم القرابين، فماذا سيفعلون بالصلاة؟ فموسى عليه السلام كان يتقرب إلى الله بالقرابين، لا بالصلاة، والصلاة في اليهودية من وضع الحكماء، اضطروا إليها أثناء السبي البابلي، وتأثروا فيها بالديانة الزرادشتية، وجعلوا كل صلاة من الصلوات بديلاً لقربان من القرابين اليومية وفي ميقاته، لذلك فالتفكير يدور الآن في هذه الأوساط اليهودية لمحاولة الوصول إلى حل يوفق بين وجود الصلاة، التي أصبحت تشكل جزءاً مهماً في حياة اليهودي، وبين تقديم القرابين، ومازال البحث متواصلاً!!

أما الخطر الحقيقي، الذي استشعره «مركز الحفاظ على الديمقراطية في إسرائيل» فيتمثل في: أن الجماعات الدينية المتطرفة لا تقبل الآخر بمفهومه الواسع الذي يشمل المخالف في العقيدة والمخالف في الرأي.

لذلك فإن التسمية التي أطلقها عليهم البحث في العنوان وهي «قناءون» لم تأت عبثاً ولكن لأنهم ينهجون نفس نهج هذه الجماعة المتطرفة التي عاصرت السيد المسيح عليه السلام، وكانوا يفضلون الموت لهم ولذويهم على الخضوع للآخر المخالف لهم. وحتى تشريعات المشنا التي تلتزم بها الجماعات الدينية المتطرفة فهي لا تقبل الآخر إلا إذا قبل فكرهم، ورضي أن يكون مجرد خادم وتابع، والنموذج الذي يقدمه حكماء «المشنا» هم سكان جبل جبعون أيام يشوع بن نون، الذي دخل أرض كنعان ببني إسرائيل بعد وفاة موسى، وحارب سكان المدن الكنعانية، فتحايل عليه سكان جبل جبعون لكي يسالمهم ولا يحاربهم، فطلب منهم لكي يسالمهم أن يقوموا بالسقاية وجمع الحطب لبني إسرائيل، أي القيام بالخدمة مقابل العيش في سلام!!

وكما ذكرت في بداية حديثي أن هذه الجماعة بما اتسمت به من قسوة وغلو في التشريع واللجوء إلى العنف والإرهاب في التطبيق، ورفضها التام للآخر، قد تسببت في القضاء على الوجود اليهودي في فلسطين في القرن الأول الميلادي، لذلك فالدافع الحقيقي للبحث الذي يقدمه هذا المركز هو خشيته أن يعيد التاريخ نفسه، ويكون نهاية الوجود الإسرائيلي في المنطقة على يد هذه الجماعات الدينية المتطرفة.

ونختتم هذه السطور بالمقترحات التي يتقدم بها «المركز» للحكومة الإسرائيلية، وللمسئولين وللقيادات الدينية في إسرائيل:

١ . يجب أن تكف الدولة عن تمويل هذه المعاهد والمؤسسات الداعية إلى إقامة الهيكل.

٢ . لدولة إسرائيل مصلحة حيوية في إشراك عناصر دولية في المسئولية عن حماية الأماكن المقدسة الإسلامية، ففي حالة عدم وجود مثل هذه القوة الدولية وتعرض المساجد الإسلامية لأي خطر فسوف تلقى المسئولية كاملة على إسرائيل ومن المحتمل أن يفجر هذا العمل قوى تدمير «أبوكاليبسية»[٦] هائلة.

٣ . يقترح «المركز» أن تبادر حكومة إسرائيل دون تأخير بدعوة عناصر دولية (الأمم المتحدة أو قوى من دول متعددة) وتشركها معها في مسئولية أمن الأماكن الإسلامية المقدسة على «جبل المكبر».

٤ . في المقابل يجب على حكومة إسرائيل أن تبذل جهوداً قصوى من الناحية الأمنية والمعلوماتية في منطقة «جبل الهيكل» والمناطق المحيطة. ويجب أن تراقب قوات الأمن، النشطاء من الجماعات الداعية إلى إقامة الهيكل المذكورين، فنحن نتوقع الخطر من هذه العناصر المتطرفة، فيقوم أحد الإرهابيين من جماعة «شوشو بانيم» ويكون مستعداً للتضحية بنفسه مثل ييجال عامير (قاتل رابين) وباروخ جولدشتاين (صاحب مذبحة الحرم الإبراهيمي والذي أطلق النار على المصلين في صلاة الفجر).

٥ . يتوجه «المركز» للمسئولين والموجودين في السلطة بأن يوقفوا كل نوع من أنواع التأييد والتمويل للمنظمات والمؤسسات الداعية لإقامة الهيكل.

٦ . يطلب المركز من الحاخامات والزعماء الدينيين ذوي الجماهيرية أن يتراجعوا ويعلنوا على الملأ تخليهم عن النداءات التي سبق ووجهوها والتي تدعو إلى «تدمير المساجد» فالأمر بأيدينا ❊

الهوامش:

(١) المشنا كتاب تشريع وضعه الحكماء العائدون من السبي البابلي، وهو الأساس الذي تقوم عليه الديانة اليهودية، ويتألف من ستة أجزاء أو كتب يسمى كل منها باسم مستقل: كتاب النساء، الزراعة، الطهارة، الجنايات، الأعياد، المقدسات، ويضم كل كتاب عدة أبواب تدور حول نفس الموضوع، وينقسم كل باب إلى عدة فصول، ويشتمل كل فصل على عدد من التشريعات.

(٢) وهي تختلف كلية عن البقرة الصفراء التي وردت في سورة البقرة في القرآن الكريم، وقد أمر الله بني إسرائيل أن يذبحوها لمعرفة القاتل، وهناك شريعة مشابهة لها في سفر التثنية ٢١/١-٩، لكن دون تحديد للون البقرة المذبوحة.

(٣) ورد ذكر جوج وماجوج في سفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتي (٢٠/٧-٨) وهو آخر أسفار الكتاب المقدس: (متى تمت الألف سنة يُحل الشيطان من سجنه، ويخرج ليُضل الأمم الذين في أربع زوايا الأرض جوج وما جوج ليجمعهم للحرب...).

وهو ما تم تفسيره على أنه حرب بين قوى الخير والشر تسبق قيامة السيد المسيح وتكون مع حلول الألفية.

(٤) وهو الاسم الذي استخدمته المنظمات والجمعيات الدينية المتطرفة للدلالة على الهيكل.

(٥) راجع: تومبسون ل. طومسون: التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص ٢٨٩.

(٦) أبوكاليبس Apocalypse كلمة من أصل يوناني وتعني كشف أو إظهار، ويطلق هذا المصطلح على أدب «الرؤى» الذي ظهر بين بني إسرائيل بعد انتهاء النبوة، في القرن الثاني ق.م، ويطلق أيضاً على رؤى يوحنا اللاهوتي، وهي تشير إلى حروب عظيمة وخراب ودمار هائل سيحدث قبل قيامة المسيح عليه السلام.

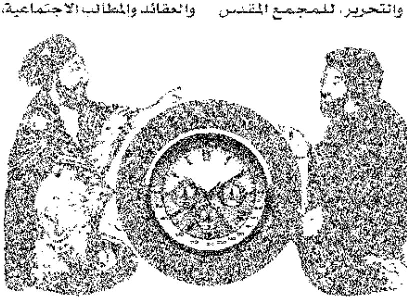
دور الفكر الديني

نموذج واحد أم نماذج متعددة؟

أ. هل النموذج الغربي هو النموذج الوحيد؟

● «لاهوت التحرير» وإن كان حديثا كمصطلح في الستينيات مواكبا لحركات التحرر الوطني في العالم الثالث خاصة في أمريكا اللاتينية بعد الثورة الكوبية، وحلم جيفارا، ووجود بعد شاسع بين العقائد اللاهوتية والأيديولوجيات السياسية، بين الكنيسة والجمعيات الشعبية فإنه قديم بقدم الإنسان على الأرض ونشأة الأيديولوجيات والديانات والفنون. فكونفوشيوس أنزل الدين الصيني التقليدي في كتاب «تغيراته» من السماء إلى الأرض، من عالم الآلهة إلى عالم البشر. وبوذا تجاوز تعدد الآلهة في الهندوكية إلى ضبط النفس والسيطرة على الأهواء. وذلك يعني في كلتا الحالتين أن الدين في خدمة الإنسان. والشنتوية التي تعبد الإمبراطور تجعل الدين عماد الدولة والجماعة. وكذلك كان الحال في دين مصر القديم، والزرادشتية دين فارس، الأمة والدولة. ودين إبراهيم كان ثورة اجتماعية منذ نوح، ثورة على الجهل والرذيلة دفاعا عن العلم والفضيلة. لاهوت التحرير إذن أحد أشكال الدين الطبيعي السابق على دين الوحي. وهو قديم بقدم الزمان كما كان يقال عن المسيحية كدين طبيعي في القرن الثامن عشر، عصر التنوير. ينشأ في كل المجتمعات في ظروف متشابهة.

والسؤال هو: كيف يعرض «لاهوت التحرير» في ثقافتنا المعاصرة؟ هل هو نتاج غربي منذ الستينيات يروج له بالترجمة والعرض والتأليف كما هو الحال في باقي المذاهب والأيديولوجيات الغربية بناء على موقف شائع من الغرب. إنه مصدر العلم وليس موضوعا للعلم، أم أن الباحث العربي متعدد الثقافة. فهو على الأقل ذو ثقافتين، ثقافة غربية حديثة وثقافة عربية إسلامية قديمة. ويمكن الاستفادة منهما كرصيد علمي في ظاهرة الصلة بين الدين والتحرر؟ إن عرض لاهوت التحرير على أنه تجربة غربية أولا انتشرت بعد ذلك في إفريقيا وآسيا وإن لم تنتشر بعد في الوطن العربي. وأمريكا اللاتينية في نشأتها هي جزء من الثقافة الغربية المسيحية بعد أن استأصلت ثقافات الشعوب الأصلية ولغاتها. هو ابتسار لتجربة قديمة قدم البشر بآلاف السنين في خمسة وثلاثين عاما عمر تجربة لاهوت التحرير في الغرب. فلا يكفي عرض تجارب لاهوت التحرير في الغرب أو الشرق دون مزاوجتها بمادة جديدة عربية إسلامية من لاهوت التحرير في الثقافة العربية الإسلامية. تعريب المادة ضروري من الثقافات المحلية والتجارب الخاصة. عرض المادة وتجارب الآخرين ضروري سواء في مرحلة الترجمة مثل «لاهوت التحرير الأسيوي» لألويزيوس بيريس حتى ولو كانت الترجمة تعريبا بتصرف. ولماذا يكون النشر في بيروت في دار المشرق وليس في القاهرة مثل «وثيقة الحرية المسيحية والتحرير» للمجمع المقدس للعقيدة الإيمانية. وفي المراجع العامة للكتاب الأول «لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينية» مازالت تغلب المصادر الغربية باللغات الأجنبية.



وظروف أمريكا اللاتينية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية خاصة في الستينيات متشابهة لظروفنا في الوطن العربي. فأمريكا اللاتينية محاصرة بين قوى ثلاث: الأولى الولايات المتحدة الأمريكية في الشمال وما تمثله من هيمنة على الجنوب إما مباشرة بالتعاون مع نظم سياسية عسكرية أو مدنية تابعة أو عن طريق غير مباشر: الشركات الاقتصادية الكبرى التي تستغل الثروات الاقتصادية للجنوب. والثانية الجيش الذي يمثل سلطة القهر المتعاونة مع سلطة الهيمنة في الشمال. والثالثة الإقطاع وملاك الأراضي الكبار المتعاونين مع الأمريكيين والعسكر ضد الفلاحين من أجل نهب محاصيلهم والاستيلاء على أراضيهم. والكنيسة الرسمية متعاونة مع هذه القوى الثلاث ضد الشعب، والشعب مطحون بالفقر والجهل والمرض والمخدرات والجريمة وشتى ألوان الحرمان. ولم يعارض هذه الصور المختلفة للهيمنة إلا الماركسيون كبؤرة لتجمع كل الوطنيين كما حدث في الثورة الكوبية والثورة الفيتنامية. فظهر الرهبان الشبان مثل كاميو توريز لينضم إلى القوى الوطنية باسم الدين وليس باسم الأيديولوجيا، وباسم الله وليس باسم الماركسية، وبدافع الإيمان وليس تطبيقا للمادية التاريخية أو المادية الجدلية. فنشأ لاهوت التحرير كأيديولوجية ثورية تحررية شعبية للجماهير تربط بين الدين والثورة، والإيمان والعدالة، والله والشعب، والعقائد والمطالب الاجتماعية، والوحي من ناحية، والحرية والإخاء والمساواة من ناحية أخرى. لاهوت التحرير إذن هي أيديولوجية ثورية شعبية تنبثق من بؤرة الثقافة الوطنية. فالنخبة المثقفة وحدها مع طليعة الطبقة العاملة هي القادرة على فهم الماركسية. أما جماهير الشعب فلا يحركها إلا تثوير التراث كما فعل الأنبياء والمصلحون والثوريون الشعبيون والمثقفون العضويون.

وهي ظروف مشابهة للوطن العربي قبل الثورات العربية الأخيرة في منتصف الخمسينيات، سيطرة الاستعمار البريطاني والفرنسي بقوات احتلال، والنظام الملكي القاهر المتعاون مع كبار قواد الجيش والشرطة وأجهزة الأمن، والإقطاع والباشوات الذين كانوا يتوالون على الحكم. ورجال الدين كانوا مع النظام، وكبارهم معينون من الدولة، موظفون رسميون فيها. يفتون بما يريد الحكام، أقرب إلى «فقهاء السلطان وفقهاء الحيض والنفاس». والشعب مطحون، يرزح تحت الفقر والقهر والتسلط. فقامت الثورات العربية كما قامت الثورة الكوبية والثورة الفيتنامية باسم الحركات الوطنية والتي كان الماركسيون أحد عناصرها مع مصر الفتاة والوفد والإخوان المسلمين. ونشأ لاهوت التحرير عند الأفغاني من قبل في صياغات بسيطة «الإسلام في مواجهة الاستعمار في الخارج والقهر في الداخل» مستعينا بأقوال السابقين مثل: «عجبت لرجل لا يجد قوت يومه ولا يخرج للناس شاهرا سيفه» أو بقوله هو: «عجبت لك أيها الفلاح، تشق الأرض بفأسك ولا تشق قلب ظالمك». ومع ذلك ظلت الصياغات النظرية تقليدية في «الرد على الدهريين» واتهام الاشتراكيين والشيوعيين بأنهم ماديون وملحدون ووضع الدهريين معهم. وتكون من تلاميذه مثل عبد الله النديم وأديب إسحق من يستأنف الإسلام الثوري أو الدين الوطني. وقوى ذلك كتابات سيد قطب الأول صاحب «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، «معركة الإسلام والرأسمالية»، «السلام العالمي والإسلام»، قبل أن يعذب في السجون ويكتب «معالم في الطريق» وهي أيضا صرخة برئ لمقاومة الظلم والطغيان. واستأنف «اليسار الإسلامي» لاهوت التحرير على مستوى الثقافة الشعبية من أجل تحويله إلى تيار شعبي عام يقلل المسافة بين الدين والثورة، بين التقليدية والتقدمية، بين الإخوان والشيوعيين.

وإذا عقدت مقارنات فإنها تكون بين تجربتي أمريكا اللاتينية وأفريقيا دون آسيا أو الوطن العربي والعالم الإسلامي. هناك في الخاتمة فحسب بعد الحديث عن التحولات الأساسية في القارة الأفريقية. وأنه من المطلوب تحرير قارة، يظهر في آخرها «وماذا عن مصر؟» بلغة المأينيقيات. والإحالة إلى إخناتون في مصر القديمة والديانات التوحيدية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام. وكان من الممكن أن تتم الإشارة إلى لاهوت التحرير الإسلامي في جنوب أفريقيا وقد ساهم في لاهوت التحرير في أفريقيا، وبرز قادتهم مثل الإمام هارون شهيد العنصرية. ورابطة العلماء المسلمين في جنوب أفريقيا، وحركة الشبيبة الإسلامية. ونداء الإسلام، والقبلة. كان يمكن تحليل كتابات هذه

في التغيير الاجتماعي

حسن حنفي

التيارات الإسلامية في لاهوت التحرير الأفريقي وكما عرض فريد إسحق أول مؤسس لحركة «نداء الإسلام» في كتابه «القرآن ولاهوت التحرير». بل إن الأمير يوسف هذا البطل الذي حارب الاستعمار الهولندي في ماليزيا قد أخذه الهولنديون أسيرا مكبلا بالسلاسل في القرن السابع عشر في مستعمرتهم الثانية في جنوب أفريقيا. فكان أول من نشر الإسلام هنالك: الإسلام المقاتل المجاهد مؤسسا بذلك لاهوت التحرير الإسلامي. ويقدسه المسلمون كأحد أبطال النضال الوطني لاستقلال الشعب باسم الإسلام. بل إن ديزموند توتو حالة واحدة من حالات أخرى ساهم فيها المؤتمر الوطني الأفريقي ANC، ومؤتمر أفريقيا الواحدة PC وحركات الوعي الأفريقي. هي حالة واحدة مركزة على التفرقة العنصرية أكثر من الفقر والاستقلال كما هو الحال في أمريكا اللاتينية.

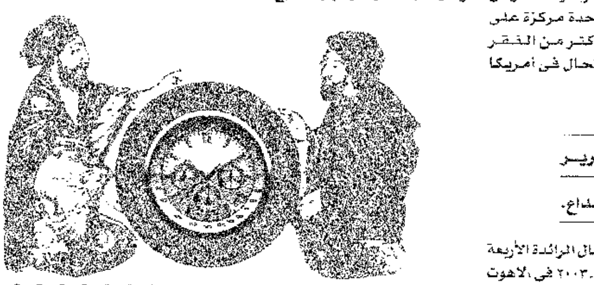
٢. لاهوت التحرير

بين النقل والإبداع.

لذلك تتراوح الأعمال الرائدة الأربعة في العقد الأخير ١٩٩٣-٢٠٠٣ في «لاهوت التحرير» بين الترجمة والعرض والتأليف. والترجمة بتصرف أي مع الحذف أو الإضافة أو التعليق تجاوزا للترجمة الحرفية أسوة بالقدماء. الترجمة في «لاهوت التحرير الأسيوي» لألويزيوس بيريس، ليست ترجمة حرفية بل بتصرف. ولا يقتصر التعريب على الترجمة بتصرف فقط بل بزيادة مقدمة عن «لاهوت التحرير الأسيوي» تبين أهميته وأهم قضاياه. وتضيف خاتمة «نحو لاهوت تحرير مسيحي إسلامي لعالمنا المعاصر» لإيجاد دلالة عربية للاهوت التحرير. والغريب تجاهل الإسلام في الكتاب مع إنه دين آسيوي، والدين الثاني في آسيا من حيث عدد السكان. وإشارات المترجم لا تتجاوز إشارتين في المقدمة والخاتمة.

وفي داخل العرض يكون التلخيص، تلخيص مع أن العرض مرحلة متقدمة عن التأليف. والتلخيص نوع أدبي فلسفي قديم. وفي داخل العرض قد تكون الترجمة. بل قد تفوق الترجمة كما العرض كما هو الحال في «لاهوت التحرير في أفريقيا» ديزموند توتو والللاهوت الأسود». إن الاكتفاء بالنقل: ترجمة وعرضا دون التحول إلى التأليف والإبداع هو قصر للاهوت التحرير على الثقافة الغربية بوجه عام والمسيحية بوجه خاص. والتأليف المزدوج بين ثقافتين من أجل التحليل والتأصيل. والعرض والنقد هو خطوة نحو التحول من النقل إلى الإبداع.

ثم يأتي التأليف في «كلام في الدين والسياسة»: وهو عنوان صحفي عام، وعنوان فرعي أدق «نحو لاهوت تحرير مصري عربي»، ومطبوع في دار المحروسة في مصر، وتقديم جمال البنا مما يوحي بمصريته وعروبته وثقافته الوطنية. وهو آخر المجموعة الرباعية. وهي مقالات متفرقة مجمعة تمت تحت أربعة أجزاء. ولكل منها فصول، والجزء الرابع ملاحق.



ويعرض لثلاث قضايا رئيسية نظرية في لاهوت التحرير. الأول التحول عن الخلاص الفردي إلى الخلاص الجماعي. يجمع بين النظرية والتطبيق: النظرية في الاشتباك في لاهوت التحرير بين الديني والسياسي، وفي تعدد نماذج لاهوت التحرير بين الغربي، ومحاولة تأصيل لاهوت تحرير مسيحي إسلامي لعالمنا العربي. والتطبيق على القضية الفلسطينية، الانتفاضة الأولى، والكنيسة في فلسطين المحتلة، وقيامة المسيح وتحرير فلسطين، وتطبيق حقوق الإنسان في الكنيسة في مصر. والثانية، إشكالية الهوية بين الالتزام الديني والالتزام الوطني والإنساني وتعبر عن قضية التعددية الطائفية. وقضية الطائفية والمواطنة والأقلية والأغلبية وهو ما يتعارض مع التصور الكيفي للتعددية الثقافية، والكنيسة الكاثوليكية وجماعة الكاثوليك في مصر نموذجا. وهو أكبر من الجزء الأول إن لم يكن ضعفه. والثالثة التعددية وقبول الآخر كشرط ضروري للخلاص وموضوعاتها تبدو خارج الموضوع مثل التأويل عند ابن رشد، وتجديد الحياة الروحية في الرهبنة المصرية في مائة عام: الأب متى المسكين نموذجا، والتيارات السياسية في مصر. وملاحق الجزء الرابع تبدو كتابات مناسبات مثل مصر والفاتيكان. العلاقات التاريخية: وكلمتي الرئيس والبابا. وهو: خطاب عام للناس تنقصه مواصفات الخطاب الفلسفي: لاهوت التحرير في أسسه النظرية وتأويلاته الفلسفية المعاصرة للعقائد. ويبني على تراكم ثقافي سابق. والمقدمة من مفكر مجدد، يغلب عليها المنهج النصي القرآني ولا تضع المحاولة في إطار لاهوت التحرير باعتباره علما وليس ثقافة.

ويمكن عرض لاهوت التحرير بطريقتين: الأولى مراجعة الأدبيات التي تمت في اللغات الأجنبية وفي اللغة العربية سواء العارضة منها للأدبيات الغربية أو المستقلة عنها على درجات متفاوتة. والثانية بناء نموذج للاهوت التحرير مستقلا عن النموذج المسيحي أو الآسيوي المعروض في الأدبيات الأجنبية أيضا من أجل إبداع نماذج متعددة وعدم تكرار نموذج واحد عرف به في نشأته. ويمكن الجمع بين الطريقتين: المراجعة والإبداع، النقد والبناء، بداية بالتاريخ وليس انتهاء إليه، بداية بالأدبيات السابقة ثم عدم الوقوف عندها من أجل تطويرها.

٣. لاهوت التحرير

من التاريخ إلى الفكر.

«لاهوت التحرير» ليس مجرد تجربة تاريخية عامة لدى كل الشعوب منذ قديم الزمان أو خاصة لدى الغرب الحديث منذ ثلاثة أو أربعة عقود من الزمان بل هو نسق عقائدي أو بنية فكرية تتجاوز التسلسل التاريخي للأحداث والشخصيات والمؤلفات.

ولاهوت التحرير ليس مرتبطا بالمؤسسات الدينية بالضرورة، الكنيسة أو المحكمة أو اليهودية (السانهدرين) أو «السانجا» في الهندوكية لأن الدين باعتباره تحررا إنما نشأ ضد المؤسسة الدينية التي ارتبطت بالملك أو برجال الدين وارتبطت مصالحها بالنظام السياسي الإقطاعي أو القبلي القائم. وكان الدين أولا ثورة ضد المؤسسة الدينية ورجال الدين. فتصدى أنبياء بني إسرائيل للأحبار المتعاونين مع الملوك، والملوك المتحالفين مع الإقطاع، خاصة النبي عاموس. كما نقد السيد المسيح الفريسيين والكتبة والأحبار الذين تعاونوا مع السلطة الرومانية وحولوا الدين إلى أشكال ورسوم خارجية دون تقوى باطنية وإيمان صادق بعيدا عن النفاق والمصالح الشخصية. ولا يوجد رجال دين في الإسلام ولا سلطة دينية متوسطة بين الإنسان والله، تحتكر التفسير، وصياغة العقائد، والفصل بين الصواب والخطأ. تلك مهمة العلماء. وكل مسلم يستطيع أن يكون عالما. فالإسلام والبروتستانتية بالنسبة لحق التفسير، ورفض التوسط بين الإنسان والله، واعتبار الكتاب وحده مصدر الإيمان وليس أقوال آباء الكنيسة، والإقلال من أهمية الطقوس والمراسم، والخلاص بالإيمان وحده متشابهان في التجربة التاريخية. لاهوت التحرير استئناف للبروتستانتية القديمة في بروتستانتية جديدة طبقا لظروف العصر ومصادر القهر. فقد كتب لوثر «في حرية المسيحي» ودافع عن حق كل إنسان في حرية تفسير الكتاب المقدس ضد احتكاره من الكنيسة. وكيركجارد، لوثر الثاني، أراد العودة إلى الذاتية، والتحول من الوجود إلى الصيرورة، ومن اطمئنان الإيمان إلى قلق الوجود الإنساني.

ولاهوت التحرير ليس فقط مجموعة من الممارسات الاجتماعية لخدمة جماعة المؤمنين داخل المؤسسات الدينية أو خارجها أو حتى النضال الثوري لبعض

الرهبان الشبان مثل كاميو توريز. فالممارسات الاجتماعية والأعمال الثورية تعبير عن رؤى للعالم ونظريات فلسفية. لاهوت التحرير له أسسه النظرية الخالصة قبل أن يكون ممارسات عملية وإن كانت الممارسات العملية تعيد إحكام النظرية وتبلورها، وتجعلها أكثر مطابقة وقدرة على تحقيق المثال في الواقع.

ولاهوت التحرير ليس من إبداع أشخاص فقط بل هو تأسيس جاد وأصيل للاهوت جديد يأخذ بعين الاعتبار أنه لا يوجد لاهوت واحد عبر العصور. اللاهوت جزء من العلوم الاجتماعية، في علم اجتماع الثقافة مثل باقي الأنشطة الذهنية في الأيديولوجيات والفلسفات والعلوم والفنون. والتركيز على الأشخاص يجعل لاهوت التحرير مرتبطا بها أكثر من ارتباطه بالواقع الاجتماعي والسياسي للشعوب التراثية المضطهدة. كذلك ركز في «لاهوت التحرير في أفريقيا» على شخصية واحدة، ديزموند توتو.

لاهوت التحرير ممارسة فعلية للتأويل، ومنهج جديد. فيه قراءة الحاضر في الماضي، وتفسير النص الديني بالعودة إلى التجربة الذاتية التي نشأ فيها. فالنص الديني ليس له معنى تاريخي ثابت يتجاوزه الزمن وإلا أصبح قديما ليس صالحا لكل زمان ومكان. بل له بنية ثابتة يمكن ملؤها بمادة من كل العصور. وما أكثر الآيات من العهدين القديم والجديد التي أصبحت شعارات للاهوت التحرير في اليهودية والمسيحية. فقد ارتبط النص التوراتي بتحرير بني إسرائيل من المادة وعبادتها إلى عبادة الله وحده، وتحريرهم من الأسر الفرعوني والبابلي. كما قال السيد المسيح «ما جئت لألقي سلاما بل سيفا». وما أكثر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في «لاهوت التحرير» والتي أحسن استعمالها في الثورة الإسلامية في إيران (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)، وارتباط الإيمان بالله بالأمن ضد الخوف وبالإشباع ضد الجوع (فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)، وتنهار المجتمعات الإقطاعية، عند بناء القصور للأغنياء، وتعطيل الآبار للفقراء (وبئر معطلة وقصر مشيد). بل يجوز القتال بالسلاح دفاعا عن النفس ودفعا للعدوان (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق). لاهوت التحرير تأويل للثنائيات الدينية التقليدية التي أرست قواعدها المانوية القديمة. الصراع بين النور والظلمة، الخير والشر، الحق والباطل، الصواب والخطأ والتي استمرت في الثنائيات الدينية المسيحية والإسلامية. العالم والله، الدنيا والآخرة، الخير والشر، الجنة والنار، النعيم والعذاب، الثواب والعقاب، الذكر والأنثى، الملاك والشيطان.. إلخ. إلى ثنائيات حديثة الصراع بين القاهر والمقهور، الغني والفقير، الظالم والمظلوم، الحاكم والمحكوم، المركز والأطراف...إلخ.

ويمكن القول بأن أركان الإسلام الخمسة ومقاصد الشريعة الخمسة التي من أجلها وضعت الشريعة ابتداء هي نوع من لاهوت التحرير بفعل التأويل كما مارسه ابن رشد في «قانون التأويل» في آخر «مناهج الأدلة». فالشهادة إعلان وقول وبيان على العصر وأزماته، باللسان وبالفعل وبالقلب طبقا لدرجات تحمل الواقع لفعل التغير الاجتماعي. والشاهد والشهيد من نفس الاشتقاق. الشهادة بالقول والفعل في البداية، والشهادة بالحياة في النهاية.



والصلاة أداء فعل في الوقت في الحال لا إرجاء ولا قضاء، إحساس بالواجب اليومي، فعل في الزمان وشهادة في الخلود. والصيام مشاركة للفقراء، وتربية للنفس. والزكاة مشاركة في الأموال بين الأغنياء والفقراء، وتداول للمال ضد الاكتناز والاحتكار والاستغلال. والحج موقف إعلان المساواة بين البشر، وإجماع عام على حال الأمة ونضالها في التاريخ.

ومقاصد الشريعة ابتداء هي رعاية المصالح العامة التي هي أشبه بإعلان عالمي لحقوق الإنسان والشعوب معا وليس فقط لحقوق الإنسان، بل لحق كل شعب في تقرير مصيره. وهي خمسة:

الأول، الدفاع عن الحياة، فمن قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحيا نفسا فكأنما أحيا الناس جميعا، (وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت). والثاني: الدفاع عن العقل، فالعقل أساس النقل، ومن قدح في العقل فقد قدح في النقل، وموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول. والثالث: الدفاع عن الدين أي الحقيقة المطلقة الشاملة ضد النزعات الشكية والنسبية واللاأدرية والعدمية، يحتكم إليها الناس جميعا، معيارًا إنسانيا واحدا ضد ازدواجية المعايير. والرابع: الدفاع عن العرض والكرامة (ولقد كرمنا بني آدم في البر والبحر). والخامس: الدفاع عن الثروة الوطنية التي كانت في عرف القدماء المال، وهي الآن الثروات الطبيعية والبشرية، المادية والمعنوية.

٤ - المنطلقات الرئيسية للاهوت التحرير

ويبدأ لاهوت التحرير من منطلقات أساسية وهي أن الدين ظاهرة اجتماعية ينشأ في المجتمع تعبيرا عن قوى اجتماعية وسياسية جديدة. فالدين في هذه المسألة «زفرة المضطهدين». هكذا نشأت اليهودية في مواجهة موسى لفرعون، الحرية ضد التسلط، والتحرر ضد القهر. كما نشأت المسيحية تعبيرا عن الطبقات المهمشة في المجتمع الروماني، العبيد والمرضى والضعاف ضد جبروت القوة وسلطان الجسد. ونشأ الإسلام في شبه الجزيرة العربية تعبيرا عن القوى الضعيفة، العبيد والفقراء في المجتمع المكي ضد الأغنياء والأقوياء من أشراف مكة. ثم يقوم الدين بعد ذلك بعد أن يفقد دفعته الثورية الأولى ويتحول إلى مؤسسة ورجال دين وطبقة مصالح وأداة في يد السلطة إلى أن يصبح «أفيون الشعب» وحقنة مخدرة لتسكين المضطهدين والمهمشين والغاضبين وجعل طاعة أولى الأمر من طاعة الله، والرزق مقدر، والغنى والفقر قضاء وقدر مقسومان قبل أن يولد الإنسان، وأن الجنة والنعيم والرخاء والغنى كل ذلك موعود للفقراء يوم القيامة.

كما يبدأ لاهوت التحرير من مسلمة ثانية وهي أن اللاهوت من الطبقة، وأن كل لاهوت يعبر عن مصلحة طبقة بعينها. وهي طبقة سياسية واجتماعية واقتصادية في آن واحد، سياسية لأنها تمثل سلطة جديدة صاعدة أو قديمة متهاوية، واجتماعية لأنها طبقة العبيد المهمشة التي بيدها السلطة الجديدة أو طبقة الأشراف القديمة المتهاوية، واقتصادية لأنها تمثل الحرفيين والصناع أو كبار التجار. وهكذا نشأت الفرق الإسلامية في بداياتها إما تعبيرا عن السلطة السياسية القادمة مثل أهل السنة أو عن سلطة المعارضة مثل الشيعة. وداخل أهل السنة نشأت فرقة السلطة مثل الأشاعرة وفرق المعارضة مثل المعتزلة والخوارج. ونشأت الفرق المسيحية بنفس الطريقة بعد تحول قسطنطين إلى المسيحية، مسيحية السلطة التي كان يمثلها أوغسطين في روما وسلطة المعارضة في المستعمرات الرومانية مثل دوناتوس في شمال أفريقيا، وآريوس في مصر.

«لاهوت التحرير» تعبير عن العقل البديهي ولا يحتاج إلى جدل لاهوتي مجرد أو انتصار على الخصوم أو الدخول في سجال مع اللاهوت التقليدي الخالص. هو أقرب إلى اللاهوت الطبيعي الاجتماعي التلقائي مثل «الموعظة على الجبل» أو التأمل في العالم وفي النفس (وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون). والتجارب التاريخية ما هي إلا تعيينات لهذه البداهات العقلية. فالعقل والتاريخ شيء واحد.

ولغة لاهوت التحرير ليست اللغة العقائدية المدرسية كما هو الحال في «الخلاصة اللاهوتية» لتوما الإكويني بل هي لغة عادية تخاطب عامة الناس لتجنيد الجماهير جمعا بين الحمية الدينية وأزمة العصر. لذلك يصعب استعمال الألفاظ المعربة حتى لا يبدو الخطاب الديني الاجتماعي غريبا على الناس مثل «الافخارستيا». وما أسهل استعمال الألفاظ العربية النصرانية في المسيحية العربية مثل المناولة أو القربان المقدس. وكذلك تعبير التيار «المسيحاني الكريستولوجي» ويعني التيار الذي يتعلق بشخص السيد المسيح باعتباره مخلصا. فالترجمة لا تعني بالضرورة لفظا بلفظ أو عبارة بعبارة بل قد تعني لفظا بعبارة وعبارة بلفظ طبقا لدرجة التركيز في اللغتين، المترجم منها والمترجم إليها. وكذلك استعمال تعبير «العقلية الميثولوجية» وقد استقر في

الأسلوب العربي الحديث لفظ «الأسطورية» ولفظ «الأنثروبولوجي»، وقد استقر في العربية الحديثة أنه «الإنساني» أو ما يتعلق بالإنسان.

٥ - أنـواع الـلاهـوت وأنساق لاهوت التحرير.

ولا يوجد نوع واحد من اللاهوت بل هناك عدة أنواع أشهرها، ومرتبة طبقا لأبعدها عن لاهوت التحرير ثم نهاية بأقربها وهي:

١ - اللاهوت العقائدي أو القطعي Dogmatique، وهو أكثر أنواع اللاهوت غرورا، لا يفرق بين التصورات الذهنية لله والله في ذاته، ويعتبر العقائد حقائق ثابتة ومطلقة، غايات في ذاتها وليست وسيلة لهداية البشر وإسعادهم.

٢ - اللاهوت الوضعي Positive، ويعتبر العقائد أشياء مادية موجودة بالفعل مثل التجسد والصلب والخلاص وليست دلالات وبواعث على فعل الخير، ويخضع لأثر الوضعية.

٣ - اللاهوت الطبيعي Naturelle، ويعتمد على نتائج العلم الطبيعي والنظريات الكونية لإثبات وجود الله وخلق العالم وخلود النفس. ويتغير بتغير النتائج العلمية وتقدم العلم.

٤ - اللاهوت الجدلي Dialectique، ويقوم على جدلية الله والإنسان فلا يمكن تصور الله دون الإنسان ولا تصور الإنسان دون الله، وأحيانا يسمى لاهوت الكلمة كما هو الحال عند كارل بارت.

٥ - اللاهوت العقلي Rationelle، ويقوم على العقل وحده وليس على الإيمان أو النص أو سلطة الكنيسة كما هو الحال عند المعتزلة وابن رشد.

٦ - اللاهوت النقدي Critique، الذي يقوم على نقد النصوص الدينية وعدم إصدار حكم على عقيدة قبل تحليل نصوصها تحليلا تاريخيا ومن ثم تظهر العقائد مرتبطة بنشأة النص وتكوينه.

٧ - اللاهوت السلبي Negative، ويقوم على تطهير العقائد كمثل عليا مفارقة من كل الصياغات البشرية المحدودة في الزمان والمكان طبقا للحديث المشهور «كل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك».

٨ - اللاهوت الرعوي Pastoral، وهو نوع من اللاهوت الأخلاقي يبدأ بالنفس قبل الآخر بناء على التفسير الشائع لآية (لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم). وهي نظرة فردية للتغيير، من الفرد إلى المجتمع.

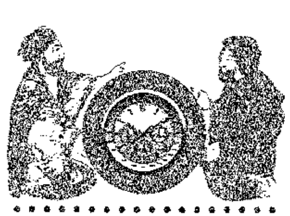
٩ - لاهوت التحرير Liberation Theology أو Theology of Liberation وهو الذي يربط اللاهوت بقضية العصر الرئيسية في الستينيات في العالم الثالث خاصة في أمريكا اللاتينية مساعدة ثقافية لحركات التحرر الوطني ابتداء من ثقافة الجماهير.

وقد صدرت مجلات عديدة في الشرق والغرب ولدى كل الحضارات والشعوب وفي كل الثقافات تحت عنوان «اللاهوت الجديد» New Theology وفي العالم الإسلامي أيضا مثل «قضايا إسلامية معاصرة (قم)»، «الفكر الإسلامي المعاصر (دمشق)»، «المسلم المعاصر (الكويت، القاهرة)»، «المنهاج»، «المنطلق» (بيروت)... الخ.

وهناك أنساق عديدة للاهوت التحرير وليس نسقا واحدا أهمها:

١ - النسق الأخلاقي الفردي الذي يقوم على القيم الأخلاقية أو النزعات الصوفية.

٢ - النسق الأخلاقي والاجتماعي



الذي يقوم على قيم الجماعة والمشاركة والتضامن والعدالة وإعادة توزيع الثروة بين الأغنياء والفقراء.

٣ - النسق العملي من خلال فعل الرهبان الاجتماعي وسعيهم في مصالح الناس أو من خلال دور الكنيسة كمؤسسة اجتماعية تحل مشاكل المجتمع.

٤ - النسق العقائدي التأويلي لإيجاد معان تحررية للتجسد، المسيح في العالم وليس بعيدا عنه، أو للخلاص، خلاص البشر من الآلام أو الصلب، الشهادة في سبيل الآخرين.

٥ - النسق الفلسفي الخالص لدراسة تصورات العالم وأيها أكثر فعالية في التغير الاجتماعي والفعل التاريخي.

وقد تم عرض نموذج نظري في الوطن العربي ابتداء من علم العقائد الإسلامية في «من العقيدة إلى الثورة»، كجزء من مشروع أعم هو «التراث والتجديد» للمؤلف، بل لا يقتصر الأمر على علم العقائد وحده بل يتسع ليشمل كل العلوم التراثية من أجل إعادة بنائها كاستجابة لتحديات العصر من أجل تأسيس لاهوت الإبداع في «من النقل إلى الإبداع» ولاهوت المصالح العامة في «من النص إلى الواقع»، ولاهوت إثبات الوجود التاريخي والوعي القومي في «من الفناء إلى البقاء»، ولاهوت العقل في «من النقل إلى العقل»، من أجل نقل المجتمع كله من مرحلة تاريخية إلى مرحلة تاريخية أخرى وليس اللاهوت فقط. فاللاهوت عصب التاريخ، ومحور التغيير فيه.

والهدف من هذا اللاهوت المصري الشامل هو تطوير لاهوت التحرير النسبي إلى لاهوت تحرير جذري، من اللاهوت الأخلاقي إلى اللاهوت السياسي، ومن اللاهوت الفردي إلى اللاهوت الجماعي، ومن نظرية الذات والصفات والأسماء والأفعال إلى الإنسان الكامل، ثم من الإنسان الكامل إلى الإنسان المتعين، ومن النبوة والمعاد إلى التاريخ، الماضي والمستقبل، ومن الخلود إلى الزمان، ومن الآخرة إلى الدنيا، ومن الإمامة إلى الدولة، ومن الإيمان والعمل إلى المواطن، ومن التاريخ المنهار، خير القرون قرني، إلى التاريخ الصاعد من أجل التقدم والنهضة.

إن «لاهوت التحرير» ليس لاهوتا أبديا كما هو الحال في اللاهوت العقائدي بل هو متغير بتغير الأزمات في كل عصر. ربما هو جزء من «لاهوت الأزمة» Predicament ولا يكاد يخلو كل عصر من أزمات. تعرض الأزمة أو القضية أو التحدي في علاقتها باللاهوت أي بالفكر الديني باعتباره مكونا رئيسيا من مكونات الثقافة الشعبية بعد أن تحولت العقائد إثر تراكمها الطويل عبر السنين إلى أمثال شعبية وحكم للشعوب. وأصبحت الدراسات اللاهوتية الآن تتعرض لموضوعات العصر باسم لاهوت التقدم، لاهوت العدالة، لاهوت المساواة، لاهوت الوحدة، لاهوت التنمية، لاهوت الأرض، لاهوت الألم، ولاهوت حقوق الإنسان... الخ.

ولا يعني أن لاهوت التحرير ليس لاهوتا أبديا بل لاهوتا يعبر عن مرحلة تاريخية محددة هي مرحلة التحرر الوطني أنه مرتبط بالتغير في العلاقات الدولية، وأنه كان مرتبطا بعصر الاستقطاب. وبعد انهيار أحد القطبين فإنه يتغير طبقا لنظام القطب الواحد، والتحول من الاشتراكية إلى الليبرالية، ومن الماركسية إلى الرأسمالية. ولا يعني تراجع النظم الاشتراكية في العالم الثالث نهاية لاهوت التحرير إلى لاهوت آخر مرتبط بالخصخصة والانفتاح الاقتصادي. فالتحرير غاية دائمة للجنس البشري بالرغم من تعدد صور القهر والتسلط السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي. وليست قيمة «الحفاظ على الحياة» بديلا عن قيمة «التحرير» بل تعد أحد مظاهره. ويمكن توسيع مفهوم الطبقة الدنيا دون الوقوع في الدفاع عن الطبقة المتوسطة. فقد ازداد الفقراء فقرا والأغنياء غنى في عصر القطب الواحد في دول العالم الثالث وفي دول العالمين الأول والثاني أيضا. والمجتمع المدني ليس بديلا عن المجتمع السياسي. فالسياسة أحد مظاهر التعبير في المجتمع المدني وإلا كانت الدعوة إلى مجتمع مدني غير مسيس أساس الانفتاح الاقتصادي وركيزته الأولى في دول العالم الثالث. والمقاومة تتعدد أشكالها من المقاومة المسلحة إلى المقاومة الثقافية. كما تشمل المقاومة السلبية المتمثلة في العصيان المدني، والمقاومة الشعبية بنزول الملايين إلى الشوارع، والمقاومة الاقتصادية بمقاطعة البضائع الأجنبية. وهي أشكال تتكامل فيما بينها ولا تتعارض.

٦ - هل هناك شبهات حول لاهوت التحرير؟

إن الشبهات التي أحيطت بلاهوت التحرير غير صحيحة والاتهامات التي ألقيت عليه باطلة وأهمها:

أ - لاهوت التحرير ماركسية مقنعة أقرب إلى الماركسية منها إلى الدين. فهذا إعطاء للماركسية أكثر مما تستحق وللدين أقل مما يستحق. فلا يمكن اختزال كل تحليل اجتماعي تاريخي جدلي وكل تحليل طبقي للصراع الطبقات إلى الماركسية. كما أن هناك نماذج من لاهوت التحرير بعيدة عن التحليل المادي التاريخي والتحليل الطبقي ويقوم على نزعة مثالية، ومثالية فعل

كتاب الزاوية

مذكرات أحمد شفيق باشا

أزياء السيدات

نساء الطبقة العالية كن يرتدين لباسًا يسمى «الشنتيان» ـ وهو عبارة عن سراويل واسعة جدًا تضيق عند القدمين أحيانًا بحيث تتمكن السيدة من الجلوس على الشلتة «الحشية» ـ وهي عبارة عن مرتبة أرضية؛ وقد كانت مستعملة قبل انتشار الأثاث الأفرنجي ـ وفوق الشنتيان «السلْطة» أو صدار بدون أكمام، ثم «اليلك» وهو رداء طويل وكان هذا الزى غالبًا من الحرير المزركش. أما حين يخرجن للزيارات، فكانت الفراجية ذات الأكمام المفتوحة.

وفوق الرأس ما يسمى «خوطوز» أو عزيزية، وهي غطاء للرأس مبطن من الداخل بقماش فوقه ورد صناعي يسدل عليه «التل» بحيث يرى الورد، ثم تحته «اليشمق» وهو من القماش الشفاف، ومنه تظهر العينان فقط، وكان هذا الزى منتشرًا في السرايات وعند كبار الأهالي ولا سيما التركيات.

أما نساء الطبقة الوسطى فكن يرتدين الشنتيان والسلْطة ولكن من قماش متوسط. وعند الخروج للزيارة يرتدين «السبلة» وهي عبارة عن قميص من الحرير بدون أكمام، وفوقها «حبرة» تغطي الجسم من الرأس إلى القدم؛ وهي في الغالب من الحرير الأسود. و«البرقع» الأبيض للوجه، والمناديل مطرزة بإطار من «القوية» كغطاء للرءوس تحت الحبرة؛ ويحتذين خفًا أصفر من قطعتين: قطعة تغطي القدم والأخرى تلبس داخل الأولى وتغطي الساق. وعند الخروج يركبن الحمير بعد أن يوضع فوق البرذعة سجادة ويرفع الركاب بحيث تجلس السيدة القرفصاء ويتولى «المقدم» الخادم قيادة الحمار.

وعقاومة «الأنا تضع نفسها حين تقاوم» كما هو الحال في فلسفة المقاومة عند فشته. فهو فيلسوف قبل أن يكون لاهوتيا. كما أن الوحي متحقق في التاريخ، والنبوة متطورة طبقا لمراحله. والمكان والزمان حاضران فيه بفعل «أسباب النزول» و«الناسخ والمنسوخ». ولولا التدافع بين الناس لما قامت حضارة ولا نشأ تاريخ إنساني. وقد نشأت عدة حوارات بين المسيحية والماركسية (أبتكر Apteker) استئنافا لما قاله كاوتسكي من قبل في «المسيحية البدائية».

ب ـ يقول لاهوت التحرير بالصراع الطبقي ولا يمنع من ممارسة أنواع العنف المختلفة بما في ذلك الصراع المسلح كما فعل كاميو توريز. فالإيمان فعل وقول؛ ممارسة وإيمان. وحمل البندقية لا يقل أهمية عن حمل الصليب. يدفع المؤمنين إلى نيل الشهادة في سبيل الحق تأسيا بصلب المسيح ولكن بنضال إيجابي دون الاكتفاء بالشهادة على العصر وبالبقاء في العالم كأسطورة خالدة للخلاص، وفداء خطايا البشر.

جـ ـ لاهوت التحرير إلحاد صريح، فقد استبدل بالله الإنسان وبالوحي التاريخ، وبالأنبياء قادة الشعوب، وبالملائكة زعماء حركات التحرر الوطني؛ وبالآخرة الدنيا، وبالإيمان الثورة؛ وبالصليب البندقية؛ وبالقداس الخلية، وبالكنيسة الحزب الثوري، وبالتجسد الشعب والأرض، وبالمؤمنين العمال والفلاحين. وهو اتهام غير صحيح إنما هو عود إلى الدين إلى مساره الطبيعي بعد القضاء على اغترابه خارج العالم، ومن ثم يُعد فيورباخ هو المنظر الفعلي للاهوت التحرير. ولاهوت «موت الإله» أحد فروع اللاهوت المعاصر Death of God Theology أو «اللاهوت بلا إله Atheistic Theology عند جابريل فاهانيان G. Fahanian والتزير Altzier. بل لقد تبناه عديد من القساوسة والأحبار والرهبان مثل روبنسون في «مخلص لله: Robinson: Honest to God.

د ـ لاهوت التحرير علمانية صريحة فهو دين بلا إله، وأرض بلا سماء، وبدن بلا روح، وهو اتهام غير صحيح لأن الوحي كلام الله إلى الإنسان، ورسالة من السماء إلى الأرض. فالغاية الإنسان في العالم وليس الله خارج العالم. لاهوت التحرير متفق مع مقصد الوحي ومساره في التاريخ. واللاهوت العلماني Secular Theology أحد فروع اللاهوت الجديد كما عبر عن ذلك هارفي كوكس في «المدينة العلمانية» The Secular City.

هـ ـ لاهوت التحرير تسييس للدين وخلط بين ملكوت السماء وملكوت الأرض مع أن السيد المسيح فصل بينهما «أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله». وهو تفسير غير صحيح للدين. فالوحي نظام حياة للإنسان في الداخل والخارج، وللجماعة في علاقاتها ونظمها. غرضه تحقيق السعادة في الدنيا قبل مثيلها في الآخرة. وقد كانت دعوة كل النظم التسلطية الفصل بين الدين والسياسة حتى لا يتحول الدين إلى ثورة ضد الطغيان.

ولا تأتي الشبهات فقط من اليمين الديني والاتجاهات المحافظة بل يأتي أيضا وإن كان بدرجة أقل من الاتجاهات اليسارية الجذرية وأهمها:

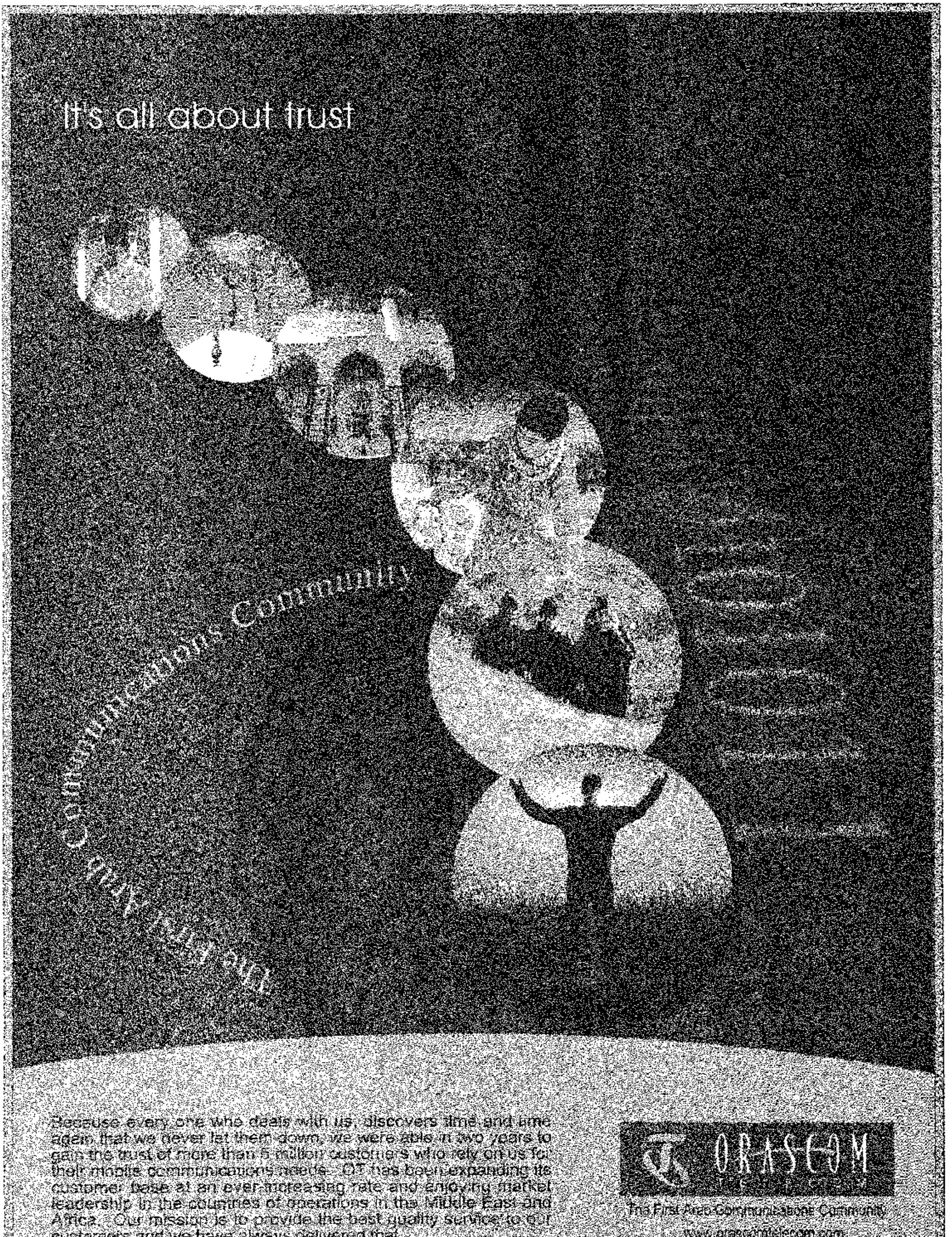
أ ـ لاهوت التحرير لاهوتا أكثر منه تحريرا، ودين أكثر منه دنيا. وهو نوع من التبشير الاجتماعي الجديد يستعمل المجتمع وسيلة، والدين غاية. ويبدأ من مآسي الناس كي يعيدهم إلى الإيمان. السياسة وسيلة، والدين غاية. مازالت مقولاته في التجسد والخلاص والصلب والخطيئة والإيمان والكنيسة هي مقولات اللاهوت التقليدي حتى ولو أخذت دلالات جديدة.

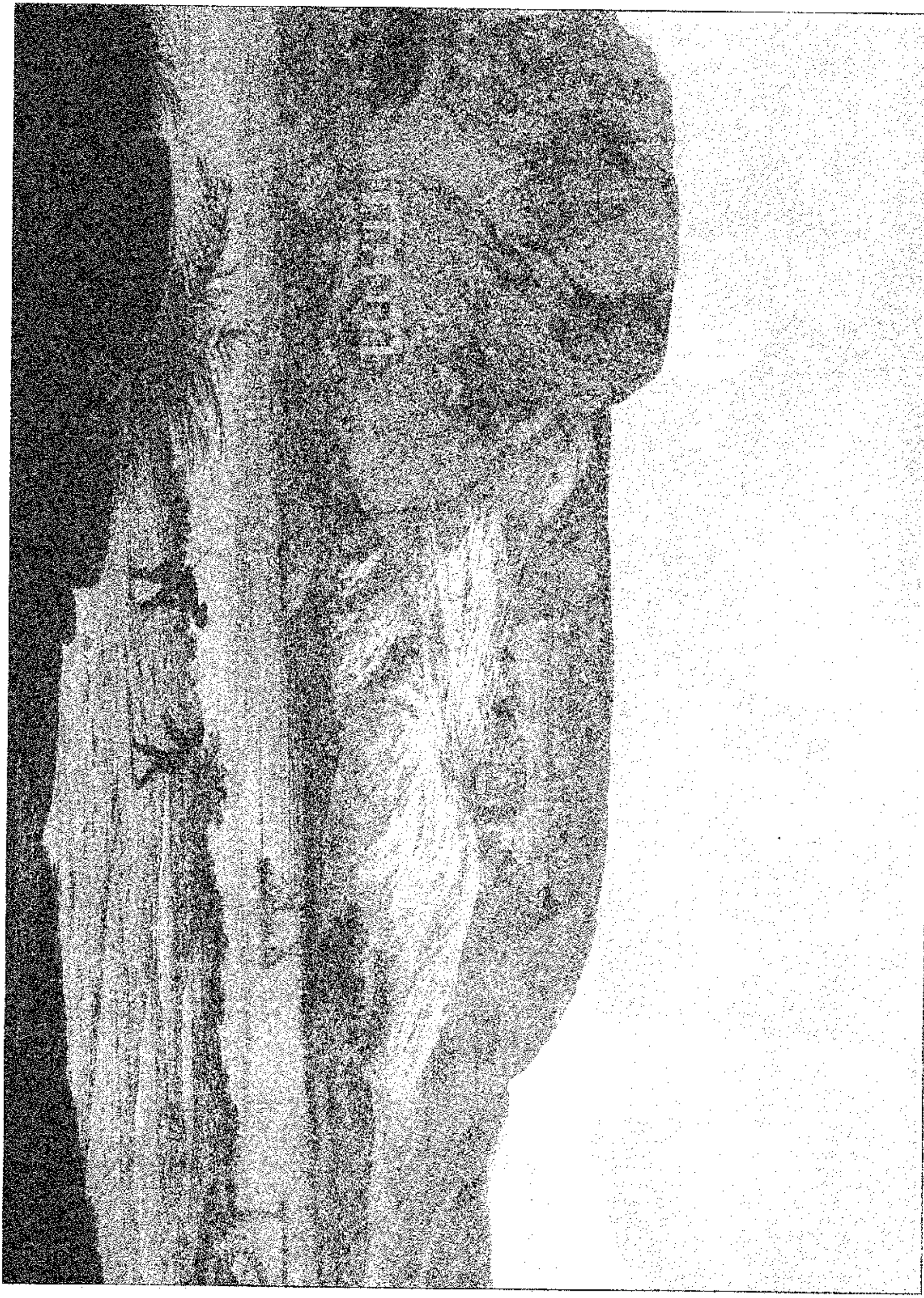
ب ـ لاهوت التحرير في النهاية نوع من المعارضة الفكرية والثقافة العالمة أكثر منها معارضة سياسية فعلية في الدولة. لا تكوّن حزبا سياسيا معارضا في مواجهة السلطة القائمة بل تكتفي بالوعي الديني السياسي، وتقوم بدور التنوير العام بالحقوق والواجبات. ترفضه الكنيسة الرسمية ولا يعترف به مجموع اللاهوتيين بل وكتبت الكنيسة ضده بيانا تبين مخاطره وإن لم تحرمه.

جـ ـ لاهوت التحرير أقرب إلى النزعة الأخلاقية الفردية. فخلاص العالم يبدأ بخلاص الفرد. هو «إحياء ذكرى» صلب المسيح كما يقول جوتيريز. والنزعة الفردية أقرب إلى التيار اليميني في السياسة.

د ـ لاهوت التحرير انتهى منذ الستينيات، وطغت عليه في العقد الأخير روح العولمة والسوق ومقولات حقوق الإنسان والمجتمع المدني والأقليات والمرأة وهي الموضوعات الأثيرة في المجتمعات الغربية في عالم ذي قطب واحد ضد النظم الشمولية «لا للنظم الشمولية»، «من أجل ديموقراطية تخدم حقوق الإنسان وترفض النظم التسلطية».

ومع ذلك تظل مجموعة «لاهوت التحرير» الأربع، في أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا والوطن العربي بين الترجمة والعرض والتأليف خطوة رائدة للتعريف به في الوطن العربي كنموذج لعبور هذه الهوة الواسعة التي شقت الصف الوطني بين الخطاب السلفي والخطاب العلماني، وقد وصل إلى حد الاقتتال وسفك الدماء في الجزائر، وكلف مائة ألف قتيل، من أجل إبداع خطاب ثالث يحقق أهداف الخطاب العلماني بآليات الخطاب السلفي. فتتحقق وحدة الصف الوطني ووحدة الثقافة الوطنية بل ووحدة الأمم والشعوب عبر التاريخ. ■


It's all about trust
The First Arab Communications Community
Because every one who deals with us, discovers time and time again that we never let them down, we were able in two years to gain the trust of more than 5 million customers who rely on us for their mobile communications needs. OT has been expanding its customer base at an ever-increasing rate and enjoying market leadership in the countries of operations in the Middle East and Africa. Our mission is to provide the best quality service to our customers and we have always delivered that.
You too can put your trust in us!
ORASCOM
The First Arab Communications Community
www.orascomtelecom.com



مصر فى أفريقيا

الأزهر والكنيسة والتعليم والتجارة

يوسف الشريف

※ ثمة عمل فنى قديم بات يمثل الآن إدراكاً معرفياً عالمياً متجدداً، يشى بما لمصر من علاقات راسخة فى عمق التاريخ وسجل الحضارات بالشعوب الأفريقية، وأعنى أوبرا «عايدة» التى وضع ألحانها الموسيقار الإيطالى الشهير «فردى» فى القرن التاسع عشر احتفالاً باقتتاح قناة السويس، واحتفاء من الخديو إسماعيل كذلك بحضور «أوجينى» ملكة فرنسا لهذه المناسبة العظيمة.

لم تكن علاقة مصر بأفريقيا فى العصر الفرعونى مقصورة فحسب كما جسدتها أحداث أوبرا «عايدة» على صراع الإرادات عبر تأمين مصالحها فى تخومها الجنوبية فحسب، وإنما كانت التجارة وتبادل المنافع والتلاقح الاجتماعى والاحتكاك الثقافى أهم إفرازاتها وثمارها.

وتروى البرديات وكتابات وصور المعابد والمقابر الفرعونية الكثير من الحقائق التاريخية الموثقة حول العلاقات المصرية الأفريقية، ودور النيل كشريان للحياة وهمزة وصل جغرافى وديمجرافى بين مصر والشعوب والممالك والسلطنات التى كانت حاضرة آنذاك على حوض النهر، وكيف كان ملوك مصر الفراعنة يتبادلون الحكم مع أقرانهم السودانيين على ربوع وادى النيل شماله وجنوبه وفقاً لمعايير القوة والمصالح والعلاقات الروحية بالآلهة المعبودة آنذاك وبينهم الملك «باعنخى» السودانى الهوية والجذور وكذلك الملك «طرهاقة» الذى حكم وادى النيل موحداً من جنوبه إلى شماله وهو أيضاً من أسرة «باعنخى»، لكأن تاريخ شعوب وادى النيل فى تقدير المؤرخين الثقاة منذ الأزل واحداً متشابكاً وممتداً لم ينقطع ولم يتجزأ!

بوابة مصر على أفريقيا ومعبداً «أبو سمبل»
لوحة للفنان
جيوفانى بالتيستا بالدونى
١٨٢٠

حضارة كوش ومروى

والشاهد أن اللغة المصرية القديمة تميزت بكونها أكثر اللغات الحامية تأثراً بالسامية أو العربية القديمة، وذلك بحكم موقع مصر الجغرافى، واتصالها بالشعوب العربية القديمة مثل الكنعانيين والسريان، وكانت الشعوب التى يسميها الغربيون بالسامية مرادفاً للشعوب العربية القديمة، وهى التى زحفت إلى مصر فى العصر الفرعونى من الجزيرة العربية إلى سيناء وفرع النيل البيلوزى، ولعل قصة سيدنا يوسف عليه السلام التى رواها القرآن الكريم، وكذا قصة سيدنا موسى عليه السلام شاهد على ذلك.

وإذا كانت اللغة المصرية القديمة مزيجاً ونتاجاً للهجرات البشرية القادمة من الجزيرة العربية، فقد كانت أيضاً وسيلة مصر الفرعونية للتخاطب مع الشعوب الأفريقية منذ زحف المصريون على مهل صوب الجنوب عهد الأسرة الأولى ٣٠٠٠ ق.م، حيث مدوا عمرانهم ولغتهم وثقافتهم على جانبى نهر النيل جنوبى الشلال الأول ثم الشلال الثانى وانشأوا حصوناً وقلاعاً وقرى ومدناً فيما بين الشلال الثانى والثالث إبان حكم الدولة الوسطى، واتصلوا بالشعوب الأفريقية القديمة فى منطقة دنقلا وتزاوجوا معهم، وبعدها تكونت حضارة مصرية سودانية فى بلاد النوبة تسمى «حضارة كوش» لها نفس السمات المصرية فى بناء المعابد والأهرامات الفرعونية ولكنها سودانية أيضاً، وعندما تعرضت مصر لغزو الآشوريين هبت لنجدتها الجماعات السودانية، وكونوا معاً الأسرة الحاكمة لوادى النيل وهى الأسرة الخامسة والعشرين التى استمرت من (٦٦٣ إلى ٧١٢ق.م)، وكانت كوش ومروى عهدئذ منارتين للحضارة والثقافة التى امتد إشعاعها إلى أوغندا جنوباً والحبشة شرقاً وحتى غرب أفريقيا غرباً، وهكذا فى كل العصور والعهود كان السودان مرحباً ومستوعباً للمؤثرات الحضارية الوافدة من مصر عبر النيل، كما كان مُصدراً لهذه المؤثرات بعد سودنتها إلى القارة الأفريقية، وهكذا أيضاً دخلت المؤثرات الإغريقية الرومانية إلى أفريقيا عبر البوابة المصرية السودانية، وهو نفس المسار الذى دخلت المسيحية والإسلام عن طريقه إلى أفريقيا.

فإذا تجاوزنا العام إلى الخاص والعموميات إلى التفصيل والأقدم فالقديم فالحديث، نجد أن العلاقات الثقافية التى كانت تربط مصر بدول حوض النيل خلال العصر الفرعونى قد تجاوزت حوض النيل إلى ما وراءه من التخوم، وأنها امتدت عبر البحر الأحمر إلى «بلاد بونت» أو ما يعرف الآن ببلاد الصومال والقرن الأفريقى برمته من خلال التبادل التجارى، وأن التوابل والبخور والكولا والزيوت العطرية واللبان الذى كان من العناصر الرئيسية التى تعتمد عليها عملية التحنيط، فى مقدمة أهم واردات مصر من أفريقيا، بينما كان المردود الثقافى لهذه العلاقات موصولاً بوسائل الاتصال ولغة التخاطب بين أرباب التجارة بشكل خاص.

ويذكر التاريخ أن الملكة «حتشبسوت» لم تكن أول امرأة تحكم مصر فى العصر الفرعونى، فقد سبقتها الملكة «ميريت نيت» من الأسرة الأولى، والملكة «حتب حيرس» من الأسرة الرابعة قبيل حكم الملك «خوفو» ثم الملكة «خنت» من الأسرة الرابعة، لكن «حتشبسوت» كانت الملكة الفرعونية التى خرجت من مصر فى رحلة طويلة إلى «بلاد بونت» ولم يكن ليتأتى لها الغياب شهوراً عن ملكها إلا لأنها محبوبة من شعبها ولأنها قوية كذلك عبر نظام متقدم للحكم ازدهرت فيه الفنون والثقافات والعلوم ووسائل الإنتاج، ومن ثم راق لها أن تقضى فترة معايشة وستأتية على واحدة من دول التخوم آنذاك فى إطار رحلات الفراعنة البحرية التى كانت تجوب الآفاق ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً!

الكنيسة الأرثوذكسية

مع دخول المسيحية إلى مصر، وبناء الكنائس والأديرة فى الصحراء بعيداً عن بطش حكام الإمبراطورية الرومانية، ونشأة أول حركة للرهبنة فى التاريخ بوادى النطرون، ثم رحلة السيدة العذراء والعائلة المقدسة إلى مصر منذ ألفى عام تقريباً، نجد أن تعزيز مكانة مصر القبطية المسيحية قد انعكس بشكل مباشر عبر انخراط بعض الشعوب الأفريقية تباعاً فى هذه الديانة، وفى مقدمتهم النوبيون والأحباش الذين ظلوا حتى وقت قريب تابعين للكنيسة الأرثوذكسية المصرية، حتى تقرر انفصالهم عنها إبان حكم الإمبراطور «هيلاسلاسى» لأسباب سياسية بحتة، ومن هنا يمكن استقراء مدى التأثير الإيجابى للثقافة المسيحية المصرية على روابط مصر السياسية والاجتماعية والثقافية مع دول حوض النيل، بينما نشطت بعثات التبشير المسيحى الكاثوليكية والإنجيلية والبروتستانتية بعدئذ فى مناطق أفريقية أخرى فى ركاب الاستعمار الأوروبى للقارة السوداء.

وهكذا نجد أن المسيحية القبطية قد دخلت إلى شمال السودان عبر التجار المصريين والجلابة، الذين اختاروا حى «المسالمة» فى أم درمان مكاناً لهم قديماً بعد وحتى اليوم، بينما استأثرت المسيحية الأوروبية بتنوعها المذهبى بجنوب السودان، بعد أن تحول على يد الاستعمار البريطانى إلى «مناطق مقفولة» ومعزولة ممنوع دخولها على أبناء شمال السودان وعلى

المصريين كذلك رغم الحكم الثنائى الذى انفرد الإنجليز بمصائره دون المصريين. كما انفردت جمعيات التبشير الأوروبية بأبناء الجنوب الوثنيين دون أن تفسح إلى جوارها دوراً للقساوسة والرهبان الأرثوذكس من المصريين والسودانيين، الأمر الذى كان وراء الازدواجية الثقافية الحالية فى شمال السودان ومنطقة جبال النوبة فى الغرب الموروثة عن المسيحية القبطية الأرثوذكسية بينما استأثرت الثقافة الأنجلوسكسونية بتنوعها المسيحى الأوروبى الوافد مع الاستعمار البريطانى بالجنوب مع احتفاظ بعض أبنائه حتى الآن بدياناتهم الوثنية والطوطمية الأفريقية التى ظلت على فطرتها.

كذلك تفاعلت الحضارة المصرية وثقافتها مع حضارات وثقافات الشرق وأفريقيا وفى مقدمتها الحبشة ومن ثم تلاقحت الحضارتان الأفريقية والعربية على الصعيد الثقافى بشكل خاص منذ أقدم العصور، وشاء تصاريف القدر أن تستيقظ القارة الأفريقية بعد كفاح طويل. فى الوقت الذى استيقظت فيه الأمة العربية أو قبلها بقليل. لتجد نفسها كما وجد العرب أنفسهم أمام تحول فكرى كبير وتقدم علمى هائل يهب عليهما من أوروبا. ويلاحظ أنهما وقفا معاً فى تحدٍ للغزو الثقافى بينما سعيا إلى استيعاب الجانب السلمى فحسب، ومرد ذلك أن العرب والأفارقة يرتبطان بتاريخ مشترك وفلسفة إنسانية واحدة، وكلاهما ينتمى إلى الإيمان بالقيم الروحية، وبفطرة الإنسان وقدراته وإمكاناته لتحقيق التطور الطبيعى، ولذلك كانا وهما يستشعران ضرورات الأخذ بالعلم الحديث ثم بالتكنولوجيا الغربية يصران فى نفس الوقت على الاحتفاظ بالمبادئ والقيم الثقافية والروحية الموروثة، لأن خصوصيات الإنسان العربى هى ميزات الإنسان الأفريقى، ومن ثم كان الطريق ممهداً بينهما للتلاقح الحضارى منذ دخول الإسلام إلى أفريقيا، وربما كانت تلك الخصائص الأصيلة المشتركة بمثابة الحصن الواقى للعرب والأفارقة من الانهيار وسداً منيعاً أمام الاختراق الثقافى الخارجى مع زحف الاستعمار الأوروبى إلى المنطقة العربية وأفريقيا.

لقد ربط الإسلام منذ الفتوحات الإسلامية الأولى على يد عقبة بن نافع فى القرن الأول الهجرى بين أجزاء القارة الأفريقية برباط العقيدة الدينية وبروح قوية تضم خصائص مشتركة ومميزة بين مجموعات بشرية متماسكة، فما أن دخل ملك غانا الإسلام حتى انبرت قبيلة «الفلاتى» إلى نشر الإسلام فى غرب أفريقيا، وأنشأت عدة مراكز إسلامية فى القرن الثانى الهجرى بينها مركز «فوتا تون» غرب مالى وآخر فى «فوتاجالون» بغينيا، فيما نهض عبد القادر الفلاتى بتأسيس أول دولة إسلامية فى قلب أفريقيا، كذلك المركز الإسلامى الذى أنشأه عمر الفوتى والذى امتدت إشعاعاته الروحية والثقافية من السنغال إلى النيجر ونيجيريا. وبعدها كان تأسيس المراكز الإسلامية فى سكتو والكاميرون وإنجامينا عاصمة تشاد.

والثابت أن قبائل الفلانى تأثرت إلى حد كبير بالثقافة العربية الإسلامية فيما أسهمت الطرق الصوفية بالتوازى كالقادرية والتيجانية فى تعميق الالتزام بالعقيدة ونشر الدعوة الإسلامية، ومازالت كتابات محمد بيلو تفيض بالدعوة الإسلامية الملتزمة، وقد وضع عشرات الكتب التى تضم حواراته المفتوحة مع مريديه، مما مكن للثقافة الإسلامية عبر هذه المؤلفات الإسلامية السهلة التداول والاستيعاب من الحيوية والاستمرارية والانتشار!

لم يكن العامل اللغوى حائلاً دون التواصل بين أفريقيا والعروبة، وخاصة أن ثقافة الإسلام لا تعتمد على اللغة إلا لكونها أداة للتواصل. بينما اعتمادها الأساسى على العقيدة المتمكنة من عقلية المسلم كيفما كانت لغته ولهجته، الأمر الذى مكن أو سهل للأفارقة المسلمين تدوين تعاليم الإسلام بلغاتهم، بينما سجلوا بالحرف العربى إنتاجهم الفكرى واعتبر وفياً بأداء الكلمة ونقلها بأمانة، وهو تأكيد آخر على القيم الروحية والتأثير الثقافى الإسلامى فى أفريقيا، وذلك لأن الإسلام يعتمد العقيدة فقط ولا يعتمد العرقية ولا اللونية ولا اللغة، فدعوته تكمن فى السلام وتآزر البشرية مصداقاً لقوله تعالى: «كلكم لآدم وآدم من تراب». وقوله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

فما كادت دعوة الإسلام تصل إلى أفريقيا، حتى وجدت فيه ما يؤكد شخصيتها، وأن الإسلام ليس استغلالاً للشعوب ولا استيطاناً للأرض، وإنما رسالة توحيد وسلام تحافظ على القوميات فى إطار وحدة التوحيد، أو هو وحدة عقائدية داخل التعدد القومى، وتلك هى عبقرية الإسلام وخلوده على حد تقدير الأستاذ عبد الهادى بوطالب المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

ومما لا شك فيه أن البلاد الأفريقية ساهمت كذلك بقسط وافر فى دراسة الإسلام وإشاعة الثقافة الإسلامية ذاتياً، فكان من بين أبنائها العلماء والفقهاء والكتاب الذى أثروا الفكر الإسلامى مثل أحمد بابا السودانى الذى يعتبر من أعلام المذهب المالكى، وكذلك ابن فرحون الذى أتم أعمال سلفه التى لاتزال تحظى باهتمام الفقهاء والمحققين، والقاضى السعدى والقاضى محمود كنت وغيرهم.

أيضاً ساهمت أفريقيا فى نشر الإشعاع الإسلامى مبكراً عبر العديد من المراكز الأفريقية التى تعنى بالثقافة الإسلامية فى مدينة «تمبكتو» التى نشأت فى عهد المرابطين وامتد إشعاعها إلى السنغال والنيجر ونيجيريا وتشاد وزنجبار والصومال وغيرها فى بقاع القارة الأفريقية. كما لا يفوتنا التنويه إلى الدور الحيوى الذى لعبته طرق التجارة القديمة التى سلكها التجار العرب والدعاة الذين حملوا على عاتقهم نشر الإسلام بين قبائل وجماعات وقوميات أفريقية وبينهم التكرور والفلاتة والولوف والسوتكة والديولة والهوسا والصنغاى والماندقو والكانورى والكانيون.. إلخ.

ويلاحظ أنه بعد فترة قصيرة من فتح عمرو بن العاص مصر ظلت اللغة القبطية حية ومتداولة ثم اقتصرت على طقوس العبادة فى الكنائس، وحتى أصبح المصريون تدريجياً عرباً فى اللسان والفكر والروح والتقاليد، وقد انعكس هذا التحول على تعزيز لغة التخاطب بالعربية مع أفريقيا.

لكن سرعان ما تهاوت النصرانية وثقافتها فى بلاد النوبة وغيرها من مناطق السودان وأفريقيا حين افتقدت دعمها من مصر، وتحولها إلى الإسلام تدريجياً مع هجرات القبائل العربية نحو سهول السودان الشرقية والغربية وأرض الجزيرة وبين النيلين ودنقلة وكردفان، وقد لعبت القبائل السودانية العربية الأصل والمنبت مثل جهينة والجعلية والقحطانية دوراً ملموساً فى نشر تعاليم الإسلام بالدول الأفريقية المتاخمة للسودان حيث تكونت قاعدة عريضة للثقافة العربية الإسلامية.

الأزهر.. الطرق الصوفية

إذا كانت مصر فى تقدير المؤرخين مهد الحضارات الإنسانية، بحكم موقعها الجغرافى العبقرى، وسبقها الريادى إلى حرفة الزراعة التى تعتمد على الرى والملازمة بالضرورة للاستقرار والنظام ونشأة المجتمعات وسيادة القانون وقيام السلطة المركزية، الأمر الذى يتولد عنه تلقائياً توحيد لغة التخاطب المشتركة وتلاقح الثقافات والعادات والتقاليد والانسجام المزاجى والوجدانى، فقد تضافرت كل هذه العوامل وتفاعلت فى تأهيل مصر للقيام بدور همزة الوصل الثقافى بين أفريقيا وآسيا وأوروبا عبر النيل والصحراء والبحر الأبيض المتوسط، وأن تظل أرض مصر مفتوحة الذراعين لاستيعاب الهجرات البشرية والأفكار والفلسفات والعقائد الدينية، عبر تعاقب العصور الفرعونية والإغريقية والرومانية والقبطية والمسيحية والإسلامية!

يقول المؤرخ السودانى عبد العزيز أمين عبد المجيد فى كتابه «التربية فى السودان فى القرن التاسع عشر» إن محمد على كان متحمساً لنشر العلوم الحديثة والثقافة العربية فى السودان، ولكنه تحاشى أن يملى إرادته على السودانيين وحملهم على ذلك فوراً، ويقول محمد محمد على فى كتابه «الشعر السودانى فى المعارك السياسية» أن محمد على وأسرته الحاكمة من بعده كان همهم تقدم السودان وإسعاد أهله، وقد لجأ محمد على فى البداية إلى

إن العـرب والأفارقـة يرتبطـان بتاريخ مشـترك وفلسـفة إنسـانية واحـدة، وكلاهمـا ينتمـى إلـى الإيمـان بالقيـم الروحيـة، وبفطـرة الإنسـان وقدراتـه وإمكاناتـه لتحقيـق التطـور الطبيـعى

تشجيع السودانيين على طلب العلم فى مصر، وقد تولى رفاعة الطهطاوى عبر رحلته النيلية المشهودة اختيار النجباء من أبناء مصر والسودان فى العديد من المدن والقرى التى زارها خصيصاً لهذا الغرض، كما أشرف بنفسه على شئونهم التربوية والروحية ورعايتهم دراسيًا وثقافيًا. وبعضهم رُشح لبعثات دراسية فى الخارج، كما اختار بعناية هيئة التدريس لأول مدرسة مصرية فى السودان تحت رئاسته، حيث توفى أربعة من المصريين تباعًا بسبب الأجواء والظروف المعيشية القاسية وإصابتهم بالأمراض، وعبر هذه المدرسة تخرج كبار الموظفين السودانيين والضباط والموظفون ورجال الدين والكتبة والمدرسون.

على أن الدور الثقافى للأزهر الشريف امتد إلى السودان قبل محمد على، وكان أول خريجيه من السودانيين الشيخ محمود أحمد العركى، الذى نهض بإنشاء ١٥ مدرسة لنشر التعليم والثقافة العربية والإسلامية فى منطقة الكوة جنوب الخرطوم، وأولاد الشيخ جابر الذين قاموا بتدريس المذهب المالكى كما مارسوا القضاء الشرعى فى السودان، بينما حمل عبء تدريس العلوم الدينية والثقافية العربية فى السودان من بعد عدد كبير من العلماء المصريين بينهم المشايخ محمد المصرى القناوى ومحمد بن على بن قرم الكيماتى وإبراهيم بن عبودى، فى الوقت الذى كان الحكم العثمانى يعانى من حالة الانحطاط الثقافى. وقد شهد السودان إبان ولاية محمد على توسعًا فى بناء وإعمار المساجد والزوايا وخلاوى حفظ القرآن والمدارس الدينية، وبعدها نشأت المدارس المدنية التى كانت تعنى بتدريس اللغة العربية إلى جانب الفرنسية والتركية والرياضيات والجغرافيا والتاريخ وفقًا لنظام التعليم المتبع فى مصر، وقد ظل التعليم المصرى المدنى قائمًا فى السودان حتى قيام الثورة المهدية (١٨٨٥ ـ ١٨٩٨م) بينما ظل السودانيون يواصلون دراستهم الدينية فى الأزهر وكان من أبرز خريجيه فى ذلك الوقت المشايخ محمد نور البنا وتد نحمة والفكى أحمد عوض الله والأمين الضرير وحسين إبراهيم الزهراء والقاضى أحمد جبارة، وهم الذين نهضوا بعملية التنوير الثقافى ونشر علوم الفقه والشريعة الحديثة وعلوم اللغة العربية فى السودان!

وعلى غرار الأروقة الملحقة بالأزهر التى كانت تؤوى الطلبة الدارسين من كل بقاع العالم الإسلامى رعاية ومأوى ودراسة، أنشأ محمد على أول رواق لأبناء السودان سمى «رواق السنارية» للطلبة الوافدين من سنار ثم «رواق دارفور» وبعدها تعددت الأروقة التى كانت تضم المئات من الطلبة المبتعثين من مختلف ربوع السودان، وبينهم من نهض بإنشاء المراكز الدينية والثقافية فى السودان آنذاك وفى مقدمتها مركز «الدامر»، ومن السودان امتد الدور الثقافى لخريجى الأزهر والمراكز الإسلامية فى السودان إلى دول الجوار.

وقد عزز وجود الجيش المصرى فى السودان نشر الثقافة العربية الإسلامية المصرية، وكان من بين ضباطه وجنوده أدباء وشعراء وفنانون وكانت لهم ندوات للحوارات الثقافية مع أقرانهم من السودانيين، وهم الذين أدخلوا الآلات الموسيقية إلى السودان مثل العود إلى جانب الآلات الموسيقية النحاسية وموسيقى القرب التى أصبحت لها فرق موسيقية ملحقة بالتشكيلات العسكرية السودانية فيما بعد.

كان انضمام أبناء السودان إلى الجيش المصرى فرصة للسفر إلى مصر والإقامة بها، حيث تعلموا فنون القتال والعلوم الحديثة، والذين عادوا منهم إلى السودان لعبوا أدوارًا طليعية مهمة فى نشر العلم والثقافة المصرية بين ذويهم، خاصة فى المناطق المتخلفة والمنعزلة مثل الجنوب وجبال النوبة. ومن المعروف أن الضباط أبناء الجنوب الذين تشربوا الثقافة العربية الإسلامية عبر المدارس والمدرسين المصريين ومعظمهم ينتمون لقبيلة الدينكا من أمثال على عبداللطيف وعبدالعزيز عبدالحى تزعموا فيما بعد ثورة اللواء الأبيض التى تجاوبت مع ثورة ١٩١٩ المصرية ومقاومة الإنجليز بسحب الجيش المصرى من السودان فى أعقاب واقعة مقتل السردار «سير لى ستاك».

كذلك شجع محمد على الطرق الصوفية على دخول السودان، وظلت العلاقة بين الطرق الصوفية فى مصر والسودان منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم، مثالاً ونموذجًا رائعين للتآخى الإسلامى بين الشعبين، وحربًا على التعصب وعونًا على حل الخلافات القبلية فى السودان، علمًا بأن دعاة الطرق الصوفية ومشايخها كان لهم سبق الريادة فى نشر الإسلام بالسودان ومقاومة نشاطات المبشرين وأسلمة الآلاف من الوثنيين، يقول الباحث المؤرخ البريطانى «ج. سبنسر تريمنجهام» فى كتابه القيم «الإسلام فى السودان» وترجمه للعربية الأستاذ فؤاد محمد عكود أن الطريقة «التيجانية» دخلت إلى مصر من بربر لأول مرة قبل المهدية عبر محمد بن المختار المعروف



بور العليبا المتوفى عام ١٨٨٢. وبعدها انتشر في دارفور وكردفان عبر عمر جانيـو الذى ينتمى إلى الهوسـا وآخرين.

ومن المعروف أن السودان في مقدمة الدول والشعوب التى دخلها الإسلام لا عبر الفتح وإنما عبر الحوار والإقناع والقدوة الحسنة، ولعله يفسر إصرار الشعب السوداني على الخيار الديمقراطى وثورانه في مواجهة النظم الديكتاتورية.

على أن عناية محمد على ببسط نفوذ السلطة المركزية على ربوع السودان، استدعى بالتالى عنايته بشق الطرق وبناء المستشفيات والثكنات العسكرية والمواني الحديثة ومباني الحكومة والمدينة الصناعية في «فازوغلى»، وقد نهضت هذه المشاريع بسواعد المصريين والسودانيين. وعبر تلك المشاريع وهذا الاحتكاك انتشر الكتاب والثقافة المصرية وصحيفة الوقائع المصرية «الجازتية» في السودان، الأمر الذى يؤكد على أن حملة محمد على إلى السودان لم تكن غزواً عسكرياً وإنما حملة حضارية بالأساس، وكل إنجازاتها كانت على نفقة الخزانة المصرية، ويحسب لمحمد على أنه كان أول من اكتشف منابع النيل في أدغال التخوم الاستوائية قبل المكتشفين الأجانب الذين استكملوا المهمة من بعد (١٨٦٩ - ١٨٧٢م) عبر بعثتين بقيادة صموئيل بيكر وجوردون وبعثة ثالثة بقيادة البكباشي المصرى سليم قبطان الذى اكتشف منابع النيل الأبيض الاستوائية (١٨٣٩ - ١٨٤٢م) وشتان بين أهداف محمد على التى تصب في مصلحة شعبي وادى النيل والأمن القومى المشترك، وبين الأهداف الأجنبية المشبوهة التى استثمرت تلك الاكتشاف في بسط النفوذ الاستعماري على القارة الأفريقية.

لقد انتشر الإسلام والثقافة العربية بشكل واسع في حوض النيل والقرن الأفريقي في عهد الخديو إسماعيل، ولأن الناس على دين ملوكهم - كما يقولون - نجد أن إسلام «امتيسا» ملك أوغندا كان فاتحة لدخول الشعوب الخاضعة لحكمه في الإسلام وتوقيع معاهدة ووضع بمقتضاها مملكته تحت الحماية المصرية، وبناء على طلبه عسكرت قوة مصرية بقيادة الضابط السوداني «نور بك محمد» في «روبايا» عاصمة مملكته التى كانت تقع على ساحل بحيرة فيكتوريا، في الوقت الذى أرسل ابنته إلى مصر وأقامت ثماني سنوات وكادت تتزوج ضابطاً مصرياً ولكن تغير الأحوال حال دون ذلك.

ولعله من سخريات القدر أن ما فشل فيه الاستعمار البريطاني لفصم الروابط الثقافية بين شعبى وادى النيل كان محور عناية الجبهة الإسلامية التى تحكم السودان الآن عبر إلغاء التعليم المصرى في السودان فجأة من طرف واحد ومصادرة نادى ناصر الثقافي والاستيلاء على مقرات المدارس المصرية وفرع جامعة القاهرة بالخرطوم، ثم احتفاء الجبهة بهذا الحدث كما لو أنه إنجاز وطنى وسياسى للتحرر من الاستعمار الثقافى المصرى في السودان، وإزالة أهم العقبات التى تعترض أيديولوجية الجبهة ومشروعها الرامى إلى أسلمة دول الجوار وزعزعة أمنها عبر إيواء وتصدير الإرهاب إبان كان الدكتور حسن الترابى مفكر النظام وعرابه!

الأمير عمر طوسون

وتظل هناك علامات مضيئة وباقية حول ماضي العلاقات الثقافية بين مصر والسودان وعلامات استفهام حول حاضرها ومستقبلها الغائم، وبينها فترة السنوات الخمس التى قضاها رائد الفكر والتنوير رفاعة رافع الطهطاوى منفياً بالسودان بقرار تعسفى من الخديوى عباس، ورغم أنه خفض من وظيفته إلى مجرد ناظر مدرسة ابتدائية، ورغم أن أقرانه من أعضاء البعثة التعليمية المصرية مات معظمهم من قسوة المعيشة، إلا أنه ظل صامداً يواصل دوره في نشر التعليم والثقافة والترجمة، ورعايته للنجباء من أبناء السودان. كذلك دور



الإمام محمد عبده في اختيار المدرسين المصريين الذين قاموا بنشر الوعى التحررى والثقافة العربية الإسلامية في السودان على هدى مبادئ جمال الدين الأفغانى خاصة بين طلبة كلية جوردون والدور الذى قام به جعفر مظهر حكمدار السودان في عهد الخديوى إسماعيل الذى جمع حوله علماء وأدباء السودان في أول ندوة حوارية منتظمة بالخرطوم مع أقرانهم من المصريين، بينما ظلت الصحف المصرية اليومية والأسبوعية والمجلات الشهرية التى ظلت تعنى بأوضاع السودان بوعى ومعايشة ميدانية عبر مراسليها في الخرطوم وبقية مدن السودان، كما كانت تهتم بألوان الأدب والفكر السوداني وتنقل بعض ما تنشره الصحف والمجلات السودانية ومنها «روضة الشعر» و«الرائد» التى كانت وأمثالها تنهض بنشر الأدب والشعر والفكر السوداني، لذلك كان الاستعمار البريطاني يجرم ويعاقب على تهريب الصحف المصرية وتداولها في السودان.

فيما صدرت العديد من الصحف السودانية التى كانت تعنى بقضية العلاقات السودانية المصرية وتسعى إلى ترسيخها أو الدفاع عنها، وفي مقدمتها جريدة «الحضارة» ومجلة «الفجر» وجريدة «النيل»، وكان السياسى والأديب المصرى المرموق محمد حسين هيكل قد زار السودان وكتب سلسلة مقالات تحت عنوان «عشرة أيام في السودان» في جريدة «السياسة» المصرية فانبرى له بالنقد الشيخ عبدالرحمن أحمد في مقالين بصحيفة «الحضارة» السودانية، وبعدها صار من كتّابها.

ومن الصحف السودانية التى تأثرت في نهجها وأسلوبها بالصحافة المصرية صحيفة «النيل» التى وقع اختيار رئاسة تحريرها على الكاتب والثرى المصرى حسن صبحى، كما اختير لمراسلتها من مصر فكرى باشا أباظة.

والطريف أن حسن صبحى الذى كان يعشق الأناقة، فرض على طاقم المحررين تفصيل بدل «إسموكنج» لحضور الاحتفالات العامة، وحين تأكد من أن الكوادر السودانية باتت قادرة على تسيير الصحيفة قفل راجعاً إلى مصر، وترك رئاسة التحرير للأستاذ أحمد يوسف هاشم.

في المقابل كانت «رسالة السودان» باباً ومادة مستدامة في مختلف الصحف والمجلات المصرية، وعبرها كان الاهتمام الواعى والدءوب بقضايا السودان ومتابعة شئونه وشجونه، ويرصد الدكتور إبراهيم عبده أخطر المواقف في تاريخ الصحافة المصرية التى ارتبطت بالسودان ومنها على سبيل المثال لا الحصر واقعة منع دخول جريدة «العروة الوثقى» إلى القطر المصرى بسبب متابعتها لأحداث السودان عبر دعوة جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده للمصريين بتأييد الثورة المهدية والقيام بثورة مماثلة لها في مصر، وقضية جريدتى «الفلاح والبسفور إجيبشيان»، وتناولت منشور الإمام المهدى الذى حرض فيه المصريين على الثورة بعد هزيمة الأنصار لجيش الإنجليز بقيادة جوردون، وهاجم فيها زيارة المندوب البريطاني «اللنبى» للسودان وقال فيها:

ويح قلبى ماذا يروم اللنبى
يوم وافى يجر سيفاً صقيلاً
أتراه يريد يفصم حبلاً بين
مصر وبيننا موصولاً
جل من ملك الدخيل فجر الذيل
واستمطر العذاب وبيلاً

ويقول الدكتور حسنين عبدالقادر أول أستاذ لتدريس مادة الصحافة بالسودان: إن الصحف شكلت أهم جوانب الاتصال والاستمرارية في العلاقات المصرية السودانية، خاصة فترات الجمود السياسى بين البلدين على الصعيد الرسمى، بينما يقول المناضل الوحدوى المرحوم الدرديرى أحمد إسماعيل الأمين المساعد الأسبق بالجامعة العربية: «إن الصحافة كانت النافذة السياسية التى أطل منها جيلهم في الثلث الأول من القرن العشرين على معنى ارتباط القطرين ارتباطاً واعياً لمصلحة تطورهما معاً، وأنها - كما قال - لاتزال أهم

حملة محمد على إلى السودان لم تكن غزواً عسكرياً وإنما حملة حضارية بالأساس، وكل إنجازاتها كانت على نفقة الخزانة المصرية، ويحسب لمحمد على أنه كان أول من اكتشف منابع النيل في أدغال التخوم الاستوائية قبل المكتشفين الأجانب

دعامات تحقيق هذا الهدف الذى استخدم نفس الأسلوب المنطقى الذى يناسب الجيل الجديد وفكره القائم على الموضوعية.

والحقيقة أن مدارس الأقباط والكلية القبطية المصرية لعبت دوراً شعبياً فى نشر التعليم والثقافة المصرية مما شجع زعامات السودان الروحية والإسلامية ومن بينهم السيد عبدالرحمن المهدى والسيد على الميرغنى والشريف الهندى على دعمها مالياً ورعايتها أدبياً.

كذلك فى ذروة الوجود المصرى فى السودان كان عدد ضباط وجنود الجيش ٢٢٦٣٥ بينهم ٧٣٧٩ مصرياً والباقى من السودانيين، ومعظمهم من قبائل الدينكا والشيلوك الجنوبية وقبائل الفور والشكرية والكواهلة والجعليين والبقارة من شمال وغرب السودان. وقد ورث جيش السودان الحديث روابطه وتوجهه القومى عقيدته وثقافته العسكرية عبر مرحلة التحامه بالجيش المصرى، وربما من هنا أدرك الإنجليز خطورة هذه العلاقة على وجودهم.. ومن ثم كان قرار الحاكم العام البريطانى فى السودان يوم ١٤ يناير ١٩٢٣ بإنشاء قوة الدفاع السودانية وبدأ تنفيذ الفكرة إثر انسحاب الجيش المصرى من السودان.

ومع بداية هيمنة بريطانيا على السودان ظل الشغل الشاغل لأجهزته الأمنية تعقب السياسيين والمثقفين والأدباء السودانيين الوطنيين ومنع اتصالهم بأقرانهم المصريين، وكشفت وثائق الخارجية البريطانية عن سلسلة التعليمات المشددة التى وجهها رئيس الحكومة البريطانية «ونستون تشرشل» إلى الحكام والمفتشين الإنجليز للعمل على موات منطقة النوبة فى السودان ومصر وحرمانها من الخدمات والتنمية، كونهما همزة الوصل الجغرافى والديموجرافى بين البلدين، وإدراكاً منه لارتباط ارتفاع مستوى المعيشة والحياة الاجتماعية بالثقافة، خاصة أن الثقافة المصرية كانت الأكثر انسجاماً مع النوبيين والأقرب للنوبة وأهل السودان عموماً عهدئذ!

وكذلك كان للأمير عمر طوسون اهتمامات ثقافية واسعة بالسودان، عبر تعليم المئات من أبنائه على نفقته الخاصة فى مصر والخارج، وتزويد المدارس فى السودان بالكتب، وإصدار العديد من الكتب المهمة التى تعنى بشئون السودان ودول حوض النيل والقرن الأفريقى.

فإذا استقرأنا واقع العلاقات الثقافية المصرية مع دول حوض النيل والقرن الأفريقى منذ الاستعمار البريطانى لوادى النيل ثم استقلال السودان عام ١٩٥٦.. نلاحظ ندرة زيارة المثقفين والفنانين المصريين للسودان من أمثال طه حسين وتوفيق الحكيم ومحمد عبدالوهاب، وغياب الاهتمام الصحفى المتخصص فى شئونه، وهو ما انعكس بالسلب إزاء الغياب المعرفى المصرى بمتابعة ما يجرى فى السودان سياسياً وثقافياً واجتماعياً، حتى لا يكاد المصريون يعرفون من أدباء السودان سوى الروائى الطيب صالح والشاعر محمد الفيتورى، ومن الفنانين سيد خليفة وأغنيته الشهيرة «المامبو السودانى» بينما لا يزال كتاب محمد حسين هيكل باشا «عشرة أيام فى السودان» ودور رفاعة الطهطاوى فى تعليم أبناء السودان، وإقامة عباس محمود العقاد فترة من الوقت فى الخرطوم ومساجلاته مع المثقفين من أبناء السودان علامات مضيئة لكنها متواضعة على درب التواصل بين البلدين.



فى المقابل نجد أن السودانيين حتى بسطاءهم يعرفون الكثير عن مصر رغم عدم زيارتهم لها: عبر السينما والإذاعة والصحافة والكتاب، بينما أخفق السودانيون فى المقابل فى التعريف والإعلام عن واقعهم بسبب ضعف أو تخلف آليات السودان الإعلامية والثقافية. ولعل زيارة السيدة أم كلثوم للسودان وغنائها على المسرح القومى فى أم درمان فى إطار دعم القوات المصرية وإعادة بنائها بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧م تمثل فتحاً وجدانياً للأغنية والموسيقى الشرقية فى السودان الذى تعتمد موسيقاه على السلم الموسيقى الخماسى، بينما الأغنية والموسيقى السودانية تعتمد على السلم الموسيقى الخماسية. ومن هنا كانت عبقرية أم كلثوم فى تلوين أداء أغنياتها وهو ما تحدثت عنه فى مقال منشور فى مجلة روزاليوسف «أم كلثوم تسودن أغانيها».

ومن المؤسف حقاً أن يتكاسل أهل الموسيقى فى مصر عن تعهد المواهب الفنانية فى السودان أسوة بالمطربين والمطربات العرب. وكذلك إهمال القائمين على تنظيم مهرجانات الموسيقى العربية والأغنية العربية وليالى التليفزيون عن دعوتهم للمشاركة أسوة بغيرهم من العرب والأجانب، ومن المؤسف ثالثة عدم الاستفادة بنحو مليونى سودانى يقيمون الآن فى مصر وبينهم خيرة المثقفين فى التنوير بشئون السودان الثقافية عبر الكتابة فى الصحف والمشاركة فى الحوارات الإذاعية والتليفزيونية، ولماذا لا تنهض الهيئة المصرية للكتاب ومصلحة الاستعلامات بطبع الإنتاج السودانى وتوزيعه بأسعار رخيصة دعماً لواجب الإدراك المعرفى بشئون وشجون السودان على نحو ما بادر إليه المجلس الأعلى للثقافة مؤخراً إزاء نشر ترجمات لكتاب «حرب النهر» لونستون تشرشل، وكتاب «السيف والنار» لسلاطين باشا، وكتاب «الإسلام فى السودان» لسبنسر ترمنجهام.

والحقيقة أن إذاعة ركن السودان سابقاً وإذاعة وادى النيل لاحقاً تكرس النظرة القطرية للسودان التى لم تجذب إليها المستمعين المصريين والعرب، بينما المطلوب توزيع مادتها السودانية تحديداً على مختلف الإذاعات المصرية، وعبر هذا الأسلوب يمكن للمستمع المصرى والعربى استيعابها، وتذوق الموسيقى والغناء السودانى على سبيل المثال جنباً إلى جنب مع الأغنية والموسيقى المصرية واللبنانية والخليجية، ومن واقع خبرتى أستطيع التأكيد على أن تذوق الموسيقى والغناء السودانى المدخل الطبيعى لفهم الشخصية السودانية والاقتراب من الوجدان السودانى.

ولعل أخطر ما يواجه علاقات مصر والسودان، اتجاه السودان الآن حثيثاً نحو أفريقيا بأكثر من تحليقه فى سربه العروبة نتيجة لغياب الاهتمام المصرى بشئون السودان، فأين الدور المصرى - على سبيل المثال - من الدور الأفريقى الذى استأثر بالوساطة لرأب الصدع السياسى وإحلال السلام فى السودان عبر رعاية دول الإيقاد.

ولا أحد يعرف حتى الآن السبب وراء إلغاء معهد شئون السودان الذى كان يعنى بتخريج الكوادر والخبراء فى مختلف شئون السودان، وإسناد المهمة وهذا الدور الثقافى الحيوى للمعهد الأفريقى.. كأن أهمية السودان الاستراتيجية القصوى بالنسبة لمصر توازى أهمية أفريقيا الوسطى مثلاً، بينما غاب عن أساتذة الدراسات العليا فى الجامعات المصرية توجيه طلبة الماجستير والدكتوراة إلى اختيار رسائلهم فى شأن من شئون السودان، ولماذا لا توجه الرحلات الطلابية المدعومة من الجامعات للاطلاع على أحوال أشقائنا فى السودان وحوض النيل والقرن الأفريقى، وإتاحة الفرصة أمامهم لعقد الصداقات مع أقرانهم فى تلك الدول، كونهم معاً طليعة المستقبل؟

ثم تشيد بالأهمية السياسية والاقتصادية والأمنية لصيغة منظومة دول «الأندوجو» التى بادرت إليها الدبلوماسية المصرية فى عهد الثمانينيات، فلاشك أنها كانت تمثل الآلية الواقعية والعملية للتعاون والتكامل الخلاق بين دول حوض النيل العشر اتساقاً مع روابطها الأفريقية التاريخية.. ومن المتعين إذن على مصر القيام بدور فاعل ورصد الإمكانات الكفيلة بإحيائها، بحيث لا تقتصر نشاطاتها على الصعيد السياسى أو الرسمى فحسب، وإنما المطلوب كذلك استيعابها للدور الثقافى وتطويرها لاستيعاب الدور الشعبى للأحزاب والنقابات ومنظمات المجتمع المدنى!!

مدارس الأقباط والكلية القبطية المصرية لعبت دوراً شعبياً فى نشر التعليم والثقافة المصرية مما شجع زعامات السودان الروحية والإسلامية ومن بينهم السيد عبدالرحمن المهدى والسيد على الميرغنى والشريف الهندى على دعمها مالياً ورعايتها أدبياً


متواجد في مراك

أسطورة ملكة إسرائيل

بين بلقيس وسليمان والهدهد

أحمد عثمان

هناك عدد من الروايات ذات طبيعة أسطورية، عن الثروات الهائلة التي وجدت في اليمن وعن ملكتها الشهيرة «ملكة سبأ» التي أثارت قصتها خيال الملايين من الناس عبر العصور. وقد حاول المؤرخون ورجال الآثار خلال القرن الماضي التحقق من تاريخ هذه الملكة الشهيرة، وهل هو مجرد أسطورة خيالية أم يمثل حقائق من أحداث الماضي. إلا أن محاولة البحث عن ملكة سبأ في التاريخ، أثارت تساؤلات أخرى حول الملك سليمان ومدى صحة الأساطير التي وردت عنه، وهل حقا كانت له دولة تمتد حدودها بين النيل والفرات؟

بلقيس والهدهد

وردت قصة ملكة سبأ في القصص اليهودية والإسلامية والحبشية، حيث يعتقد أنها حكمت مملكة كبيرة في جنوب غربي الجزيرة العربية، في ذات الفترة التي عاش فيها الملك سليمان منذ حوالي ثلاثة آلاف عام. وبينما تطلق عليها المصادر الإسلامية اسم بلقيس، فهي تعرف في المصادر الحبشية باسم مكيدا. وبحسب الرواية التوراتية سافرت ملكة سبأ من بلادها في قافلة كبيرة من الجمال، ومعها هدايا غالية من الذهب والمجوهرات والتوابل. وجاءت إلى قصر الملك سليمان، لتختبر حكمته عن طريق توجيه بعض الأسئلة إليه تتضمن الألغاز والأحاجي. ورغم أن القرآن الكريم لا يذكر بلقيس بالاسم، إلا أن اسم سبأ ورد في عدة مواقع بالقرآن الكريم حيث يبين مدى ثراء هذه البلاد: «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور» (سورة سبأ، ١٥).

وتحكي القصة القرآنية كيف أن طائر الهدهد جاء إلى سليمان عليه السلام بخبر ملكة سبأ، التي تعبد وقومها الشمس من دون الله. وعندما أرسل إليها سليمان طالبا منها عبادة الله وحده، ردت عليه بهدية مما أغضب الملك الذي هدد بمعاقبتها: «وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين، لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين. فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين. إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون... ... قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين. اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون. قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم. إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين. قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون. قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين. قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون. وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون» (النمل: ٢٠ - ٣٥).

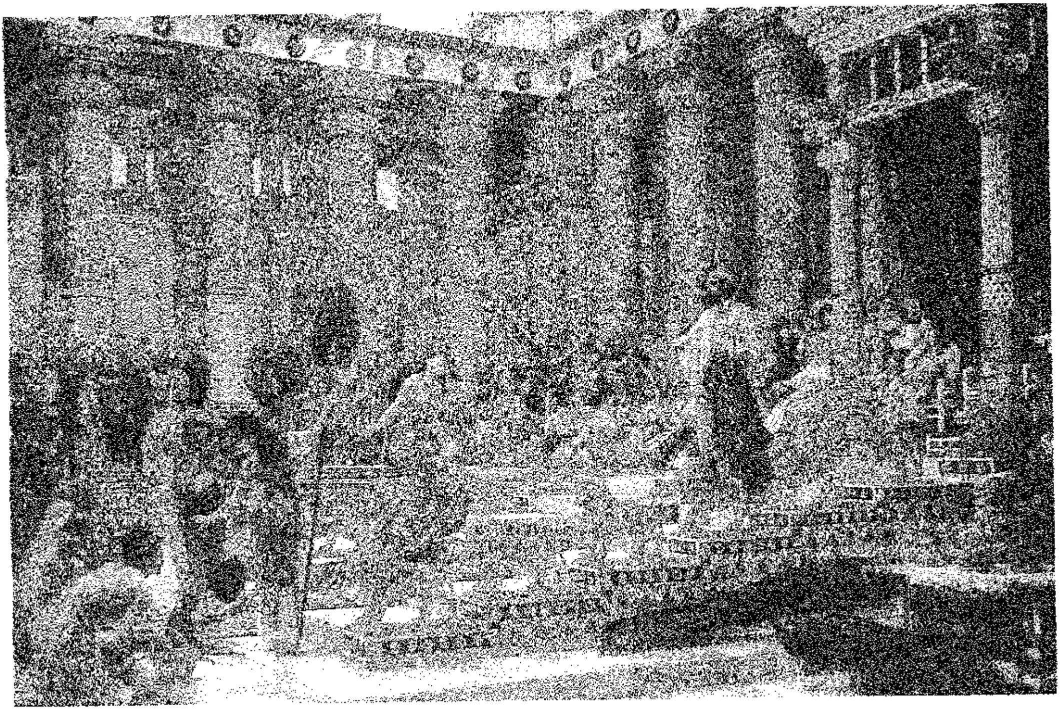
فجاءت بلقيس لزيارة سليمان في قصره. وبحسب بعض الروايات الإسلامية، خشي مساعدو سليمان أن يقع الملك في غرامها ويتزوجها، فأخبروه أن رجليها مليئة بالشعر. وأراد سليمان التأكد من صحة هذا الكلام فبنى قاعة لعرشه جعل أرضها من الزجاج، فرفعت بلقيس ذيل ردائها عند دخولها اعتقادا منها أنها تسير فوق الماء. فشاهد سليمان سيقانها وتأكد من وجود الشعر. وهناك قصة مختلفة في التراث الإيراني عن ملكة سبأ، تجعلها ابنة ملك الصين ولم تأت من بلاد اليمن. وتظهر أهمية ملكة سبأ في العقائد الدينية والقومية لبلاد الحبشة، حيث ساد الاعتقاد بأنها هي التي أدخلت المسيحية إلى هذه البلاد، كما أسس ابنها منيليك من الملك سليمان دولة النجاشي التي انتهت في القرن الماضي بموت هيلاسيلاسي.

الملك سليمان

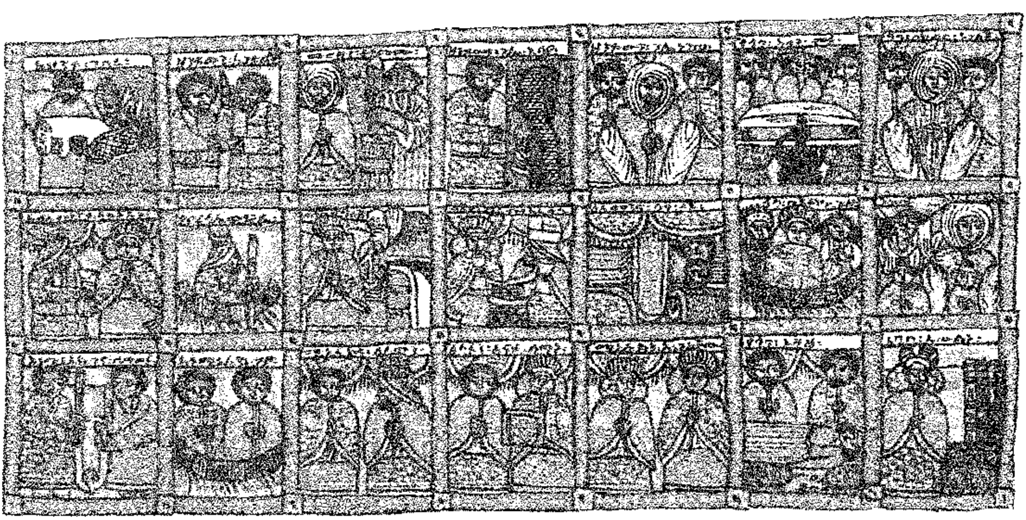
جاء في سفر الملوك الأول التوراتي أن الملكة جاءت في قافلة للقاء سليمان في قصره، وأحضرت معها الكنوز من ذهب وأحجار كريمة: «وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل. فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جدا بجمال حاملة أطيابا وذهبا كثيرا جدا وحجارة كريمة وأتت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها. فأخبرها سليمان بكل كلامها. لم يكن أمرا مخفيا عن الملك لم يخبرها به. فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان والبيت الذي بناه وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسقاته ومحرقاته التي كان يصعدها في بيت الرب لم يبق فيها روح بعد. فقالت للملك صحيحا كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك. ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناي فهو ذا النصف لم أخبر به. زدت حكمة وصلاحا على الخبر الذي سمعته. طوبى لرجالك وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائما السامعين حكمتك... وأعطت الملك مائة وعشرين وزنة ذهب وأطيابا كثيرة جدا وحجارة كريمة. لم يأت بعد مثل الطيب في الكثرة الذي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان. وكذا سفن حيرام (الفينيقي) التي حملت ذهبا من أوفير أتت من أوفير بخشب الصندل كثيرا جدا وبحجارة كريمة... وأعطى الملك سليمان لملكة سبأ كل مشتهاها الذي طلبت عدا ما أعطاها إياه حسب كرم الملك سليمان. فانصرفت وذهبت إلى أرضها هي وعبيدها» (الإصحاح العاشر: ١ - ١٣).

اختلف رجال الآثار حول الوقت والمكان الذي عاش فيه الملك سليمان، فبينما تقول القصة التوراتية إنه عاش في بداية القرن العاشر قبل الميلاد، تبين أن الاستحكامات والبنايات التي نسبت إليه، ترجع إلى تاريخ آخر. وبينما حاول بعض الباحثين الذين اجتمعوا في المتحف البريطاني بلندن في ٢٩ يونيو (حزيران) الماضي للتعرف على طرق قوافل البخور في جزيرة العرب، تحديد عصر ملكة سبأ ليتفق مع عصر سليمان منذ ثلاثة آلاف عام، نفى آخرون وجود سليمان في تلك الفترة. لم يذكر القرآن شيئا عن الزمان الذي عاش فيه الملك سليمان، الذي وردت قصته في سور «الأنبياء» و«النمل» و«سبأ» و«ص»، ولا عن حجم مملكته أو مكانها. لكن الروايات التوراتية تذهب إلى أن سليمان عاش خلال النصف الأول من القرن العاشر قبل الميلاد. وبحسب ما جاء في سفر الملوك الأول التوراتي، فإن سليمان كان «متسلطا

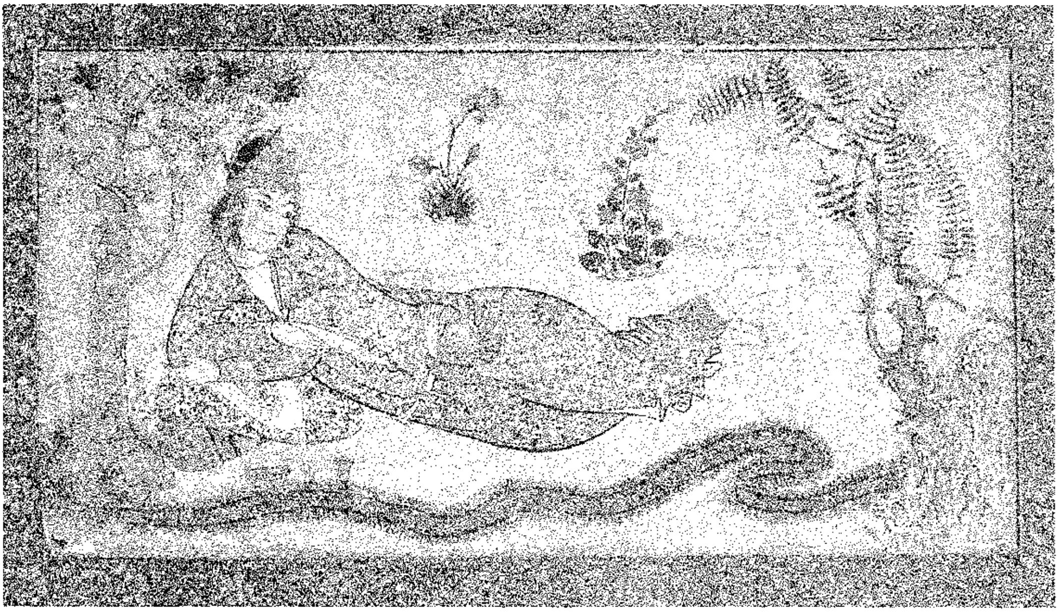
** في معرض «ملكة سبأ وكنوز اليمن القديمة» الذي نظمه المتحف البريطاني في لندن قبل شهور، اصطف آلاف البريطانيين والسائحين لمشاهدة آثار اليمن، والتعرف على أسرار ملكة سبأ التي جاءت قصتها في القرآن والكتاب المقدس، وسحرت خيال الملايين. وقد نظم المتحف البريطاني عدة محاضرات عن ملكة سبأ كما صورها الفنانون الغربيون منذ عصر النهضة في القرن الخامس عشر، التي صورها الشعراء والكتاب كامرأة تغري الرجال بجمالها. كما تم استعراض الروايات الإسلامية واليهودية والحبشية التي تحدثت عن هذه الملكة التي يسميها المسلمون بلقيس، ويعتقد الحبشيون أنها تزوجت الملك سليمان وأصبح منيليك ابنها منه مؤسسا لعائلة النجاشي، التي كان هيلاسيلاسي آخر ملوكها في القرن العشرين. أسطورة ملكة سبأ هي المدخل الذي اعتمد عليه المتحف البريطاني بلندن في العرض واحتوى على روائع الآثار التي تم الكشف عنها في بلاد اليمن، بينها تماثيل من الرخام والبرونز ونماذج من عناصر الزخرفة المعمارية والمجوهرات الذهبية وأعمال الزجاج والفخار، تم تجميعها من متاحف بريطانيا وأمريكا واليمن. ومن أهم القطع رأس لثور صغير مصنوع من الذهب، يرمز إلى «ألماقه» معبودة السبئيين التي تم عرضها للمرة الأولى منذ العثور عليها. وهناك رأس مرمرية جميلة لامرأة سبئية اسمها مريم، جرى عرضها مع ما عثر عليه في قبرها من أدوات.



زيارة ملكة سبأ للملك سليمان كما رسمها السير إدوارد جون.. موجودة بمتحف كارت جالاري بسدني . استراليا



رسم حبشي لقصة ملكة سبأ مع الملك سليمان



بلقيس عندما وصلها الهدهد - رسم إيراني موجود بالمتحف البريطاني

بـــين بلقيـــس وســـليمـان...

على جميع الممالك من النهر (الفرات) إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر؛ (حيث) كانوا يقدمون الهدايا ويخدمون سليمان كل أيام حياته».

فاجأ «جوناثان طاب، رئيس قسم آثار الشرق الأدنى في المتحف البريطاني، المؤتمرين بقوله:

«لما كان العرف قد جرى على اعتبار حكم سليمان في القرن العاشر قبل الميلاد، فقد تم تحديد تاريخ ملكة سبأ في نفس ذلك الوقت. والآن يحاول الباحثون الذين يقبلون بتحديد وقت معين لحكم سليمان، البحث عن حكم (مملكة) سبأ التوراتية، والعثور على مملكة مناسبة في اليمن تصلح (لهذا الغرض) في القرن العاشر... (إلا أن) آثار بلاد الشام خلال العشرين عاما الماضية تقريبا، لم تتوقف عند الشك في تاريخية سليمان (نفسه) كحاكم مهم في بداية تاريخ إسرائيل، بل إنها تتعارض مع حقيقة وجود مملكة (إسرائيل) المتحدة (نفسها)، بالشكل الذي قدم في الرواية التوراتية». وقال جوناثان إن البقايا الأثرية التي تنسب عادة إلى سليمان، عبارة عن «مجموعة من البنايات الأثرية: بنايات عامة أو قصور في مجيدو، أبرزها أربع بوابات ضخمة مدعمة يتبعها أسوار محصنة للمدينة. تم العثور عليها في مجيدو وحازورة وجيزر. ولمجرد أن هذه الآثار حدد لها تاريخ في القرن العاشر، اعتبرت (كما لو كانت) شاهدا على برنامج سليمان الواسع في البناء... (و) عندما تمت أعمال الكشف في تل جزريل الذي قامت به جامعة تل أبيب والمدرسة البريطانية للأركيولوجي في القدس في تسعينيات القرن العشرين، أخرج هذا الموقع الذي شيدته عائلة عمري خلال القرن التاسع عشر... فخارا مماثلاً للفخار (الذي عثر عليه في) المستويات السليمانية في مجيدو وحازورة... مما أدى في السنوات الأخيرة إلى إعادة فحص ما يسمى بالمعمار السليماني».

مملـــكـــــة داود

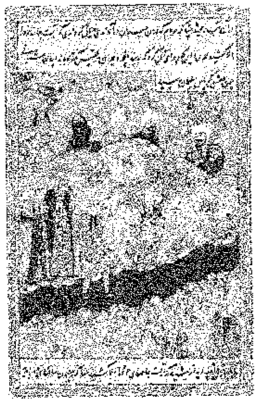
بحسب الرواية التوراتية فإن داود بن يسى من قبيلة يهودا، كان يرعى الأغنام ويحسن العزف على العود، جاء ليعيش عند شاؤول، وهو الذي خلفه في قيادة قبائل بني إسرائيل. وتتضمن الرواية التوراتية معلومات متناقضة عن هذا الملك. فنحن نجد داود ومعه جيش مكون من ٦٠٠ رجل يحاربون في صراع داخلي بين القبائل الإسرائيلية أو مع الفلسطينيين، وفجأة نجد تفاصيل معارك كبيرة تخوضها جيوش منظمة في مواقع محصنة عديدة من أرض الهلال الخصيب. لم يكن صدق الرواية التاريخية يهم الكهنة في شيء إذ كان هدف الرواة الأساسي من ادعاء هذه الانتصارات الجبارة هو حث بني إسرائيل على ترك عبادة الأصنام والعودة إلى ديانة موسى، حتى ينصرهم ربهم على أعدائهم. وبحسب هذه الرواية، مات داود تاركا لخليفته سليمان إمبراطورية تمتد حدودها ما بين النيل والفرات، دون أن يعرف أحد من أين جاءت هذه الإمبراطورية؟

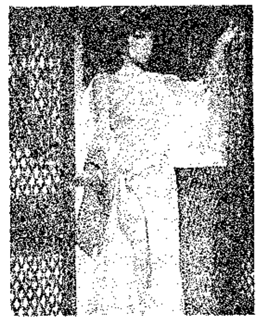
وحتى هذه اللحظة لم يتمكن الأثريون من العثور على أي دليل يشير صراحة أو كناية إلى مملكة داود وسليمان في فلسطين. وبينما تقول رواية سفر صموئيل الثاني وسفر الملوك الأول بأن الملك داود أقام إمبراطورية تمتد بين النيل والفرات، أورثها لسليمان بعد موته، فإن رجال الآثار لم يتمكنوا من العثور على ذكر واحد لأي من الملكين الإسرائيليين، رغم وجود ٣٠٠ موقع بأرض فلسطين تقوم فيها البعثات الأثرية بأعمال الحفر في إسرائيل والضفة والقطاع. وأدى عدم ظهور أدلة أثرية تتفق مع قصص التوراة إلى الاعتقاد بأنها روايات أسطورية لا تعبر عن الأحداث التاريخية. يقول توماس تومسون أستاذ دراسات العهد القديم بجامعة كوبنهاجن الدنمركية: إن الاعتقاد الذي كان سائدا حتى القرن التاسع عشر كان يذهب إلى اعتبار القصص التوراتية تمثل أحداثا تاريخية حقيقية. ثم تغير هذا الموقف تماما الآن، بعد أن أظهرت نتائج الاكتشافات الأثرية عدم وجود أدلة تؤيد ما جاء في هذه القصص من أحداث وتواريخ. فليس هنالك دليل من الآثار على وجود مملكة إسرائيلية متحدة أيام شاؤول وداود وسليمان، كما لم ترد أية إشارة لهؤلاء الملوك في المصادر التاريخية. ويعتقد تومسون أن قصص التوراة تضمنت أحداثا تاريخية قديمة لشعوب وممالك أخرى في الشرق الأوسط، تم اقتباسها لتكون جزءا من تاريخ مملكة بني إسرائيل. بل إنه يذهب إلى أن دولة يهودا التوراتية لم تظهر إلا منذ القرن الخامس قبل الميلاد، في زمن الحكم الفارسي، ولم يكن لهذه الدولة أية علاقة بدولة إسرائيل التي قامت حول السامرة قبل ذلك بأربعة قرون ودمرها الآشوريون عام ٧٢٢ ق.م.، ونقلوا سكانها إلى مناطق أخرى، وأحلوا أقواما غريبة مكانهم.

تحكي لنا قصة سليمان. ويدعى «شلما» في العبرية. أنه جلس «على كرسي داود أبيه وتثبت ملكه جدا... وصاهر سليمان فرعون ملك مصر وأخذ بنت فرعون وأتى بها إلى مدينة داود إلى أن أكمل بناء بيته وبيت الرب وسور أورشليم حواليها». وبينما فشل الأثريون في العثور على أية بقايا للبنايات التي ورد ذكرها في قصة سليمان ضمن طبقات الأرض التي ترجع إلى القرن العاشر قبل الميلاد، فإنهم عثروا على بقايا نفس هذه البنايات في الشرائح التابعة لعصر أمنحتب الثالث قبل ذلك بأربعة قرون. ويبدو أن كتبة الرواية التوراتية استعاروا بعض القصص المتعلقة بالإمبراطورية المصرية بين النيل والفرات. قبل عصر



ملكة سبأ والملك سليمان - في فيلم أمريكي عام ١٩١٤


الملكة بلقيس تنظر إلى الأسماك أسفل الزجاج - وترفع ذيل فستانها - رسم فارسي في كتاب موجود بمتحف اللوفر بباريس


جينا لولو بريجيدا الممثلة الإيطالية في فيلم أمريكي عام ١٩٥٩

سليمان بخمسة قرون. ونسيوها إلى ملكهم. هناك تشابه كبير بين هذه الروايات، خصوصا مع ما نعرفه من تاريخ أمنحتب الثالث والد إخناتون. كان أمنحتب الثالث يسيطر على معظم أجزاء العالم المعروف في زمانه، امتدت حدوده شمالا عبر نهر الفرات في جنوب آسيا الصغرى وجنوبا عند شلال النيل الرابع وسط السودان في أعماق أفريقيا، رغم أنه لم يخض معركة حربية واحدة في حياته، حيث قام أجداده من ملوك الأسرة ١٨ بتكوين هذه الإمبراطورية. وعندما توفي والده تحتمس الرابع كانت الأمور قد استقرت للملك الصغير الذي تولى الحكم وهو لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، فلجأ إلى الدبلوماسية في علاقاته مع ملوك الإمبراطورية. عمد أمنحتب الثالث إلى الزواج من أميرات ممالك الإمبراطورية وتبادل الهدايا مع الملوك، خصوصا الذهب الذي كانت مصر تحصل عليه بكثرة من مناجم أفريقيا، لبناء علاقات صداقة مع الدول التابعة له. وعندما جلس أمنحتب الثالث على عرش مصر كان الثراء قد وصل إلى درجة لم يصل إليها من قبل، ولا هو وصل إليها في أي عصر لاحق. واستطاع هذا الملك الذي ساد السلام في عصره، أن يستخدم هذا الثراء في البناء والمعمار سواء في مصر أو في بلاد سورية وكنعان، حيث شيد المعابد والقصور والمدن المحصنة. وكان لوجود عدد كبير من أسرى الحروب في ذلك الزمان أثر فعال في ازدياد القوى العاملة التي تم استخدامها في أعمال قطع الحجارة والبناء.

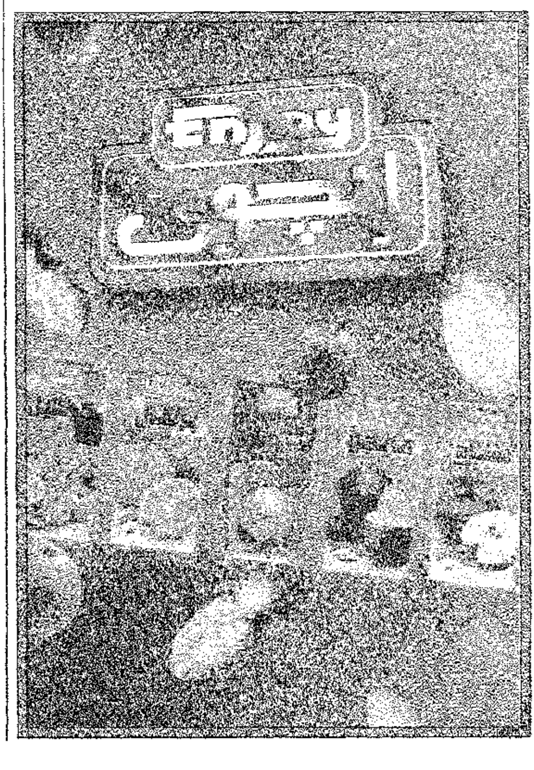
مدينة القدس

تقول قصة العهد القديم من الكتاب المقدس إن داود بعد أن صار ملكا على قبائل يهودا وإسرائيل قام بالاستيلاء على مدينة القدس عندما «ذهب الملك ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض... وأخذ داود حصن صهيون. (و) هي مدينة داود... وأقام داود في الحصن وسماه مدينة داود». ولم نحصل على تفاصيل هذه القصة المنسوبة إلى داود، في أي مصدر تاريخي ولم ترد الإشارة إلى داود نفسه في المصادر المصرية أو البابلية، فكان من الطبيعي أن يحاول الأثريون في العصر الحديث العثور على الأدلة للتأكد من صحة هذا الجزء من القصة تاريخيا، كما وردت عنه في سفر صموئيل الثاني من كتب العهد القديم. ومع أن عمليات البحث عن البقايا الأثرية القديمة في القدس ازدادت بشكل ملحوظ منذ وقوع هذه المدينة في أيدي السلطات الإسرائيلية في يونيو ١٩٦٧، إلا أنه تبين عدم وجود مدينة ولا أسوار في الفترة التي تقول الرواية التوراتية بأن القدس كانت فيها عاصمة لداود وسليمان.

وكانت بعض المصادر التاريخية التي جاء بها ذكر أورشليم قد أوحت من قبل بوجود مدينة القدس المحصنة، على الأقل منذ القرن الرابع عشر السابق للميلاد. فهنالك ستة خطابات من بين رسائل العمارنة التي وجدت في مصر قبل نهاية القرن الماضي، كتبها «عبدي خيبة» إلى الملوك المصريين والذي وصف نفسه بأنه كان «حاكم متاتي (أرض) أورشليم». واستنادا إلى هذه الرسائل قال المؤرخون بوجود مدينة كبيرة في منطقة القدس خلال حكم الملك إخناتون وأمنحتب الثالث، في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وجاءت نتائج الكشف الأثري الأخيرة متعارضة تماما مع هذا الاعتقاد، حيث لم يتم العثور على بقايا أية مدينة قديمة في موقع القدس ترجع إلى تلك الفترة الزمنية. ويبدو الآن أن أورشليم هذه لم تكن مدينة سكنية، وإنما كانت مزرعة أقيمت عندها نقطة للحراسة العسكرية لتأمين الطريق المؤدي إلى بيسان في الشمال. وبحسب ما ذهب إليه توماس تومسون فإن عدد سكان منطقة أورشليم في عصر داود كان أقل من خمسة آلاف، مما يصعب معه القول بأنها كانت عاصمة لإمبراطورية كبيرة، وهو يرى أن علاقة اليهود بالقدس لم تبدأ إلا منذ القرن الرابع قبل الميلاد فقط.

تجارة البخور واللبان

هنالك أدلة كتابية تتحدث عن السبئيين منذ القرن الثامن قبل التاريخ الميلادي، في مصادر الدولة الأشورية، تشير بوضوح إلى أن مملكة سبأ في اليمن كانت لها قوافل تجارية منتظمة إلى بلدان الهلال الخصيب. أقدمها نص يصف كيف قام حاكم مدينة ماري بشمال العراق بالقبض على قافلة من الجمال. ويذكر النص أن مائة شخص من تيماء وسبأ كانوا مع القافلة. أوقفها الحاكم الأشوري وهي في طريق عودتها من بلاد الرافدين، بسبب عدم دفع ضرائب المرور. كانت القافلة تتكون من مائتي جمل عائدة بالبضائع التي قايضتها، حيث أخذت مقابل البخور الذي جاءت به، الصوف والحديد والمرمر والأقمشة المصبوغة بالأزرق والأرجواني. وتتحدث النصوص الأشورية عن الضرائب التي حصل عليها سارجون الثاني وسناخريب من التجار السبئيين خلال القرن السابع قبل الميلاد، على شكل عطور وذهب وأحجار كريمة. كما ذكرت النصوص الأشورية أسماء الحكام السبئيين: «يثأمارا السبئي» و«كريبئيل ملك سبأ».



معظم ما نعرفه عن مراكز تجارة البخور في جنوب الجزيرة العربية، يأتي عن طريق الكتابات والروايات الكلاسيكية القديمة. وهناك كتيب كتب في الإسكندرية في منتصف القرن الأول للميلاد، يذكر أن كل البخور الذي يزرع في جنوب الجزيرة العربية تجلبه قوافل الجمال والقوارب إلى قانى لتخزينه هناك. وقد كشفت أعمال بعثة أثرية روسية مؤخرا على شاطئ ميناء قانى القديمة بخليج عدن، عن كميات كبيرة من البخور داخل أكياس من ألياف النخيل تحت الرمال. بعد تجميعه في قانى، كان البخور ينقل إلى شبوا ثم تمنع ومارب قبل أن يتجه شمالا إلى نجران ومنها إلى البتراء وغزة. وكانت المواد الرئيسية لهذه التجارة تعتمد على البخور الذي يوجد بين حضرموت وعسير وصمغ المر الذي يخرج من شجرة اللبان. كتب الرحالة اليونان عن مصدر البخور والصمغ الذي يخرج من شجرة المر، وقالوا إنها تأتى من «بلاد العرب المباركة» (Arabia Eudaimon). وتحدث هيرودوت الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد قائلا: «الشجيرات التى تنتج البخور، تحرسها ثعابين ذات أجنحة لونها أرقط وهناك عدد كبير منها حول كل شجيرة». أما الرومان فقد أطلقوا على بلاد العرب اسم «بلاد العرب السعيدة» (Arabia Felix). وعندما فشلت حملتهم سنة ٢٥ قبل الميلاد في الاستيلاء عليها، أقاموا خطوط التجارة عبر البحر الأحمر منذ القرن الميلادى الأول، مما حرم الممالك العربية من عائد نقلها بقوافلهم.

بينما بدأت أعمال البعثات الأثرية عملها في مصر وبلدان الهلال الخصيب منذ منتصف القرن التاسع عشر، لم تبدأ عمليات الكشف الأثرى في الجنوب العربى إلا بعد الحرب العالمية الأولى. وأول بعثة علمية قامت في العصور الحديثة بالتعرف على تاريخ الجزيرة العربية، جاءت من الدانمرك إلى اليمن سنة ١٧٦٢. إلا ان أربعة من أعضائها الخمسة لاقوا حتفهم هناك. وفي القرن التاسع عشر قام بعض السائحين الغربيين بنسخ صور لبعض الكتابات القديمة التى وجدوها منقوشة فوق الصخور، وقام الباحثون بدراستها ومحاولة التعرف على طبيعتها. كان أول من عمل هناك في ثلاثينيات القرن الماضي عند معبد «حقة» شمال صنعاء، قام به اثنان من الألمان هما المستكشف كارل راثيتز والجغرافي فون ريسمان. وكانت البريطانية جيرترود كاتون طومسون أول من عمل في حضرموت، حيث عثرت على معبد لسابين ومقبرتين في الحديدة قبل عامين من نشوب الحرب العالمية الثانية. وبعد نهاية الحرب جاءت بعثة أمريكية بقيادة وندل فيليب، عملت في تمنع عاصمة مملكة قتبان القديمة وكشفت عن مقابر المدينة في منطقتى ابن عقيل وابن حميد.

قـــوم عـــاد

يتحدث الرواة المسلمون عن أقوام سابقة على ممالك سبأ وحمير، بادت واختفى أثرها بعد ذلك من بين هذه الأقوام عاد وثمود التى ورد ذكرها في القرآن. وكان موطن عاد في حضر موت شرقى اليمن جنوب المملكة السعودية بجانب منطقة أحقاف الرمل. ولا يعرف أحد أصل قوم عاد كانت لهم مدينة ورد اسمها في سورة الفجر: «ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التى لم يخلق مثلها في البلاد». وتقول الروايات إن الملك شداد هو الذي قام ببناء مدينة إرم فوق الأعمدة. وتذهب الرواية كما وردت في تاريخ الطبرى إلى أن قوم عاد كانوا أشداء ضخام القامة، يعبدون الأصنام ويرتكبون الفواحش. وعندما أرسل إليهم ربهم نبياً اسمه هود يدعوهم إلى التوبة وترك عبادة الأصنام، سخروا منه ولم يستجيبوا له. ثم بعثوا بوفد من رجالهم إلى مكة ليقوم بالصلاة طلبا للمطر الذي تأخر في بلادهم، فاستقبلهم أميرها معاوية بن بكر بالترحاب وأقام على شرفهم حفلة غنائية كبيرة. وما كاد رئيس وفد عاد أن ينتهى من أدائه لصلاة الاستسقاء، حتى ظهرت ثلاث سحابات في السماء تختلف في ألوانها، ما بين البيضاء والحمراء والسوداء. وسمع صوتا في السماء ينادى طالبا منه أن يختار أى من السحابات الثلاث لبلاده، فاختار السوداء متوقعا أن تكون مليئة بالمطر. فسارت السحابة السوداء من موقعها عند مكة إلى أن وصلت فوق أرض عاد، ثم خرج منها ريح صرصر عاتية قضت على كل أهل البلاد عدا قليل منهم من أتباع هود. وبعد مرور الزمن ظهر قوم جدد في عاد، من سلالة القلة التى تبعت نبيهم هود وتركت عبادة الأصنام. وتقول الرواية إن أهل عاد الجدد كانوا يقيمون بمنطقة سبأ من بلاد اليمن، وهم الذين تولوا بناء سد مأرب الشهير في أيام ملكهم لقمان بن عاد. ويقال إن النبوءة أخبرت الملك لقمان هذا بأن حياته سوف تمتد مدة أعمار سبعة نسور، لهذا أطلق عليه لقب «ذو النسور». ❊



كاريير.. أول تكييف
تكلمه بالتليفون
Platinium
N2
الآن مع أجهزة تكييف كاريير سبليت الجديدة يمكنك:
• التحكم فى التشغيل والإغلاق من خارج المنزل بالتليفون من خلال تلى كاريير.
• الاتصال عن طريق التليفون العادى أو المحمول.
• التحكم فى أكثر من جهاز تكييف كاريير فى وقت واحد.
كاريير... أول تكييف فى مصر
تشغله وتقفله من بره البيت بالتليفون
كاريير .. خبرة بتطور
Miraco
Carrier
لاشئ يفوق الخبرة ... لاشئ يفوق كاريير
لخدمة العملاء والمبيعات فى القاهرة الكبرى اتصل ب: ١٩١١١ بسعر المكالمة العادية
ولدى كل الموزعين المعتمدين..
Carrier
One hundred years of innovation.
شركة مصر لصناعة التبريد والتكييف ش.م.م



صلاح جاهين

الاكتواء بنيران الموهبة

سمير اسكندر

كل ما نبع من صلاح جاهين وما أحاط به كان يؤهله للثراء الفنى والإنسانى.. بل كان يرشحه أيضاً لمعاناة تصنعها نيران الموهبة.

حظى بحب جماهيرى جارف فلم تشهد مصر إلا فيما ندر هذه الموهبة المتسعة الأرجاء شعراً ورسماً وغناءً وتأليفاً وتمثيلاً.

ولد صلاح جاهين سنة ١٩٣٠ فى بيت كان بطله وفارسه واحداً من تلاميذ مصطفى كامل وزملائه فى الثورة الوطنية.. ذلك هو أحمد حلمى رئيس تحرير جريدة اللواء وهو جد صلاح جاهين.. عاش صلاح طفولته وتربت فيه الحماسة الشعبية فى هذا الجو.. كان أيضاً ابناً لرجل يشتغل بالقضاء مما أسهم فى إمداده بثقافة حية تتصل بقيمة العدل.

قبل الثورة كان صلاح جاهين أحد العناصر النشطة فى حركة التحرر الوطنى. لم يكن عضواً فى حلقة ضيقة أو تنظيم حزبى لكنه تغذى من التيار اليسارى بشكل عام.

إذا كان بيرم التونسى هو بمثابة علم الشعر الشعبى لثورة ١٩١٩، فقد كان صلاح جاهين علامة فارقة فى تطور هذا الشعر معبراً عن ثورة ١٩٥٢.

يعد صلاح جاهين واحداً من رواد اليسار.. كان كبيراً له نفسية طفل وإبداع روح حافظت على نقائها الجياش. تجلى ذلك فى فنه المترامى الأطراف.. بدا كمن يلهو بالشرشاة والكلمة النابعة من قاموس العادى من الناس. لم يعرف عنه أنه دخل فى خصومة شرسة أو ثعبانية.. وكان جارف الحب للزعيم عبدالناصر. مؤمناً أصيلاً بنظامه الفردى.

يعد ديوان (كلمة سلام ١٩٥٥) أول مجموعة شعرية لصلاح جاهين تعبر عن القضايا الوطنية من المنطلق الماركسى الكلاسيكى فى الأربعينيات والخمسينيات. كانت قصائده المعروفة فى فترة الثورة تتغنى بالعمال والفلاحين والمناضلين والثورات العالمية.

ألف (موال عشان القنال ١٩٥٦).. ثم (القمر والطين ١٩٦١).. ثم (قصاقيص ورق ١٩٦٦) وأخيراً (أنغام سبتمبرية ١٩٨٤).

أثرت نكسة ١٩٦٧ على صلاح جاهين وتغير إنتاجه.. بعدها لجأ إلى معينه الفنى يبحث عن ألوان أخرى تبحث عن الشفاء من الواقع المأساوى لمصر.

كانت هذه المرحلة محل نقد قاس من اليسار. فى حوار أجراه قبل وفاته ١٩٨٦ مع د. عمرو عبدالسميع أجاب على كثير من التساؤلات عن موقفه بين اليمين المتطرف واليسار..

سأله: كيف يهاب الشاعر الرقيب السياسى؟

قال: ينطبق على تعبير خادم سيدين. لى سيد اسمه الجمهور وسيد آخر من أعمل عنده مثل الجريدة.. ثم اكتشفت أن لى سيداً آخر اسمه (المتطرفون) هؤلاء لا يعتقون. النوع الأول منهم مثلاً يثير ضجة كبرى حول مقطع من إحدى أغنياتى «تفوت على الصحرا تخضر» يحرفها ويقول إننى حاولت فيها إلصاق صفة الإتيان بالمعجزات على جمال عبدالناصر قائلاً: تفوت على الصحرا تخضر». النوع الثانى من المتطرفين الذين أحبهم «اليسار» هؤلاء يتربصون بى باستمرار لكى يصرخ أحدهم أنه قد ضبطنى سياسياً أو فنياً متلبساً فى حالة ردة.

ويعقب صلاح جاهين فى النهاية: «لقد كنت مضرباً فى السبعينيات وحمدت الله أننى لم أكتب شيئاً حتى لا أدخل طائفة المطبلين».

أما فى الستينيات فقد سار جاهين لا يلوى على شىء فى امتداح الثورة وزعيمها «قول ما بدا لك احنا رجالك».. «ريسنا ملاح ومعدينا عامل وفلاح من أهالينا ومنا فينا الموج والمركب والزفة والريس والزينة».. «سيبنا فى إيدك مصر أمانة».

يبرر صلاح جاهين هذا الحماس قائلاً: «لم يكن تطبيلاً لعبدالناصر بل دعماً بكل ما أملك لتحالف عبدالناصر بوصفه يسارياً. إن أغانى الستينيات التى تحدثت عن منجزات وأهداف الاشتراكية لم تكن توحداً مع الفرد بقدر ما كانت توحداً مع المبدأ والنظام».

غير أنه فى فترة الستينيات ومنذ قيام الثورة أصبح فن الكاريكاتير السياسى باهتاً بسبب المناخ الرقابى الشائع. اضطر صلاح جاهين إلى تعويض الجاذبية السياسية بالتركيز على المشكلات الاجتماعية. بذل جاهين جهداً كبيراً حتى يجعل رسمه طريفاً رغم البعد النسبى عن السياسة. قدم فى «صباح الخير» شخصيات كاريكاتيرية حية مثل قيس وليلى، ونادى العراة، والعيادة النفسية، وضحكات مكتبية.

حسابات تتناقض

بدأت حرية النقد الاجتماعى التى أتاحتها حكومة الثورة تصطدم مع التيار الدينى حثيثاً ثم بشكل حاد فى مراحل الثورة الأولى والمتوسطة لم يكن التطرف الدينى مسموحاً له بالتعبير. كان مرتبطاً فى ذهن حكومة الثورة بحركة الإخوان المسلمين التى كان ينظر إليها باعتبارها عامل تهديد للنظام. خلال هذا المناخ المتحرر اجتماعياً أطلق صلاح جاهين قلمه وريشته معوضاً غيبة الحرية السياسية.

غير أن هذه الحرية الاجتماعية التى أتاحتها الحكومة للفن ما لبثت أن اصطدمت مع التيار الدينى النامى. تعرض صلاح جاهين لغضبة هذا التيار حين هاجم الشيخ الغزالى فى الستينيات فى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية بالكاريكاتير.. أدى هذا إلى خروج مظاهرة من الأزهر كادت أن تؤذيه.

اتسع الخلاف بعد نكسة ١٩٦٧ وتنامى هذا التيار فى عهد أنور السادات حيث كانت لصلاح جاهين مواقف ضد الحجاب والنقاب وضد المجازر التى حدثت فى إيران.

أما مع اليسار فقد بدأ الخلاف بعد ١٩٦٧.. تقول رضوى عاشور أن هزيمة ١٩٦٧ قد ألقت بصلاح جاهين فى هاوية من الحزن لا قرار لها. يحلل بكر الشرقاوى متسائلاً أن هناك من لا يرضى عن صلاح جاهين ولا يذكر إلا سنواته الأخيرة التى باعدت بينه وبين منهجه. لقد رأوا فيه مهادناً حائراً بعيداً بعض الشىء عن المجالات الملتهبة للنضال الوطنى.

بينما يدافع سعد كامل عن يسارية صلاح جاهين قائلاً: «أولئك الذين

ينظرون إلى السياسة كعملية حسابية بسيطة عليهم أن يعلموا أن الفنان مرهف الحس رقيق الشعور لابد أن يمضى وقتاً ليعيد حساباته بدرجة أبطأ مما يفعل السياسيون».

ظل صلاح جاهين على تمزقه ما بين حب عبدالناصر ويأسه من النظام ككل، كتب «أنغام سبتمبرية» تحت وطأة الإحساسين المتناقضين. مع هذا فقد ظل صوت الشاعر يقاوم الاستسلام مرة بمحاولة بعث الفرحة والأمل في الجسد الوطني الجريح ومرة بالصدق الفني والوطني المبهر كما في «عودة الابن الضال».

في حين وجد الكتاب إنقاذهم في كتابة المقالات التحليلية والتبريرية لنكسة ١٩٦٧، فلم يستطع صلاح جاهين الفنان أن يمسك بطوق نجاة من هذا النوع تعتمد حرفته على الصدق والشفافية والإحساس التلقائي، لذا حاول تجاوز الهزيمة بمحاولة إشاعة الفرحة والأمل عبر وسائل فنية مختلفة لم ترق للبعض الذين افتقدوا فيه المناضل الثائر.

قال صلاح جاهين في أحد حواراته الأخيرة مع عبلة الرويني: «لقد ظلوا ينومونني سياسياً وفكرياً وأخيراً أصبحوا يلومونني شعرياً.. ثم استطرد بعناد طفولي: سأفعل عكس الشيء.. سأفعل عكس ما يريدونه».

دافع البعض هل نلوم جاهين إذ تحول من «والله زمان يا سلاحي» إلى فوازير رمضان.. من «حانحارب» إلى «خللي بالك من زوزو»؟ لقد ألقى صلاح سلاحه مبكراً ليتفرغ لفن إفراح الجماهير بدلاً من تنوير الجماهير.

كان صلاح جاهين يضحك ضحكته الطفولية ويقول: إن معنى كلمة نكسة أنه يجب أن ننكس رؤوسنا خجلاً وعاراً. هكذا حكى عنه مصطفى أمين في أحد أحاديثه لجريدة «الأهالي» في إصدارها الأول حيث قال: «إنه شعر أنه شارك في كذبة وأن له نصيباً من الذنب في هذا».. غير أن عمق إيمانه بالفردية جعل نجاته النفسية صعبة بعد أن هزم عبدالناصر الذى علّق عليه الأمل كله.

لغة صلاح جاهين

اختار صلاح جاهين اللغة العامية. حقق بها المعادلة الصعبة إذ جعل شعره جيداً وجماهيرياً في آن واحد. خلع عن الأغنية أناقتها المزيفة جعل منها ثوباً جميلاً فضفاضاً يرتديه كل الناس.

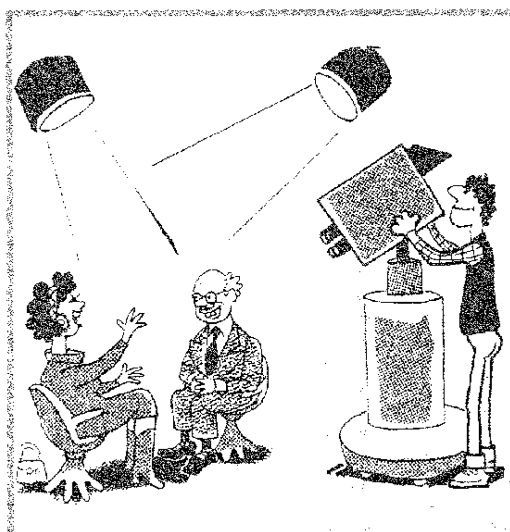
يقول عنه الأديب الكبير يحيى حقي: كان صلاح يكتب بالعامية ولكنه كان واسع الاطلاع وصلته بالشعر العربي موجودة بعمق. ولما كانت اللغة العامية دائمة التطور إلا أن صلاح قفز فوق فروق اللغة العامية ونقلها من جيل إلى جيل واستصفى لها روحها الخالصة.

وقد سمح صلاح لنفسه أن يحدثنا من خلال فنه عن صفاته ومخاوفه وأوهامه والنكتة التي يحبها. يقول يحيى حقي (وهو من عشاق الفصحى): «لم يهدد أحد اللغة الفصحى كما هددها صلاح. حتى بيرم التونسي لم يشكل خطراً على الفصحى لأنه اقتصر على المحاكاة والوصف، أما صلاح فقد رفع العامية بعد أن طعمها بالفصحى وثقافة المثقفين وهذا خطر عظيم».

امتلك صلاح جاهين الحاسة التعبيرية العميقة إنه مثل الشاعر الشعبي القديم ينظر إلى موضوعاته نظرة العاشق إلى حبيبته. تجده يتحدث عن أسوان عند بناء السد كأنها فتاة سمراء بضة:

أسوان بنت بنوت　　المجد خاطبها
ليا معاد متبوت　　توفى حبايبها
أسوان نشوانة　　وقلبهابيدق
بزنود عرقانة　　بين الصخور تنشق

بعد نكسة ١٩٦٧ طرح صلاح جاهين أسئلة فلسفية دامغة تجلت في رباعيات كثيرة.. كما خاض في موضوعات حسية لكنه جعلها راقية لا تجرح بل تسمو بالأحاسيس. إن رباعيات جاهين وليدة الخلوة والاستعبار والحزن الرقيق..



والنبي يا دكتور لا انت قايل.. نسبة الأمية دلوقت قد إيه؟



مش شايفة حاجة أتغيرت في الدنيا خالص.. الموضة بقالها ثلاث سنين زى ما هى!

تحدث فيهما عن تجاربه ولحظات حياته. انه كما يقول يحيى حقى يختلف عن المؤلفين الذين يجيئون لنا بالنتيجة النهائية على بلاطة.. وهذا الأسلوب المترفع من الشعراء أدى إلى ظاهرة خلو ادبنا من وصف ازمات الضمير.

ما أكثر ما جال بنا صلاح جاهين فى رحلات ابحاره فى ذاته:

«مرغم عليك يا صبح مغصوب يا ليل
لا دخلتها برجلى ولا كانلى ميل
شايلينى شيل دخلت أنا فى الحياة
وبكرة ح اخرج منها شايلينى شيل»..
عجبى.

إن أسلوب صلاح هو صلاح جاهين نفسه..

«فتحت شباكى لشمس الصباح
ما دخلشى منه غير عويل الرياح
وفتحت قلبى عشان أبوح بالألم
ما خرجشى منه غير محبة وسماح»..
عجبى.

صلاح جاهين الإنسان

لا أزعم أنى كنت على علاقة وثيقة بالفنان صلاح جاهين لكنى عرفته شخصيا بشكل طبيعى فى موقعين كنت أتمرن فيهما على الصحافة.. الأهرام ثم صباح الخير.

فى صفحة الرأى فى مبنى الأهرام القديم كنا نتحلق حوله ونشاهده وهو يرسم بالريشة وكأنما يلعب.. وأحيانا يغنى بصوت سوبرانو مرح.. وكثيرا ما كنا نحادثه الحديث أو نثرثر بجانبه دون أن يضيق بنا.. من وقت لآخر قد يخرج بتعليق ودود: ما هذا الكلام الجميل.. أنتم أولاد شطار.

الكاريكاتير كما يقول عنه صلاح جاهين هو مصدر رزقه الأساسى وعمله اليومى. كانت رسومه ككل أشعاره تأملات تتسم بالعمق والنفاذ والملاحظة فهذه تأملات كاريكاتيرية فى المسألة الفلانية أو العلانية.

يقول د. لويس عوض أن صلاح جاهين استخدم الكاريكاتير فى الشعر السياسى وفى الشعر المأساوى والتصوير. كذلك استخدمه فى الهجاء الاجتماعى والأدبى.

كان صلاح جاهين كما رأيته بسيطا فى تعبيراته وفى ملبسه وفى الغرفة التى يمكث بها. وقد كان فى هذه المرحلة من



رح نعرف منين إذا كانت القاهرة اتجملت والا ما اتجملتش.. هو احنا شايفين حاجة؟

الستينيات فى حالة حب جارف للفتاة الجميلة منى قطان التى تزوج بها.

عرفت صلاح جاهين كذلك فى مرحلة صباح الخير حيث كنت أتدرب على الكتابة. أذكر واقعة طريفة حين عزمت على كتابة موضوع تحليلى كامل بينما كان رأى الأستاذ لويس جريس وقتها أننى يجب أن أجعله على شكل حوارات أو ريبورتاج. أصررت على وجهة نظرى حيث كنت واثقة من معرفتى بالموضوع. بعد نقاش معهما قال صلاح جاهين ضاحكا للويس جريس: دعها تفعل ما تشاء يا لويس لقد وقعنا فى كاتبة ديكتاتورة! وبالفعل كتبت موضوعا استغرق صفحات طوالا بالأسلوب الذى أردته. هكذا كان صلاح جاهين مشجعا ودودا ومتعاطفا مع الشباب.

أراد صلاح جاهين عندما استدعاه أحمد بهاء الدين لرئاسة تحرير صباح الخير وقتها.. أراد أن يجعلها مجلة خالصة للكاريكاتير. عبر عن هذا فى أول افتتاحية له فى ٢٣ يونيو ١٩٦٦.. قال إن صباح الخير ستنذر نفسها كلية للضحك والتنكيت والتشويح والتشليت مثل مجلة بانش فى إنجلترا ومجلة كروكوديل فى روسيا وماد فى أمريكا.

وقد صور نفسه عند دخوله لرئاسة التحرير مثل قطة تتسلل.. ورسم القطة على شكله تقف على باب صباح الخير الكبير، وتحت الرسم رباعية:

يا باب أيا مقفول   إمتى الدخول
صبرى ياما   واللى يصبر ينول
دقيت سنين   والرد يرجع لى مين
لو كنت عارف مين   أنا كنت اقول
عجبى

غير أن تجربة صلاح جاهين فى تحويل صباح الخير إلى الكاريكاتير البحت قد فشلت كما يعترف هو وأضيفت إلى نهر تجاربه الفنية والإنسانية.. فهو القائل:

أنا اللى بالأمر المحال اغتوى
شفت القمر نطيت لفوق فى الهوا
طلته ما طلتوش إيه أنا يهمنى
وليه مادام بالنشوى قلبى ارتوى

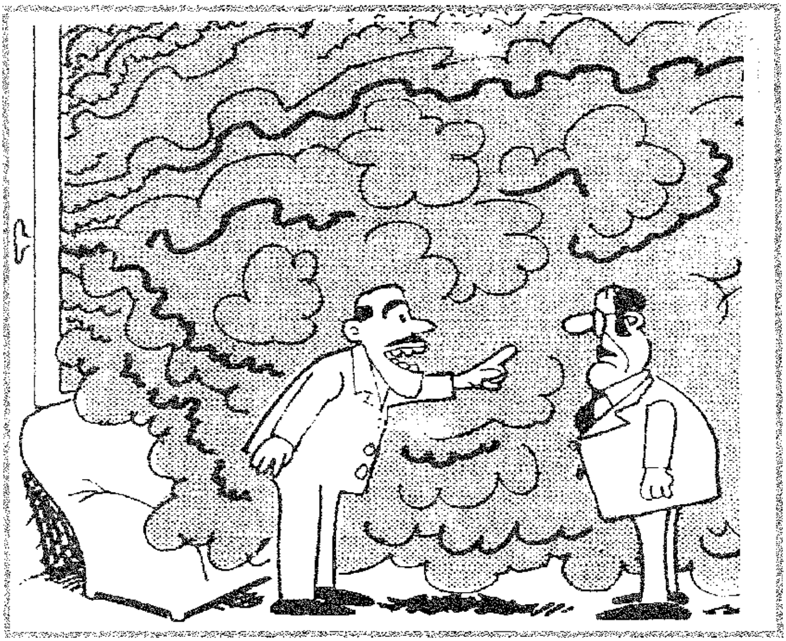
رأيت صلاح جاهين مرات فى بيته مع زوجته منى وحماته الصحفية جاكلين خورى.. كان يطل علينا من وقت لآخر ليرحب بنا ويحدثنا ثم يعود إلى غرفة مكتبه البسيطة. كان صلاح يتسم بمودة ناتجة عن ثراء إنسانى شديد.. دائما

وفى قصيدة «صديق عمرى» يتحدث عن عبد الناصر:

«علمنى مشية الرجال / سلمنى راية النضال /

ولحـــد هـــذا اليـــوم بيلهمنى /

وخياله كل ما أقع يقومنى».



سيادة المحافظ موجود فى الأوضة دى.. بس أنت عارف الدخان إللى مالى البلد

هو أكبر مما يصل إليه من نجاح أو شهرة.

كتب صلاح جاهين فى مقدمة لديوان (لم ينشر) من شعر جاكلين خورى والذى نشرته الكاتبة صافى ناز كاظم فى المصور مؤخراً هذا الكلام الرقيق:

«الشعر صعب طويل سلمه إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه هوت به إلى الحضيض قدمه.. غير صحيح أنا كنت أكثر شاعرية عندما كنت أقل علماً بهذا السلم الطويل الصعب، فالشعر يحتاج منا إلى البراءة والعفوية. إنما أنا الآن أقل براءة وأقل عفوية وأقل إيماناً مع الأسف الشديد».

مع هذا فقد ظل صلاح جاهين عفوياً وبسيطاً فى كلماته وأسلوبه. كتب موسى صبرى بعد وفاة جاهين أنه عندما قرر على أمين أن يجدد شباب صحف أخبار اليوم كان صلاح جاهين فى مقدمة الأسماء التى قرر جذبها إلى أخبار اليوم. عرض عليه مرتباً مغرياً تجاوز المائتى جنيه، قبل صلاح جاهين وأعد له مكتباً خاصاً لكنه شعر بالملل وقرر الاستقالة والعودة إلى روزاليوسف بمرتب أقل.

لماذا يا صلاح أنت هنا فى صحف توزع أرقاماً خيالية مرتبك ضخم وحولك ألمع أصحاب الأقلام؟

أجاب بكل الصدق والبساطة: لقد شعرت أننى غريب فى أخبار اليوم.. أنا لم أعتد على هذا الجو المنشى لا أطيق حياة القصور، أريد أن أكون فى مكتب مع عدد من الزملاء نأكل ساندوتشات الفول والطعمية ونتخاطف قرون الفلفل.. أريد أن أصيح بأعلى صوتى لجرسون البوفيه هات واحد شاى كشرى وصلحه! منظر الجرسون بملابسه البالية يريحنى ويكفينى ابتسامته من القلب.

الحق أن ابتسامة صلاح جاهين لمن رآها وتأملها تعبر عن سماحة وحب ووداعة نادرة.. كتب ابنه بهاء جاهين حواراً مع «يحيى حقى عاشق صلاح جاهين» قال يحيى حقى: كانت عند صلاح جاهين القدرة الشديدة على الإشعاع.. تشعر أنك أمام إنسان لديه قوة روحية. كانت هذه القوة الروحية الفنية تشع من عينيه.. أنا لم أر فى حياتى نظرة بهذه الوداعة.. كان يشع وداعة وطيبة يقول لك وجهه أنه رجل مسالم وأنه يكره الشر والظلم والدمامة.

يسجل يحيى حقى ملحوظة مهمة فى تحليل أعمال صلاح جاهين الشاسعة، فهو يؤكد أن صلاح جاهين فى كل تاريخه وإبداعاته لم يمس إنساناً بكلمة جارحة أو يستهزئ به، فهناك فرق بين السخرية والدعابة.. مع صلاح لا تجد السخرية، بل الدعابة مع أن نكاتنا للأسف مليئة بالسخرية.. كان صلاح كأنما يعيش فى عالم آخر كونه لنفسه وليس له مع عالمنا أى التحام، بهذه الوداعة التى شملت مواهبة العظيمة التقى صلاح جاهين بالتنين: «الاكتئاب».

صــــلاح والتنين

للموهبة الطاغية أثرها الذى يلتهم الكيان النفسى والجسدى.. وكان اتساع موهبة صلاح جاهين شعرا ورسما وتمثيلاً وكتابة ذا أثر كبير على نفسه الحساسة الشفافة.. رغبته الدائمة فى معانقة الجمال واحتراقه من نفسه ليعطيه جعله غير مزود بسلاح العدوان والإسفاف.. قال فى حوار أخير له مع مصطفى عبد الغنى إن المشكلة فى مصر باتت مع «الأميين» ولم تعد كما كانت بين أنصار الفصحى أو العامية!

نكسة ١٩٦٧ حطمت الفنان المتوحد مع رمز الثورة وعلمها جمال عبد الناصر. وقبل هذا كان لديه ما يخفيه وما يخشاه. كان صلاح يسمع عن أصدقائه ونظرائه من الأدباء والمثقفين وكيف يعذبون فى السجون كان يعرف أنه لا قبل له باحتمال كل هذه الآلام.

يوم قلت آه سمعونى قالوا فسد
ده كان جدع قلبه حديد واتحسد
رديت على اللايمين أنا وقلت آه
لو تعرفوا معنى زئير الأسد

لجأ صلاح جاهين إلى الرباعيات التى توخى أن يترك فيها فوازيره الكونية وفوازيره الاجتماعية بلا حل عملاً بالمثل السائر (العاقل من اتعظ بغيره) أما بعد النكسة فقد عدل صلاح جاهين عن هذا إلى حد كبير

كتاب الزاوية

مذكرات أحمد شفيق باشا

المتنزهات العامة

كانت جهة شبرا بمزارعها النضرة، ومناظرها الجميلة، هى المكان المطروق للتنزه والرياضة عادة. فكان يقصد إليها المرتاضون مشاة وركبانًا؛ وكان المار يرى الدواب المطهمة تغدو وتروح. وأحيانًا واقفة فى انتظار أصحابها ممن حضروا إليها للرياضة، مكبلة فى اللجم، صفوفًا على جوانب المزارع. كذلك كانت ترى العربات الفخمة تجرها الجياد المجرية المطهمة تحمل أفراد العائلة الخديوية ومن يدانيها من كبار السراة والأعيان؛ يتقدم هذه العربات قمشجية «سياس» لإفساح الطريق وإتمامًا لمظاهر الأبهة. ويظلل شارع شبرا وقتئذ صفوف من شجر الجميز العتيق المزروع من عهد محمد على باشا.

وكانت مقر كثير من العائلات الكبرى وبها غير قصر. من ذلك: قصر زينب خانم أفندى بنت محمد على باشا؛ وقصر اينجو خانم أفندى أرملة سعيد باشا والى مصر وقصر شيكولانى البديع الزخرفة، الحافل بالتماثيل النادرة. وغير ذلك من قصور كانت تحيط بها حدائق غناء شاسعة.

وكانت شبرا مشهورة كذلك بقهوة سى خليل، التى يقصدها ذوو «الكيف» ومنهم بعض السراة فيجدون فيها ما يشاءون. وقهوة خليل هذه هى التى قال فيها أحد الظرفاء:

كل شىء فى مصر يوجد … إلا قهــوة سـى خــليل

الكيـــوف فيهـا نضيفــه … والحشيش مالوش مثيل

وكان هنالك طريق الجيزة؛ ولكن كان يقصدها القليلون لبعدها عن المدينة. وكانت خالية من الأبنية تقريبًا. وكان إسماعيل قد عنى بهذه الطريق قبل فتح قناة السويس ليسهل للمدعوين زيارة الأهرام.



ربنا يابنى مدينا سما حلوة زرقا صافية زى البنور.. ليه ما تلونهاش!

واهتم بفوازير نيللى وسعاد حسنى وشريهان عبر التليفزيون حتى أن يتحمل الناس مشقة الحياة فى هذه الفترة الموحشة.

غنى للأم:

صباح الخير يا مولاتى

يا ماما.. يا أمة.. يا أماتى

أبوس الإيد وقلبى سعيد

يا أول حب فى حياتى

ما تسالش الابتسامة

ومش ح أنسى يا ماما

الشخطة اللى بتعلم

وما تهينش الكرامة

.. وسط هذا كله وبسبب ما عانى داهم صلاح جاهين الاكتئاب.

كتب عنه بحب جارف أحمد بهاء الدين قال سنة ١٩٨٦:

عرف صلاح جاهين حالات الاكتئاب لأنه من الطينة النادرة الشفافة.. هؤلاء لا تكسر قلوبهم التحديات الكبيرة فهم أبطالها ولكن قد يكسر قلبه بؤس طفل صغير، رسم كاريكاتيراً وحيداً أشار فيه إلى ديوان ابنه الوحيد أخذوه ولاموه وقرعوه على هذه الخطيئة وانكسر قلبه الكسرة التى لا تلتئم.. هاجمه التنين المخيف ذو الأذرع المتعددة.. القسوة.. الغلظة.. عدم الحساسية.. عدم العرفان.. عدم إدراك خبايا النفس الإنسانية لنفس أسعدت الجميع».

مات صلاح جاهين متأثراً بالاكتئاب فى أبريل سنة ١٩٨٦ نعاه كل كتاب مصر وفنانيها حباً ملتاعاً.. أما قصيدة ابنه الكاتب الشاعر بهاء جاهين فقد أدمى بها القلوب من فرط الحب والصدق والجمال.

عندما نقل جاهين إلى غرفة الإنعاش أراد «بهاء» إيقاظ والده من غفوته بشكل فنى.. جعل المستشفى تذيع بميكروفون عال (الليلة الكبيرة).. لكن صلاح لم يستيقظ.. وقف بجانبه يحدثه بصوت عال عن حبه واحتياجه لكنه لم يبعث.

فارق الحياة صلاح جاهين وغنى له بهاء قصيدة «الحضن الكبير».. جاء فيها:

جاية عروس الشعر م البغالة

تسأل على اللى ملا لها كاس وسقاها

كانت يتيمة فقيرة واتبناها

علمها تكسب اسمها بيمناها
عادت عروس الشعر عانس قاصر
من يوم ما رحت لحضن عبد الناصر
وسبتنا في المستحيل الحاصل
شحتت عروس الشعر حق عشاها

جاهين يقول كلمته

في أنغام سبتمبرية وفيلم «عودة الابن الضال» سنلتقي بالكلمة الأخيرة لصلاح جاهين.. لقد أدين صلاح على موافقته على كامب ديفيد وعدم معارضته لاتجاهاته المهادنة في فترة السادات.

كتب في مقدمة ديوانه الأخير «أنغام سبتمبرية» أنه اختار هذا الاسم «لأن عبد الناصر مات كمداً في سبتمبر». يقول في أول قصائد الديوان بعنوان «أمر الله»: «حتى الرسول مات وأمر الله لا بد يكون/ بس الفراق صعب وإحنا شعب قلبه حنون/ وحشتنا نظرة عيونك للبلد يا جمال/ والحزم والعزم فيها وحبها المكنون».

وفي قصيدة «صديق عمري» يتحدث عن عبد الناصر كأنه لم يمت في داخله «علمني مشية الرجال/ سلمني راية النضال/ ولحد هذا اليوم بيلهمني/ وخياله كل ما أقع يقومني».

وفي نفس الديوان قصيدة كبرى بعنوان «على اسم مصر» يستعرض تاريخها ويستشرف مستقبلها.

يعلي صلاح جاهين من شأن الزعماء وعلى رأسهم مصطفى كامل ومحمد فريد الذي يعتبره أحد صناع ثورة ١٩١٩ «مين اللي نظم فلول الشعب ده بحاله/ إزاي جميع البلد تنهض في نفس الآن/ القاهرة إسكندرية منفلوط أسوان/ وبعيد يا ولداه فريد مرمي وحيد شرقان/ على اسم مصر».

في أحد المقاطع من هذه القصيدة يشكي صلاح جاهين بمكنونه في بؤس رهيب بعيداً عن ظل الزعيم الفرد

«يا ميت ندامة على أمة بلا جماهير
ثورتها يعملها جيشها ومالها غيره نصير
والشعب بيرقص كأنه عجوز ومتصابي»

أما العمل الثاني الذي يعتبر أجرأ أعمال صلاح جاهين فهو فيلم «عودة الابن الضال». كتب رؤياه وحواره وأشعاره. يعد الفيلم علامة في السينما المصرية رغم التجاهل والصمت اللذين فرضا عليه. كذلك يعتبر هذا الفيلم وثيقة على صدق صلاح جاهين مع نفسه ومراجعة شجاعة لتأييده المطلق السابق لثورة يوليو. يلجأ الفيلم إلى رمزية صريحة لا تغيب معانيها يرمز إلى مصر من خلال أسرة متفاوتة الأعمار يسيطر عليها صاحب المصنع أو الطابونة. يمسكها بيد من حديد وهو ينتمي إلى أصول عسكرية.. الكل يكرهه ولكن لا أحد يجرؤ على معارضته. قام بهذا الدور شكري سرحان رامزاً للنظام العسكري. ثم نجد الجد الذي يقوم بدور متفرج هامشي يرمز إلى التاريخ وهو محمود المليجي ثم تقوم بدور الانتهازية التقليدية «هدى سلطان» الجدة التي تواءم بين كل الأوضاع.. ثم هناك الطلبة والعمال.. كلهم في انتظار عودة الابن: البطل الماركسي المسجون كي يعود من سجنه وينقذ الأسرة من الطغيان العسكري.

يعود البطل الدونكيشوتي تائباً ناسياً حتى حبيبته التي ظلت تنتظره سنوات (سهير المرشدي) يطالبه الجميع بالمساندة لكنهم يفاجئون به وقد تحالف مع صاحب المصنع العسكري.. ركب سيارته وحاول العيش بطريقة أكثر رغداً بعد أن رأى مصرع أفكاره النظرية على أرض الواقع.

بعد أن ييأس الجميع من عودة الابن الضال يشتد الصراع.. وفي لحظة غضب يائس يعصف صاحب المصنع بالجميع فيحرق المكان كله. لا يبقى سوى الطفلين (هشام سليم وماجدة الرومي) يمثلان الأمل. يهربهما الجد الذي ينتمي إلى النضال الوطني ضد الإنجليز.

يرسم نهاية الفيلم صورة مظلمة لنهاية الدكتاتورية التي عجزت جميع الأطراف عن مقاومتها وتقويمها. تركت في الساحة حتى أشعلت النار في الجميع. يخرج المستقبل هارباً من براثن الواقع المحطم.. تحتفظ ذاكرة المشاهد بمقاطع متفرقة من كلمات صلاح جاهين بصوت ماجدة الرومي «أدي اللي كان.. أدي القدر.. أدي المصير.. نودع الماضي وحلمه الجميل.. ونطلع الشمس من الضباب الغميق..»

كتاب الزاوية

مذكرات أحمد شفيق باشا

الفنون والملاهي

الخديو إسماعيل، هو أول من عني بالفنون، حتى تصبح مصر قطعة من أوروبا. وقد قال إنها أصبحت كذلك بعد الذي أقامه في القاهرة من المنشآت الحديثة؛ وبعد أن افتتح قناة السويس في عظمة وبهاء وبذخ. وكانت الأوبرا أول منشآته الفنية؛ وقد استدعيت بعض الفرق الأوروبية للتمثيل فيها؛ وأول رواية ظهرت على مسرحها هي «عائدة» التي ألفها ماربيت باشا ولحن أنغامها «فردي» الموسيقار الإيطالي الأشهر. أما تمثيل الروايات غير الغنائية فقد أنشأ له «الكوميدي فرانسيز» (المسرح الفرنسي الهزلي) وكان موقعه مكان دار البريد الحالية في شارع طاهر.

ثم بدأت تفد على مصر بعض الفرق السورية؛ فكان ذلك منشأ المسرح العربي الأهلي؛ وأولى هذه الفرق هي فرقة (سليم النقاش) وتلتها فرقة (يوسف خياط) التي مثلت في الأوبرا أمام إسماعيل. ولكن التمثيل في هذا الوقت لم يكن قائمًا على أصول فنية، لأن المشتغلين به احترفوه من تلقاء أنفسهم دون تعلم لقواعده.

ومما يذكر عن فرقة يوسف الخياط أنها لم تجد سيدات يقمن بالأدوار في الرواية فعهدت بذلك إلى غلمان لم يتقنوا أدوار النساء بطبيعة الحال. وكذلك فعل القباني - وهو في سن متقدمة - فإنه كان يقوم بدور المرأة في تمثيله؛ وذلك لما كان مفهومًا عن التمثيل من أنه تهريج لا يليق بامرأة أن تشترك فيه.

وكان إسماعيل، لعطفه على التلاميذ، يرسل تذكرة سنوية لتلاميذ الفرقة الأولى من المدارس العالية للتناوب في حضور الأوبرا.

تغير ... لم يتغير!

عاصم الدسوقي

مقدمة

في ٩ سبتمبر الحالي تمر الذكرى الحادية والخمسون لإصدار قانون الإصلاح الزراعي الذي كان أحد «المشروعات القومية» لثورة يوليو ١٩٥٢. وقد ترك القانون بصماته المؤثرة على المجتمع المصري بصفة عامة وعلى مجتمعه الريفي بشكل أخص.

عاصم الدسوقي يرصد التغيرات التي حدثت. بينما يلقي عز الدين كامل نظرة تاريخية على الإصلاح الزراعي في المجتمع المصري.

وجهات نظر

■■ يعتبر قانون الإصلاح الزراعي الذي أصدرته ثورة يولية في ٩ سبتمبر ١٩٥٢ بعد أقل من شهر ونصف من قيامها أخطر الإجراءات التي قلبت الأوضاع في الريف المصري وغيرت كثيرا من علاقاته الاجتماعية وجعلت للفلاحين قيمة اجتماعية وإنسانية لم يشعروا بها طوال قرون عديدة، وهم أولئك المستأجرون وعمال الزراعة وصغار الملاك الذين يعرفون بالفلاحين اصطلاحا وهم من ارتبطت حياتهم ومصيرهم بفلاحة الأرض وليس غيرهم من كبار الملاك الذين خلعت عليهم صفة الفلاح لمجرد أنهم يعيشون بالقرية. فهؤلاء الكبار كانوا يمثلون صفوة اجتماعية ليس فقط في القرية وإنما في المدينة حيث عالم السياسة الذي شاركوا فيه ودنيا التجارة والصناعة التي اقتحموا مجالاتها وما صاحب ذلك من سعي دءوب للوصول إلى مقاعد السلطة التشريعية لحماية المصالح، وإدارات السلطة التنفيذية للسهر على تطبيق التشريعات وصيانتها من العبث.

ولكن.. هل نجح قانون الإصلاح الزراعي والتشريعات ذات الصلة التي تلته في إحداث التغيير المستهدف في المجتمع الريفي؟ الاعتقاد الغالب أن تلك القوانين لم تنجح تماما في القضاء على التقاليد الاجتماعية القديمة في يوم وليلة، وهي تقاليد جعلت من الكبار قوة مهيمنة على مقدرات مجتمع الريف. ومن هنا فقد سيطر أغنياء الفلاحين على توجيه سياسات الجمعية الزراعية بالتنسيق مع المشرف الزراعي في القرية. ثم نجح هؤلاء في عام ١٩٦٩ في أن يرفعوا حد الملكية الصغيرة المؤهلة لعضوية الجمعية إلى عشرة فدادين بدلا من خمسة، فانتقلت أغلبية إدارة الجمعية إلى شرائح من الملاك أقرب إلى أغنياء الفلاحين منهم إلى صغارهم. وأصبح في قبضتهم الاتحاد العام للجمعيات الزراعية الذي تشكل في العام نفسه ليكون بمثابة السلطة العليا للجمعيات.

وعلى هذا لم يتمكن صغار الفلاحين من أن يكونوا مؤثرين في مجريات الشئون الزراعية من خلال مجلس إدارة الجمعية ذلك أن أغنياء الفلاحين سيطروا على جميع الوحدات الإنتاجية والإدارية في القرية، ليس فقط في صورتها القديمة التقليدية المتمثلة في وظيفة العمدة وشيخ البلد، بل في السيطرة أيضا على مجلس القرية وعلى الوحدات الأساسية للتنظيمات السياسية من الاتحاد القومي إلى الاتحاد الاشتراكي، إذ بلغت نسبتهم في تلك التنظيمات ٧٠٪. وقد تمكنوا من تحقيق هذه السيطرة عندما نجحوا في تمييع مصطلح «الفلاح» عند وضع ميثاق العمل الوطني في ١٩٦٢ حين تم تعريف الفلاح بأنه الذي يملك خمسة وعشرين فدانا فأقل مما جعل عضوية الهيئات التشريعية والسياسية تقتصر على هؤلاء الأغنياء، وتم إقصاء صغار الملاك الذين هم أصحاب المصلحة الحقيقية والذين قصدهم الإصلاح الزراعي، فبدا الأمر وكأن الذي يملك أكثر يعلم أكثر.

وقد استطاع هؤلاء الأغنياء أن يحولوا كل إجراءات الإصلاح الزراعي لمنفعتهم الخاصة بدلا من أن تكون لمنفعة صغار الفلاحين، فمثلا كانت شروط الاشتراك في مشروع الحكومة للتأمين على الماشية أن يمتلك الفلاح خمسة رءوس ماشية على الأقل ليكون من حقه الحصول على ٢٥٠ كيلوجراما من الكسب بأسعار مدعمة، وأن يكون مالكا لأكثر من خمسة عشر فدانا إذا أراد الحصول على التقاوي المنتقاة المدعمة. وكان هذا معناه أن الفلاح الصغير إذا أراد الحصول على تقاوي منتقاة فعليه أن يشتريها من المالك الأكبر حجما وبأسعار السوق السوداء، وكذا الحال إذا ما احتاج إلى كمية إضافية من الكسب علفا لماشيته. وهكذا تكرر بشكل آخر أسلوب التسليف الزراعي الذي كان قائما عند تأسيس بنك التسليف الزراعي عام ١٩٣١ حين لم تكن القروض قصيرة الأجل تقدم لصغار الحائزين لخدمة المحصول إلا بعد موافقة مالك الأرض أصلا، على حين كان البنك يقدم مثل هذه القروض لكبار الملاك وتجار الصادرات. ومن هنا كان صغار الملاك والمستأجرون يضطرون إلى الاقتراض من المرابين بفوائد عالية.

ولم تستطع الحكومة ضبط أجر عمال الزراعة عند ثمانية عشر قرشا كما حدده القانون بسبب قانون العرض والطلب فقد ظل خلال الخمسينيات في حدود ١١ قرشا يوميا أصبح ١٢ قرشا في ١٩٦١ ثم بلغ ١٨ قرشا في منتصف الستينيات. وربما يرجع هذا إلى استيعاب مشروع السد العالي وكذا مشروعات استصلاح الأراضي للعمالة الريفية ومن ثم قلة العمالة المعروضة عن الطلب.

كما لم تستطع لجان تشغيل عمال التراحيل (الأنفار) التي تشكلت في ١٩٦٢ إلغاء دور المقاولين نظرا لطبيعة علاقات التبعية التي نسجوها حول الأنفار كما يتضح لاحقا. الأمر الذي جعل جمال عبد الناصر يقول في خطابه (٢٦ مارس ١٩٦٤) إن «أمامنا مشكلة ثلاثة ملايين من العمال الزراعيين في الريف ليس هنالك ضمان للأجر المنتظم المستقر الذي يحمي يومهم، وليس هنالك قدر من التأمين الاجتماعي يحمي مستقبلهم ولا تصنيم حتى الآن إلا أقل الخدمات». وأكثر من هذا فإن لجان نقابات عمال الزراعة التي كونتها وزارة العمل (٤٢٠٠ لجنة نقابية) خضعت لمقاولي الأنفار ولم تضم إلا ١٥٠ ألف عامل زراعة من أصل ثلاثة ملايين. وقد نبهت حوادث كمشيش في ١٩٦٥ إلى سيطرة هؤلاء المقاولين والملاك الكبار على نقابات عمال الزراعة ومن ثم بدأ تطهيرها من سيطرتهم. وقد قدرت النقابة العامة لعمال الزراعة والتراحيل عدد اللجان التي جرى فيها التطهير بأربعمائة لجنة كان يقودها مقاولو الأنفار.

كما هيمن أغنياء الريف (أعلى شرائح الملاك) على العمل السياسي في القرية واجتهدوا كثيرا للحيلولة دون مشاركة الفلاحين في الإفادة من الثمرات الحقيقية المستهدفة للإصلاح الزراعي. وكان هؤلاء الأغنياء موضع نقد من الأعمال الروائية التي تناولت حياة صغار الفلاحين وأنفار التراحيل والأجرية مثل قصة يوسف إدريس «الحرام»، ورواية عبد الرحمن الشرقاوي «الأرض»، وروايتا يوسف القعيد «أخبار عزبة المنيسي» و«الحرب في بر مصر».

ورغم الجوانب السلبية التي رافقت تطبيق الإصلاح الزراعي في مصر بسبب قوة التقاليد وبسبب خربي الذمة من رجال الإدارة في قرى الريف لإبقاء الأوضاع على ما كانت عليه وكأن شيئا لم يكن على نحو ما رأينا، إلا أنه لا يمكن إنكار أن ثمة تحولات حدثت في المجتمع الريفي بفعل الإصلاح الزراعي الذي أقال الفلاحين من عثرتهم التاريخية في المقام الأول، وجعل لهم كيانا ملحوظا. غير أن كثيرا من الكتاب لم يلتفتوا كثيرا إلى هذه الظاهرة وانشغلوا بتقييم الإصلاح الزراعي في ضوء نظريات التحول الاجتماعي ونظريات الاستغلال الاقتصادي الأمثل، فذكر البعض أن تفتيت المساحات الكبيرة إلى مساحات صغيرة بتوزيعها على صغار الفلاحين بواقع خمسة فدادين فأقل أدى إلى عدم إمكانية استخدام الميكنة في الزراعة، وكأن جميع أصحاب هذه المساحات الكبيرة قبل ١٩٥٢ كانوا يستخدمون

فى خمسين عاما



الزراعة الآلية وهذا أمر غير صحيح، فكثير من كبار الملاك كانوا يؤجرون أراضيهم فى قطع صغيرة مختلفة المساحة لمستأجرين صغار.

ويمتد النقد إلى ملامح أخرى حين يقول البعض من باب التهوين إن الإصلاح اعترف بالعلاقات الإنتاجية السابقة فى الزراعة مع تعديل بعضها لصالح المستأجر، وأنه ليس إجراء اشتراكيا لأن توزيع أراض على صغار الفلاحين ليس هدفا تسعى إليه الاشتراكية بقدر ما تسعى لتحقيق التمليك الجماعى للمنتجين الزراعيين.

ومن الملاحظ أن نقد تجربة الإصلاح الزراعى فى مصر جاء من ثلاثة مصادر أساسية يختلف كل منها عن الآخر وإن التقت جميعها على النيل من جملة سياسات عبد الناصر: الأول جاء من المستشرقين الأجانب فى معرض التقليل من شأن الدور الاجتماعى لثورة يوليو. والثانى من المدرسة الماركسية التى تتخذ من التغيير الأساسى لعلاقات الإنتاج معيارا للنظر، وهؤلاء غفلوا عن أن القانون صدر تحت اسم «الإصلاح الزراعى» وليس «الثورة الزراعية»، ومن تنظيم سياسى لم يكن يملك نظرية اجتماعية ثورية، ويعتمد فى إجراءاته التشريعية والتنفيذية على نخبة سياسية لم تتعلم إلا الاقتصاد الحر سواء فى جامعات مصر أو أوروبا. ثم كان عليها أن تنفذ سياسة اشتراكية دون أن يكونوا مؤهلين لها. والمصدر الثالث للنقد تشكل بعد رحيل عبد الناصر ويتمثل فى المثقفين من أبناء بعض كبار الملاك الذين خضعوا للإصلاح الزراعى ومن سايرهم من أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة الذين وضعوا أقلامهم فى خدمة أبناء النظام القديم فى ظاهرة من الانخلاع الطبقى تستحق التأمل والدراسة راحوا يجندون أقلامهم فى حملة ضارية لشطب هذه الصفحة من تاريخ مصر.

يحدث هذا النقد منذ سبعينيات القرن الماضى وبعد رحيل عبد الناصر ولايزال قائما دون أن يلتفت هؤلاء وأولئك إلى ما حل بالريف بعد أن توقفت سياسات الإصلاح الزراعى وتخلت الدولة عن دورها الاجتماعى. فالحاصل أنه مع زوال دور الدولة والتخطيط الزراعى وترك أمر الزراعة لحرية المزارعين، أقبل المزارع على زراعة المحاصيل التى لا تكلفه مستلزمات كثيرة. كما توقفت الدورة الزراعية الثلاثية، وتوقف التوريد الإجبارى للمحاصيل وأصبح اختياريا مما نتج عنه فوضى فى الإنتاج وعدم توازن بين العرض والطلب مثلما حدث من قبل بعد القضاء على نظام الاحتكار الذى أقامه محمد على حيث حدث نقص فى بعض المحاصيل وتكدس فى أخرى وخاصة فى القطن مما نتج عنه عجز فى التسويق ووقوع المزارعين فى الديون، الأمر الذى دفع الحكومة للتدخل واشترت المحصول من المزارعين ووضعته فى خزائنها إلى أن تتيسر الأمور. والنتيجة النهائية لحرية الإنتاج والتسويق أن محصول القمح فى مصر الآن لا يغطى إلا ٣٠٪ من حاجة السوق المحلية والباقى يتم استيراده فى ضوء اعتبارات سياسية.

وكانت باكورة تطبيق سياسة الانفتاح الاقتصادى فى قطاع الزراعة



إنشاء بنك القرية تابعا لمؤسسة الائتمان الزراعي ابتداء من ١٩٧٧ انتقلت إليه مهام نشاط الجمعية التعاونية الزراعية ولكن في إطار علاقات رأسمالية. فلم يعد للجمعية تأثير يذكر في مسار الإنتاج الزراعي ونموه وتوفير حاجات الزراع من مستلزمات الإنتاج. ثم إن بنك القرية طبق في معاملاته المالية نظام البنوك الاستثمارية مما أوجد صعوبة في تعامل صغار الزراع معه فضلا عن تعامله في مجالات استثمارية غير تقليدية بعيدة عن متطلبات الحائز الصغير وإن أراد الإفادة منها فإنها ترهقه ماديا. وقد بلغ معدل الفائدة على القروض الزراعية التي يقدمها البنك من ١٣-١٥٪ عام ١٩٨٩ إلى ٢٠.٣٪ عام ١٩٩٢، وعلى القروض الاستثمارية ١٨-٢١٪ حسب مدى القرض.

واعتباراً من عام ١٩٨٧ ألغي الدعم على مستلزمات الإنتاج الزراعي نهائيا فارتفع سعر طن سماد اليوريا من ١٥٩ جنيها إلى ٥٠٥ جنيهات عام ١٩٩٢ وطن النشادر من ٥٨ جنيها إلى ٣٠١ جنيه، وطن السوبر فوسفات من ٧٥ جنيها إلى ٤٠٠ جنيه وبالتالي أخذت أسعار المحاصيل في الارتفاع تدريجيا مما كان له أثر على ارتفاع سائر المنتجات والخدمات وبدأت دائرة التضخم في الاتساع. كما أدى تعديل العلاقة الإيجارية بالقانون رقم ٩٦ لعام ١٩٩٢ الذي طبق اعتبارا من أكتوبر ١٩٩٧ الى ارتفاع إيجار الفدان إلى ٢٢ مثلاً للضريبة السارية خلافا لقانون الإصلاح الزراعي الذي حددها بسبعة أمثال الضريبة كما سبقت الإشارة فضلا عن إقدام بعض الملاك على طرد المستأجرين مما أدى إلى وقوع معارك دامية بين المطرودين وطارديهم. وارتفعت من جديد نسبة الأسر المعدمة في الريف فوصلت إلى ٣٣٪ في منتصف السبعينيات وكانت ٢٨٪ عام ١٩٦٥.

وتكشف دراسة ميدانية حديثة أجراها مركز البحوث الاقتصادية الزراعية ١٩٩١-١٩٩٢ شملت سبعمائة مزارع وثلاثمائة عامل زراعي في خمس محافظات عن تدهور الدخول الحقيقية لمعظم المواسم الزراعية عام ١٩٩٢، وعن انخفاض أيام العمل الزراعية للمشتغلين من المعدمين مقارنة بما كان عليه الحال عام ١٩٨٧. وانخفاض أجورهم الحقيقية بمعدل يتراوح بين ٥٠-٦٠٪ في ضوء التغيرات المختلفة خلال الفترة من ١٩٨٥-١٩٩٣.

وفي مؤتمر استراتيجية الزراعة المصرية المنعقد في التسعينيات طرحت بعض الآثار الاقتصادية-الاجتماعية الناجمة عن تطبيق الدولة لسياسة التكيف الهيكلي وهو الاسم الحركي لسياسة تخلي الدولة عن دورها الاقتصادي باسم تحرير الزراعة. ومن بين هذه الآثار زيادة حدة تركز الملكية الزراعية، وزيادة أعداد صغار الفلاحين والفقراء الذين سيحل بهم الخراب وهم يمثلون ٩٣٪ من جملة الحائزين، وستكون الوطأة أشد فيما يتعلق بحائزي أقل من فدان ويمثلون ٣٩٪ من جملة الحائزين بسبب ارتفاع نسبة التكاليف الثابتة (إيجار وضرائب وموارد) مما سوف يجردهم من حيازتهم ويدفع بهم إلى سوق العمل أجراء، وقد يعود مرابي القرية ممولا للإنتاج ومشتريا له بشروطه.

كل هذه التحولات والتراجعات دفعت صغار الفلاحين إلى البحث عن مصادر تقيم أودهم فلم يكن أمامهم سوى العمل في سوق دول النفط العربية التي تصادف استقلال معظمها حديثا مع مطلع السبعينيات من القرن العشرين وبدأت فيها حركة تنمية شاملة احتاجت إلى أيد عاملة مصرية فكانت العمالة المصرية. على أن العمل في الخارج لم يحل مشكلات الإنتاج الريفي بل زادها تعقيدا ذلك أن العامل الزراعي (الأجير) بعد أن تراكمت في يده بعض الأموال أراد أن يشتري أرضا زراعية يود بها اعتباره في قريته فحدث ارتفاع في أثمان الأرض نظرا لزيادة الطلب، وأراد أن يبني بيتا بالطوب الأحمر والأسمنت المسلح فلم يجد إلا الأرض الزراعية يبني عليها فانكمشت مساحة الأرض الزراعية. وكل ما هنالك أنه عاد إلى بلاده محملا ببعض الأجهزة الكهربائية الحديثة، وبكثير من قيم المجتمع الذي كان يعمل فيه وهي قيم مغايرة لمجتمعه الأصلي مما أوجد في النهاية مشكلة اجتماعية أخلاقية وتلك قصة أخرى.※

أرقام

※ ※ تجمع كل الدراسات التي تناولت المسألة الزراعية في مصر قبل عام ١٩٥٢ على حقيقة واحدة ألا وهي التركز الشديد في الملكية الزراعية. ففي عام ١٩٥٢ عشية الإصلاح الزراعي كان المالكون لأكثر من ٢٠٠ فدان أقل من ٠.١٪ من إجمالي عدد ملاك الأراضي الزراعية ويملكون ٣٠٪ من إجمالي مساحة الأرض الزراعية في مصر، على حين بلغت نسبة الذين يملكون أقل من خمسة أفدنة ٩٤.٣٪ بنسبة ٣٥٪ من إجمالي المساحة. أما نسبة الـ ٣٥٪ الباقية من مساحة الأرض الزراعية فتتوزع بين الملكيات أقل من ٢٠٠ فدان إلى أكثر من خمسة أفدنة وتبلغ نسبتهم ٦.٥٪.

أما الأسر المعدمة في الريف فقد بلغت نسبتها ٤٤٪ في عام ١٩٥٠ من إجمالي عدد الأسر الريفية حسب مقاربة الإحصاءات المتوفرة، وهي نسبة كانت في ازدياد ففي عام ١٩٢٩ كانت نسبتهم ٢٤٪ ارتفعت إلى ٣٨٪ في عام ١٩٣٩، وكانت أحد أسباب الفقر شروط الإيجار التي كان المالك يفرضها دون مراعاة لأية ظروف بيئية طبيعية قد تضر بالزراعة. فقد كان الإيجار الفعلي للفدان في الغالب الأعم خمسة وعشرين جنيها، وفي بعض الجهات بلغ ستين جنيها. وكانت وزارة الأوقاف تؤجر أراضيها في الوجه البحري بمتوسط ثلاثين جنيها لكبار الملاك الذين يؤجرونه بدورهم لصغار الفلاحين من الباطن، وتؤجره الوزارة لصغار المزارعين بثمانية وثلاثين جنيها ونصف. وفي الوجه القبلي بلغ إيجار الوزارة ستة وأربعين جنيها بسبب زيادة الطلب على العرض. وفي الوقت نفسه كان الدخل الصافي للفدان يتأرجح حول عشرين جنيها، أي أن المستأجر كان عليه أن يدفع خمسة جنيهات كحد أدنى عن كل فدان فوق الإيراد الفعلي للوفاء بقيمة الإيجار (يخسرها في الواقع). وبالتالي لا يتبقى له ما يصرفه على احتياجاته الخاصة وعلى العمليات الزراعية نفسها مما أوقعه باستمرار في دائرة الديون المستديمة. فإذا عرفنا أن لجان ضرائب الأطيان قدرت إيجار الفدان في عام ١٩٤٨ بثمانية عشر جنيها وكان إيجاره الفعلي كما رأينا من ٢٥-٦٠ جنيها أدركنا مدى الخسارة الدائمة التي كان الفلاح المستأجر يتعرض لها دوما.

وبسبب ارتفاع قيمة الإيجار على ذلك النحو كان الملاك يفضلون تأجير أراضيهم بدلا من زراعتها على الذمة نظرا للعائد المالي المضمون وفق شروط الإيجار التي تعفي المالك من تحمل نتائج الكوارث الطبيعية التي تتلف المحصول، بل كثيرا ما كان المالك يطرد المستأجر من الأرض إما بدافع التنكيل بالفلاح، وإما طمعا في إيجار أعلى بالاتفاق مع آخر. ومن هنا بلغت نسبة الأراضي المؤجرة في عام ١٩٥٢ عشية الإصلاح ٦٠.٥٪ والأرض المزروعة على الذمة ٣٩.٥٪.

أما النوع الثاني من طرق استغلال الأرض فكان يتمثل في المزارعة التي تعرف أيضا بالمشاركة، وهي علاقة قديمة وأكثر تخلفا من علاقة الإيجار لأنها متروكة للعرف والفلاح المستأجر هو الطرف الأضعف في هذه العلاقة، وبمقتضاها يقدم المستأجر قوة عمله مقابل رأس المال وتمويل العملية الزراعية من جانب المالك. ولم تكن للمزارعة حدود معينة في التعامل ففي زراعة القطن يحصل المالك على معظمه خاصة إذا كان سعره مرتفعا، وفي القمح يحصل على نصف المحصول، ويترك الذرة والبرسيم للمستأجر. وكانت هذه العلاقة سببا لمشكلات كثيرة بين الطرفين كانت مطروحة دوما على الرأي العام في صحافة هذه الفترة.

أما عمال الزراعة (الأجرية) فقد خضعوا لسوق العرض والطلب بشكل متعسف حيث كانت يوميتهم لا تزيد على سبعة قروش بحال من الأحوال وليست متوفرة يوميا وإنما حسب مواسم العمل الزراعي. والشريحة الأسوأ من هؤلاء الأجرية هم عمال التراحيل (الأنفار) الذين وقعوا في قبضة المقاولين. وكان نفر الترحيلة عادة يعمل حوالي سبعة أشهر في السنة في المتوسط على فترتين، واحدة مدتها ثلاثة أشهر والثانية أربعة أشهر وباقي السنة يكون في بطالة.

ثم صدر القانون الأول للإصلاح الزراعي في ٩ سبتمبر ١٩٥٢ (رقم ١٧٨) الذي جعل الحد الأقصى للملكية الزراعية ٢٠٠ فدان للفرد ومائة أخرى للأولاد وتوزيع ما يزيد على هذا الحجم على صغار المستأجرين وصغار الملاك

لأقل من خمسة فدادين. وقد حددت المادة التاسعة من القانون شرائح الفلاحين الذين يستفيدون من الأرض الزائدة. فكانت الأولوية عند التوزيع لمن يزرع الأرض فعلا سواء بالإيجار أو بالمزارعة. يليه الذى أسرته أكثر أفرادا بالنسبة للأسر فى القرية، ثم لمن هو أقل مالا من أهل القرية، ثم أخيرا لغير أهل القرية.

ومن الواضح أن هذه المادة لم تضع فى الحسبان عمال الزراعة الذين لا يستأجرون أرضا ويعيشون على العمل المأجور كما سبقت الإشارة مما أدى فى النهاية إلى زيادة عددهم تدريجيا، وكان من المتصور أن يقل إذا ما امتدت مظلة الإصلاح لتشملهم. ويبدو أن تحديد شرائح المستفيدين طبقا للمادة التاسعة جاء مراعاة لتقاليد الخبرة الزراعية وللحياة فى مجتمع الريف التى لا تسمح بنزول «غريب» فى الأرض. فإذا كان هناك من يقوم بالزراعة فعلا فى الأرض الخاضعة سواء بالإيجار أو المزارعة فيكون من حقه أن يصبح مالكا لها، وهو أمر قريب إلى حد ما من حق الشفعة للجار عند بيع الأرض. ومن ناحية أخرى فإن الذى يباشر الأرض فى الزراعة بنفسه يعد أكثر خبرة من عامل الزراعة الذى يؤدى عملية معينة يتركها إلى غيرها فى أرض أخرى وهكذا.

أما تحديد مساحة الأرض التى توزع على المنتفع وأسرته بحيث تصل إلى خمسة أفدنة حدا أقصى ولا تقل عن فدانين، فقد تم على أساس أن ما تحتاجه الأسرة الريفية المكونة من سبعة أفراد (متوسط الأسرة فى الريف عموما) كحد أدنى لمواجهة متطلبات المعيشة ١١٦ جنيها فى العام بأسعار ١٩٥٢، وأن إيراد خمسة فدادين فى الظروف العادية آنذاك يبلغ ١٢٠ جنيها سنويا. وإذن فإن الأسرة العادية فى الريف (٧-٨ أفراد) تحتاج إلى خمسة أفدنة لتعيش على إيرادها.

وهكذا وخلال الفترة من عام ١٩٥٣-١٩٧٠ التى طبقت فيها قوانين الإصلاح الزراعى تم توزيع حوالى ١٢,٥٪ من الأراضى على حوالى ٣٤٢ ألف أسرة تضم حوالى ١,٧٪ مليون فرد بنسبة ٩٪ من سكان الريف. وهذه الأراضى خاصة بالعائلة الملكية وبكبار الملاك فوق السقف المحدد مصريين وأجانب، وكذا أراضى تابعة لشركات وبلدية وأراضى طرح البحر. وهناك من يقلل من شأن هذا التوزيع بأسلوب غير مباشر على أساس أن ٩٪ نسبة قليلة، وأن نسبة من يملكون أقل من فدان نسبة كبيرة بلغت ٧٠٪ وتمتلك فقط ١٤٪ من إجمالى الأرض. لكن هؤلاء لا يفرقون بين فلسفة الإصلاح وبين التغيير الجذرى. ولا يرون فى الكوب إلا النصف الفارغ.. فهل كان الأفضل أن يبقى الحال على ما كان عليه؟!.

والثابت من كل هذا أن نصيب صغار الملاك من الأرض زاد بنسبة ملحوظة من ٣٥٪ عشية الإصلاح الزراعى إلى ٥٧,١٪ عام ١٩٦٥، كما زادت ملكيات شريحة الملاك من ٢٠ - ٥٠ فدانا إلى ٣٣٪ من الأرض فى عام ١٩٦٥ بتأثير قوانين الإصلاح الزراعى التى سمحت للملاك الكبار ببيع المساحات الزائدة عن السقف المحدد بدلا من خضوعها للاستيلاء، فأقبلت على الشراء عناصر هذه الشريحة وكان ذلك بإمكاناتها بفضل ما توفر لديها من تراكمات مالية. أما شريحة من يملكون أكثر من خمسة فدادين إلى أقل من ٢٠ فدانا فقد ظلت ثابتة لأن المطروح من الأرض للبيع كان فى مساحات أكبر من قدرتهم المالية، فضلا عن قاعدة «الجار أولى بالشفعة» التى لا تسمح للغريب بنزول الأرض (تعرف فى الريف بركوب الأرض)، وهى تقاليد صارمة ما تزال قائمة وتحول دون حرية المالك فى بيع أرضه لغير مستأجرها حتى فى ظل قانون «تحرير» العلاقة بين المالك والمستأجر الذى صدر فى ١٩٩٢ وطبق اعتبارا من أكتوبر ١٩٩٧.

ورغم النقد الشديد الذى يوجه لمبدأ إعطاء المالك حرية التصرف فى الأرض الزائدة تفاديا لخضوعها للاستيلاء، إلا أن جوهر قانون الإصلاح الزراعى فى هذا الشأن جاء متسقا مع التكوين الاجتماعى لضباط الأحرار بعضهم يأخذون بالإصلاح وليس بالطفرة، الأمر الذى غاب عن النقاد. فالضباط الأحرار لم يلجأوا للعنف وكان بإمكانهم وقد امتلكوا السلطة أن يستولوا على الأرض الزائدة عما تحدد أو على كل الأرض وإعادة توزيعها. لكن العنف لم يكن طريقهم حتى ولو اضطروا إليه، وكل القصد كما صرح جمال عبد الناصر أكثر من مرة أن الهدف تجريد كبار الملاك من سلاح قوتهم الاقتصادية والسياسية وإنهاء سيطرتهم على آلة الحكم والإدارة، وليس تصفية حياتهم. وهكذا تم التصرف فى الأرض الزائدة فى إطار آلية العرض والطلب.

ورغم أن المادة الرابعة من القانون الأول تسمح للملاك ببيع المساحة الزائدة على الحد الأقصى فى قطع صغيرة لا تزيد كل منها على خمسة فدادين ولا تقل عن فدانين تمشيا مع نص المادة التاسعة الخاصة بالتوزيع، إلا أن قدرة الكبار على الالتفاف حول القانون وتفريغه من مضمونه بإتمام بيع صورى لصغار الفلاحين الذين تحت إمرتهم وسلطتهم، جعل الحكومة توقف العمل بهذه المادة اعتبارا من أكتوبر ١٩٥٣ ووضعت يدها على المساحات الزائدة.

كما حدد قانون الإصلاح إيجار الفدان بسبعة أمثال الضريبة (أى واحدا وعشرين جنيها على أساس أن ضريبة الفدان ثلاثة جنيهات آنذاك) مما كان له أثره على صغار المستأجرين خاصة. إذ تمكنوا من الانتفاع الحقيقى بجزء من ناتج قوة عملهم ينفقونه على احتياجاتهم الاجتماعية وكان يذهب إلى جيب المالك. فقد توفرت لكل منهم أربعة جنيهات عن الفدان الواحد كحد أدنى إذا ما كان الإيجار خمسة وعشرين جنيها، وحوالى أربعين جنيها كحد أقصى إذا ما كان الإيجار ستين جنيها، وهو مبلغ لم يكن ضئيلا إذا أدركنا أن المستأجر كان يدفع ضمنه وفاء للإيجار الحالى أو يصبح دينا عليه للسنة التالية كما رأينا.

ومما يؤكد أن تحديد الإيجار بهذا الشكل جاء فى صالح المستأجر بدرجة ملحوظة أن نسبة كبيرة من الملاك عادوا إلى زراعة أرضهم بأنفسهم (على الذمة) بدلا من



أرقـــــام وقـــوانـــين



تأجيرها معتمدين في زراعتها على العمل المأجور فزادت نسبة الأراضي المزروعة على الذمة من ٥٫٣٩٪ عام ١٩٥٢ إلى ٩٫٤٪ عام ١٩٦٢.

كذلك فإن القانون ضمن للمستأجر عدم الطرد من الأرض التي يزرعها طالما أنه يدفع الإيجار، وضمن له أيضا مدة إيجار لا تقل عن ثلاث سنوات كحد أدنى تمشيا مع الدورة الزراعية حيث يستطيع أن يعوض خسارته في محصول بمكسب من محصول آخر حسب مقتضى الحال. والحق أن النص على عدم طرد المستأجرين من الأرض أدى إلى استقرار الفلاح فضلا عن شعوره بالأمان. وقد تزامن معه قرار آخر بمنع الفصل التعسفي للعمال من المصانع فكان ذلك بداية سياسة حماية الطبقة العاملة بجناحيها الزراعي والصناعي.

كذلك حدد القانون أسلوب المزارعة (المشاركة) ولم يتركها للأعراف فتقرر أن يقدم المالك رأس المال الثابت (الأرض والمباني) ونصف ثمن البذور والمخصبات الكيماوية ومصاريف الري ومقاومة الآفات وتكاليف الحصاد وضريبة الأرض، ويقدم المزارع (المشارك) قوة عمله ونصف تكاليف الزراعة فضلا عن صيانة قنوات الري والمصارف. ويقتسم الطرفان المحصول مناصفة.

أما عمال الزراعة (الأجرية) الذين لم يشملهم توزيع الأرض تطبيقا للمادة التاسعة من القانون كما سبقت الإشارة فقد اهتم القانون بهم عندما اشترط أن يكون الحد الأدنى لأجر العامل الزراعي في اليوم ١٨ قرشا.

على أن قانون الإصلاح الزراعي لم يترك الفلاح الجديد تحت سيطرة المالك القديم الكبير في إدارة أحوال الزراعة. وفي هذا الخصوص بدأت تجربة جديدة بإنشاء جمعيات تعاونية زراعية فيما عرف بقرى الإصلاح الزراعي. وتضم هذه الجمعيات المنتفعين بالإصلاح وتحددت مهمتها في تقديم الخدمات ومستلزمات الزراعة فضلا عن تسويق الحاصلات الرئيسية. وفي عام ١٩٥٢ تكونت ١٧٢٧ جمعية أخذت في الازدياد حتى بلغت ٥٠١٣ جمعية في عام ١٩٧٠ تضم ٣.١ مليون عضو. وهذا التسويق التعاوني الإجباري لم يؤثر على دخل الفلاح المزارع. وكل ما هنالك أن الدولة حلت محل الوسطاء السابقين في التمويل وأوقفت تلاعبهم بسوق البيع والشراء من حيث رفع الأسعار أو خفضها رغم ما شاب هذه العملية من تجاوزات بفعل خربي الذمة من موظفي الجمعيات أساءت إلى القانون في نهاية الأمر. وحتى لا يسيطر كبار الملاك الخاضعون للإصلاح الزراعي (أغنياء الفلاحين في بعض الأدبيات) على مجالس إدارة تلك الجمعيات تقرر في ١٩٦١ ثم في ١٩٦٣ أن يكون أربعة أخماس أعضاء مجلس الإدارة ممن يملكون خمسة فدادين فأقل (صغار الفلاحين). كما اهتمت الحكومة في عام ١٩٦٠ بأحوال عمال التراحيل (الأنفار) فتدخلت لمنع تشغيلهم عن طريق المقاولين وكونت لجانا حكومية عام ١٩٦٢ تقوم بمهمة التشغيل.

وقد ترافق مع قانون الإصلاح الزراعي العمل على تنمية الريف تنمية شاملة اجتماعيا واقتصاديا حتى لا يكون منتجا فقط للمادة الخام. وقد جاء ذلك مع التحولات الاقتصادية الكبرى في مطلع الستينيات وصدور قانون الحكم المحلي في ١٩٦٠ الذي نص على نشر الصناعات الريفية، واستغلال الخامات المتوفرة في القرى، وإجراء الدراسات التي تتطلبها تلك الصناعات.

وفي ذلك الشأن قام المجلس الدائم للتنمية الاقتصادية بدور واضح في مواجهة العمالة المعطلة في الريف وذلك عن طريق رفع المستوى التعليمي. وفي ١٩٥٤ بدأ تنفيذ إنشاء الوحدات المجمعة كل وحدة منها تخدم خمسة عشر ألف نسمة. واتبعت وزارة الشئون الاجتماعية نظاما لا مركزيا لتأدية الخدمات على المستوى المحلي. ومع الانتهاء من بناء السد العالي في ١٩٦٥ بدأت مشروعات استصلاح الأراضي، وشعر الفلاح بشكل عام بالاستقرار لأن السد العالي قضى على إمكانية تهديد المحصول الزراعي بالبوار سواء في حالة الفيضان العالي أو في حالة انخفاضه. ففي ١٩٧٢ وفي سنوات أخرى تالية جاء الفيضان منخفضا ولو لم يكن السد قائما لخسرت الزراعة المصرية ثلث محصول القطن والأرز على الأقل. وبفعل مياه السد العالي زادت مساحة الأراضي المنزرعة حوالي مليوني فدان. وحدث تغير ملحوظ في خريطة المحاصيل الزراعية فزادت مساحة المحاصيل النقدية والتجارية مثل الخضروات والفواكه والأعشاب والزهور وغيرها وتراجعت المحاصيل التقليدية.

وبفعل سياسة الإصلاح الزراعي انتعشت حالة صغار الملاك (خمسة فدادين فأقل) وأصبحوا أكثر قدرة ووعيا بمصالحهم حتى لقد أخذوا يطالبون بإلغاء أسلوب المزارعة، وبتوسيع الخدمات التعاونية، وبوضع حد لسيطرة الأغنياء على مقدرات الحياة في القرية، وتحمسوا لفكرة الملكية التعاونية كوسيلة لتنظيم الإنتاج وزيادة استخدام الآلات في الوقت الذي كان كبار الملاك يحاربون فيه فكرة التسويق التعاوني ويعملون على إفشالها.

وامتدت الخدمات التثقيفية إلى الفلاحين حيث تأسست مراكز الثقافة العمالية ابتداء من عام ١٩٦١ في مدن الأقاليم، وتم تنظيم دورات تثقيفية لهم وللعمال عن تاريخ مصر ونضال الطبقة العاملة ضد الرأسمالية والاستغلال والاستعمار. وكان لهذا كله أثره في تنمية الوعي بالمصالح مما ظهر جليا في الحركة السياسية الشعبية منذ السبعينيات.

كما انتعشت الشرائح الأعلى من صغار الملاك (شريحة ٥-٢٠ فدانا) وتمتعت بوضع معيشي أفضل حيث ساعدتهم المساحة الواسعة نسبيا على زراعة محاصيل السوق الأكثر ربحا، ومن ثم تمتعوا بفائض ساعدهم على الوفاء بحاجاتهم الترفيهية. أما شريحة الملاك من ٢٠-٥٠ فدانا فأكثر وأساسها الخاضعون للإصلاح الزراعي ومن لحق بهم ممن اشتروا من تصرفات كبار الخاضعين اقتحمت مجالات الأنشطة الرأسمالية النوعية مثل إقامة مراعي الماشية ومعامل منتجات الألبان ومزارع الشتلات ومعامل التفريخ البلدي والصناعي ومعاصر القصب لإنتاج العسل. كما أصبح بإمكانهم استخدام الآلات على نطاق واسع مثل الجرارات وآلات الري وكانوا يقومون بتأجيرها لصغار الفلاحين. ※

بفعـــــل سياســة الإصـــلاح الزراعـــي
انتعشت حالة صغار الملاك (خمسة فدادين فأقل)
وأصبحـوا أكـثر قــدرة ووعيــا بمصالحهــم حتى لقد
أخــذوا يطالبـــون بإلغـــاء أسلوب المزارعة، وبتوسيع
الخدمـــات التعاونيـــة، وبوضـــع حد لسيطرة
الأغنياء على مقدرات الحياة في القرية

المــــــراجـــــع:

المعلومات الأساسية الواردة في هذه الدراسة اعتمدت على المراجع الآتية:

- الان ريتشاردز، التطور الزراعي في مصر ١٨٠٠ - ١٩٨٠، كتاب الأهالي رقم ٢٤/ القاهرة يوليو ١٩٩١.
- عاصم الدسوقي، كبار ملاك الأراضي الزراعية ودورهم في المجتمع المصري ١٩١٤-١٩٥٢، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٦.
- فتحي عبد الفتاح، القرية المصرية: الملكية وعلاقات الإنتاج ١٩٥٢- ١٩٧٠. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩١.
- محمود عبد الفضيل، التحولات الاقتصادية والاجتماعية في الريف المصري ١٩٥٢ - ١٩٧٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٨.
- محمود عودة (مشرفا)، مستقبل القرية المصرية، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة ١٩٩٩.

Assem el-Dessouki, Land tenure-policy in Egypt, 1952-1969, and its effects on the reformation of the Peasantry. In "Land Tenure and Social Transformation in The Middle East, edited by Tarif Khaldi. American University in Beirut, 1984.

و.. الإصلاح الزراعى.. نظرة تاريخية

عز الدين كامل

مصر بلد زراعى.. حقيقة جغرافية، واقتصادية.. وبالتالى تاريخية. فحقيقة أن الاقتصاد المصرى.. تاريخياً.. اقتصاد زراعى أدت إلى محاولات متعددة ومتصلة عبر زمن طويل للتعامل مع حقائق هذا الاقتصاد.. أهم هذه المحاولات هى ما اصطلح على تسميته فى نهاية المطاف «الإصلاح الزراعى».

علينا أن نرجع بذاكرتنا إلى أوائل القرن العشرين لنتتبع مشاكل الريف والفلاح المصرى حيث كان الاستعمار البريطانى يجثم على صدر الشعب المصرى وحول مصر إلى مزرعة للقطن المصرى لتصديره كخامة أساسية للمصانع الإنجليزية.. وليحقق الاستعمار أهدافه استخدم أسلوب القمع والترويع للفلاحين وأمامنا نموذج مجسم لأسلوب معاملة الفلاحين وهو حادثة دنشواى فى ١٣ يونية ١٩٠٦.

يومها نجح مصطفى كامل فى أن يستثمر مقاومة الفلاح من أجل أرضه وعرضه وحول قضية الفلاحين من المحلية إلى العالمية وهز الضمير العالمى ليتعاطف مع كرامة الفلاح المصرى وحقه فى حياة حرة كريمة.

وما أن قامت الحرب العالمية الأولى إلا ورفض الفلاحون التعامل مع سلطات الاحتلال مما جعل الإنجليز يعملون على تسخير الفلاحين فى فرق متطوعين عنوة وبالقوة.. واصطيد الفلاحون من بيوتهم وسيقوا إلى جبهات الحرب وميادين القتال.. وهم تحت الحراسة الشديدة، وفى ظهورهم حراب الجنود.. وصودرت المحاصيل بأبخس الأثمان، وتم الاستيلاء على المواشى لاستخدامها فى الحرب والتموين.. وبنهاية الحرب العالمية الأولى كانت البلاد حبلى بالثورة فما أن وجدت الفرصة مواتية لإعلان الثورة فى مصر حتى هب الفلاحون للنضال ضد الاستعمار الإنجليزى ومن أجل «الاستقلال التام أو الموت الزؤام».

ولم تهدأ الثورة إلا بصدور دستور سنة ١٩٢٣ وإقامة النظام البرلمانى.

لقد سار الفلاحون خلف الوفد وأعطوا أصواتهم فى الانتخابات لاستجابته لبعض مطالبهم وإقرارها.. فكان هذا سبباً لمضايقة الكثيرين.. فحاولوا مسخ الدستور وإحالته إلى لعبة فى أيديهم ورغم هذا لم يجد أمثال هؤلاء أى استجابة من الفلاحين وقاوموا أعداء الدستور بأشكال مختلفة.

ففى عهد صدقى مثلاً تجاهله الفلاحون مما اضطره إلى تزييف حفلات ومواكب لاستقباله فى القرى فكان يلبس الخفراء النظاميين العمائم وملابس الأعيان ويسوقهم إلى استقباله.. وبعد صدور دستور صدقى سنة ١٩٣٠ امتنع العديد من العمد والمشايخ عن القيام بمهام وظائفهم وتقدموا باستقالات جماعية رغم العقوبات القاسية التى فرضها صدقى عليهم.

وكان صدى هذا الكفاح أن بدأت الحكومات تعمل من أجل الفلاح ومن أجل اكتسابه فى صفها.. فمن أجل الفلاح تم العديد من المشروعات الاقتصادية والخدمات التى كان محروماً منها مثل:

* إنشاء بنك التسليف الزراعى لحماية الفلاح من المرابين.
* نشر التعليم بالقرى.
* إنشاء المستشفيات ومد القرى بالمياه الصحية.
* تحديد حد أدنى لأجور العمال الزراعيين فى مديريتى قنا وأسوان.
* إلغاء السُخرة نهائياً.

كل هذه العوامل ساعدت على خلق وعى جديد فى الريف وشخصية جديدة للفلاح المصرى.. أدت إلى أشكال من المقاومة والكفاح (حوادث كفر نجم وبهوت وغيرهما).

وفى ١٩٤٩ دعا عبدالرحمن الرافعى فى كتابه «فى أعقاب الثورة المصرية» إلى ضرورة تدخل المشرع فى أمرين مهمين فى حقل العمل الزراعى:

* أولاً: تحديد العلاقة بين المالك والمستأجر وقد حددها عبدالرحمن الرافعى بنسبة إيجارية ملائمة للمالك والمستأجر على حد سواء.. كما طالب بمنع التأجير من الباطن حيث إن هذا النوع من الإيجار يوجد طبقة من الفضوليين تثرى على حساب الملاك والمستأجرين.

* ثانياً: تحديد الملكية الزراعية بوضع حد لزيادة الملكيات الزراعية الكبيرة مطالباً بتشريع اجتماعى واقتصادى لعلاج الفروق الهائلة بين أبناء الأمة بسوء توزيع الملكية الزراعية وما يقترن به من ظلم وإجحاف للفقراء.

وفى عام ١٩٤٥ تقدم «محمد خطاب» عضو مجلس الشيوخ إلى المجلس بمشروع قانون يتضمن تحديد نصاب الملكية الزراعية. فيحيله المجلس إلى لجنة الشئون الاجتماعية التى قامت بفحصه ودراسته، ثم انتهت إلى وضعه فى صورة تهدف إلى التوفيق بين حقوق الملاك ومقتضيات المصلحة العامة، حيث رفعت الحد الأدنى للملكية الزراعية إلى ١٠٠ فدان بدلاً من ٥٠ فداناً كما اقترحها المشروع.

على أن أبرز ما يتضمنه هذا المشروع عدم المساس بالحقوق المكتسبة للملاك الحاليين، ولا يسرى على ذريتهم. ولكن بالرغم من التعديلات التى أجرتها اللجنة لصالح الملاك، فإن المشروع لم يكتب له النجاح لأنه عندما نظر بالمجلس بتاريخ ٢٥ يونيو ١٩٤٥، عارضته الحكومة، وقالت أنها معنية بتوزيع الأراضى الأميرية الصالحة للزراعة على صغار المزارعين وفى تقديرها أن هذا يغنى عن المشروع.

* وفى عام ١٩٥٠ تقدم النائب الشاب إبراهيم شكرى عضو حزب مصر الفتاة بمشروع قانونى بتحديد الملكية الزراعية بحد أقصى ٥٠ فداناً، وقد رفض المشروع من أعضاء البرلمان ولاقى المشروع مصير مشروع محمد خطاب وهو التعثر فى اللجان البرلمانية والرقاد الطويل حبيس الأدراج لأنه لم يكن يتمسق وطابع هذا العهد الذى يعتمد فى بنيانه العلوى على طبقة كبار الملاك للأراضى الزراعية.

وجاء مشروع الدكتور ابراهيم رشاد والذى يقوم أساساً على فكرة المزارع الجماعية وإلغاء الملكية الفردية وإبدالها بالملكية الجماعية للعاملين فيها كقنبلة أزعجت كبار الملاك وأشعرتهم بأن هناك خطراً يهددهم خاصة أنه صادر من رجل واسع العلم إلى جانب أنه من أغنياء الملاك ويحمل لقب الباشوية إلى جانب أنه من كبار موظفى الدولة ووصل إلى أعلى المناصب الحكومية.

نجح مصطفى كامل فى أن يستثمر مقاومة الفلاح من أجل أرضه وعرضه، وحول قضية الفلاحين من المحلية إلى العالمية، وهز الضمير العالمى ليتعاطف مع كرامة الفلاح المصرى وحقه فى حياة حرة كريمة



الإصلاح الزراعي



قانون الإصلاح الزراعي:

«في يوليو ١٩٥٢ قامت الثورة وحسب ما تحكيه الروايات نشر الأهرام مقالاً للدكتور راشد البراوي أستاذ الاقتصاد عنوانه: اقتصادي يقترح إعادة توزيع الثروة الزراعية، وتحديد الملكية. وفي اليوم نفسه استدعى جمال عبد الناصر كاتب المقال، وكلفه بتحويل أفكاره إلى مشروع ما أن طرحه على زملائه حتى قرروا تبنيه وتكليف زميلهم جمال سالم بالتفرغ لدراسته وإعداده في صورته النهائية مع الدكتور عبد الرزاق السنهوري رئيس مجلس الدولة، ونائبه المستشار سليمان حافظ».

كانت مساحة الأرض الزراعية عام ١٩٥٢ أقل قليلاً من ستة ملايين فدان تتوزع ملكيتها بين ثلاث كتل.. الأولى أقل من نصف في المائة، وتملك وحدها ٣٥٪ من كل الأرض بمعدل ٢٠٠ فدان فأكثر لـ ١١٨٠٠ مالك ونحو ١٤٥ ألف مالك، يملكون ٦٠٪ من الأرض بمتوسط ١٢ فداناً، وأكثر من مليونين يملكون باقي الأرض بمتوسط ٢١ قيراطاً، مما يدل على الخلل الشديد في هيكل الثروة الزراعية في مصر.

* وارتبط بذلك خلل واسع في الهيكل الاقتصادي والاجتماعي للدولة، ففي القطاع الزراعي الذي كان له السيادة في التنمية الاقتصادية، أصبحت الأرض الزراعية تمثل سلعة سوقية تخضع لعمليات التداول والمضاربات، مما ترتب عليه تضخم غير حقيقي في أسعارها، وترتب على ذلك أن مالك الأرض كان يحصل على ريع من استثمارها يزيد كثيراً على ما يجب أن يحصل عليه طبقاً للمقاييس الاقتصادية والاجتماعية الصحيحة، وكان ذلك على حساب جهد وشقاء المستأجر الذي لم يكن يحصل على دخل يوازي ما يؤديه من عمل طوال السنة، وبالتالي أهدرت قيمة العمل كعنصر من عناصر الإنتاج، وأصبحت الغلبة لرأس المال، فأصبح صاحبه يحصل على معظم الريع من عوامل الإنتاج.

* وتوافق أيضاً مع هذه الأوضاع عدم توافر الرعاية للطبقة العاملة وطبقة المستأجرين، الأمر الذي تلاشت معه الحوافز والدوافع الباعثة على زيادة الإنتاج، فقد كان إهمال هذه الطبقات والضغط عليها باستمرار مؤدياً إلى ضعف قدرتهم على الإنتاج كما حال ذلك دون مساهمتهم بشكل فعال في عملية التنمية وضآلة حرصهم على صيانة الموارد الزراعية أو المحافظة على خصوبة الأرض ومرافقها.

وفي ظل هذه العوامل الضاغطة على جماهير الشعب صدر قانون الإصلاح الزراعي على ثلاثة محاور رئيسية يمكن أن نجملها في التالي:

* تحديد الملكية الزراعية.
* تنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر.
* وضع حد أدنى لأجور عمال الزراعة.. والسماح لهم بتكوين تنظيم نقابي. لذلك فإن القانون قد عاد بالفائدة على خريطة عريضة اختلفت الآراء حول عدد المستفيدين به، فمن أرقام تقول أنهم مليون ومائة ألف.. وأرقام أخرى وصلت إلى المليونين وعموماً فلا يستطيع أن ينكر أحد أنه كان مؤشراً في الاقتصاد المصري ويعتبر مفترق الطرق في اقتصاد القلة والانطلاق إلى الاقتصاد المجموع الأعظم.

ولم يكن قانون الإصلاح الزراعي يعني فقط توزيع الأرض على المعدمين، بل كان توسيع طبقة صغار الملاك وانصاف المستأجرين بتنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر تمشياً مع مبدأ «الأرض لمن يزرعها» وكذلك الاعتراف بالعمال الزراعيين بوضع حد أدنى لأجورهم إلى جانب السماح لهم بالتنظيم النقابي وعمل اتحاد عام للعمال الزراعيين يدافع عن حقوقهم ويفتح أمامهم فرصاً أكبر للعمل للارتقاء بمستوى عيشتهم.

لقد أدت الزيادة في دخل هذه الطبقات الثلاث إلى ارتفاع مستوى معيشتهم وزيادة القوة الشرائية عندهم، نشأ عنه ارتفاع ملحوظ في استهلاكهم من السوق المحلية.. ونتيجة لذلك اتسعت الطاقة الإنتاجية في ميادين الصناعة والتجارة والخدمات لمواجهة الزيادة في الطلب وتلبية احتياجات هذه الطبقة الجديدة والتي كانت متدنية في استهلاكها مما أدى إلى خلق ظروف ملائمة للتنمية والاستثمار.

فالأرقام تقول إن هناك ثماني عشرة محافظة توجد بها مناطق للإصلاح الزراعي وتغطي هذه المساحات سدس مساحة الأرض الزراعية في مصر ووصلت جملة مساحة زمام أراضي الإصلاح الزراعي ٧٠٨,٠ ألاف وستمائة وستة وستين فداناً، ووصل عدد الجمعيات التعاونية التي تدير هذه الأراضي إلى ٦٨٧ جمعية محلية تجمعها ٧٠ جمعية مشتركة تضمها ١٨ جمعية مركزية ويتحدون جميعاً في جمعية عامة على مستوى الجمهورية.

وتشير الدراسات الميدانية التي تمت على فلاحي الإصلاح الزراعي أن الفلاح في مناطق الإصلاح لم يعد يولي اهتمامه إلى الأرض فقط ولكنه اتجه إلى المشاريع الزراعية سواء تربية الماشية أو تصنيع المنتجات الزراعية والحيوانية أو امتلاك وسائل نقل المحاصيل والآلات الضخمة التي تساعد في الزراعة أو مناحل العسل كل ذلك من أجل مزيد من الدخل.. حيث إن ٢٦٪ من المنتفعين يمتلكون مشروعات زراعية صغيرة أي أن رأس مالها أقل من ٥٠ ألف جنيه بينما يمتلك ١٤٪ مشروعات زراعية متوسطة رأس مالها أكثر من ٥٠ ألف جنيه.

وإذا انتقلنا للجانب الاجتماعي نجد أن نسبة ٨٥٪ من المنتفعين يقطنون بيوتاً مبنية بالطوب الأحمر وتحتوي على أحدث الأجهزة التي تساعد على المعيشة.

تطور الملكية الزراعية:

بنظرة موضوعية لنظام حيازة الأرض عام ١٩٥٢ نجد أن هرم الملكية الزراعية كان يمثل الهرم المقلوب فالقاعدة العريضة من الملاك والذين يملكون أقل من ٥ أفدنة ٩٤٪ من مجموع الملاك ويملكون ٣٥٪ من الأرض الزراعية في حين أن الذين يملكون أكثر من ٥٠ فداناً كانت نسبهم ٠,٤٪ ولتوضيح الرقم يمكن القول إن ٤ في الألف يملكون ٣٣٪ من جملة المساحة المنزرعة أما اليوم بعد مرور ٥٠ عاماً فإن الهرم أصبح أكثر اعتدالاً، فالقاعدة أصبحت تمتلك ٦٦,٥٪ من جملة الأراضي والتي أصبحت تمتلك ١٩,٦٪ من المساحة المنزرعة.

والظاهرة الواضحة هي اتساع قاعدة أصحاب الملكية الزراعية الصغيرة والمتوسطة وهما من أشد الطبقات فاعلية في النمو والتوازن، وعليهما يعتمد الاستثمار والإنتاج وخاصة في ظروف مصر حيث إن التربة الزراعية من أخصب الأراضي في العالم وتحتاج إلى التعامل معها بأسلوب التوسع الرأسي ويظهر هذا واضحاً في زيادة إنتاجية العديد من المحاصيل، وأحسن مثالين على ذلك القصب الذي ارتفعت إنتاجيته بنسبة ٩٥٪ والأذرة الهجين التي زادت بنسبة ١٨٠٪ لاستخدام تقاوى محسنة إلى جانب الارتفاع بالمعاملات الزراعية وزراعة الأذرة في الميعاد الملائم وتطبيق العمليات الزراعية المتقدمة.

وكان من شأن التطور الجذري الذي صاحب تغيير هرم الملكية في مصر وأصبحت قاعدته عريضة وقمته محدودة أن يكون تقدير المواطن على أساس شخصه وعمله وما يبذله من جهود مستمرة في عمليات التنمية والإنتاج وليس على أساس ما يملكه من أرض زراعية أو موارد رأسمالية. فقد نشأ عن هذا التغيير أن أصبح للفلاح صوت مسموع في تقرير سياسات البلاد. وبدأ يساهم إيجابياً في برامجها المختلفة مما فتح الباب على مصراعيه لديمقراطية جديدة لطبقة الفلاحين عامة والتي كانت محرومة كلية من أن تشارك في الحياة النيابية.. حيث تقرر بالميثاق أن لا تقل نسبة التمثيل للعمال والفلاحين في المجالس الشعبية والتشريعية عن ٥٠٪. وكان طبيعياً أن ترتفع مكانة الفلاح ووزنه الاجتماعي بصدور قانون الإصلاح الزراعي وزوال كل عوامل الضغط والإذلال الذي كان يتعرض له كما زال عنه كل ما كان من شأنه خنق إرادته أو التحكم في رزقه ورزق أولاده.

بنظرة موضوعية لنظام حيازة الأرض عام ١٩٥٢ نجد أن هرم الملكية الزراعية كان يمثل الهرم المقلوب فالقاعدة العريضة من الملاك والذين يملكون أقل من ٥ أفدنة ٩٤٪ من مجموع الملاك ويملكون ٣٥٪ من الأرض الزراعية

إن التقييم المنصف للإصلاح الزراعي.. اليوم.. وبعد مرور ٥٠ عاماً على صدور القانون يقول إن الإصلاح الزراعي قد نجح وحقق النتائج المرجوة منه..



فعند إصدار القانون كان أعداء تقدم الفلاح وبخاصة الموتورون يشككون فى إمكانية نجاح الفلاح فى أن يتملك الأرض ويجيد زراعتها ويزيد إنتاجها ولكن كان المشرع للقانون ذا نظر ثاقب بأن نص على أن تعاونيات الإصلاح الزراعى حتمية لمساعدة المنتفعين فى إدارة الأراضى الموزعة والتى استولى عليها من كبار الملاك ودفع عجلة الإنتاج بها.. وقد نجحت هذه التعاونيات فى اجتياز مرحلة انتقال ملكية وإدارة هذه الأراضى والتى بذل أعداء الإصلاح الزراعى كل ما لديهم من وسائل غير مشروعة لعرقلة مسيرة هذا الاتجاه الإصلاحى للمجتمع الزراعى أملاً فى العودة إلى القديم.. لكن المطلوب اليوم نظرة موضوعية لتقوية بنيان الإصلاح الزراعى وتعظيم جوانب الاستفادة منه.

جمعية تعاونية واحدة:

إن المشرع عندما جعل الانضمام للجمعية التعاونية للإصلاح الزراعى شرطًا للانتفاع بالأرض كان يهدف فى ذلك الوقت إلى نجاح المنتفعين فى استمرار زراعة الأراضى وتوفير الحماية اللازمة لهم للاستمرار فى زيادة الإنتاج وقد كانت فعلاً تجربة ناجحة مكنت المنتفعين من المحافظة على إنتاجية الأرض بل وزيادة الإنتاج واضحة إلى جانب إقامة بنيان تعاونى قوى أمكنه إقامة مشروعات اقتصادية عملاقة ساهمت بصورة فعالة فى حماية الأمن الغذائى للبلاد.

وينص قانون التعاون صراحة على عدم جواز إقامة جمعيتين لهدف واحد فى القرية الواحدة فلابد من أن نصحح هذا التجاوز الذى وافقنا عليه لظروف خاصة وفى مرحلة معينة كان لها مردود كبير فى ذلك الوقت، أما اليوم وقد أصبح فلاح الإصلاح الزراعى مالكا للأرض بعقد ملكية لا يختلف عن فلاح خارج الإصلاح الزراعى فلابد من دمج الجمعيات داخل القرية الواحدة والالتزام بقانون التعاون.

هيئة عامة للتنمية الريفية:

إن الريف المصرى يحتاج إلى آلية نابعة من واقعه ولها خبرات ميدانية صادقة لدراسة مشاكله ووضع خطة تنفيذية محكمة يقوم بتنفيذها وتقود العمل الجماهيرى لحل المشاكل المتراكمة فى الريف المصرى بأسلوب علمى متسلحين بالخبرة التنفيذية المكتسبة من واقع الاحتكاك الطويل بجموع الفلاحين.

فهناك العديد من المشاكل فى الريف تقف حائلاً دون انطلاقه والارتفاع بمستواه الحضارى لتضييق المسافة بين القرية والمدينة.. ويمكن أن نجمل أهم ثلاث قضايا رئيسية تعتبر من المشاكل الحيوية والتى تحتاج إلى أسلوب غير تقليدى فى حلها والتخلص منها فى التالى: الانفجار السكانى وتفتت الملكية وتنمية ريفية متكاملة.

وهى قضايا لن نستطيع أن نخطو فيها خطوات ملموسة دون أن نتعامل معها معاملة خاصة. فهى مشاكل ريفية وذات طابع زراعى ولن نستطيع أن نحلها بدون مؤسسة ذات طابع خاص لها جذور ريفية وحققت إنجازات ملموسة فى تغيير وجه الريف.. وأعتقد أننا لن نجد مؤسسة لها بصمات فى الريف ونجحت فى تحقيق إنجازات رائدة كالهيئة العامة للإصلاح الزراعى.

المالك والمستأجر:

كانت العلاقة بين المالك والمستأجر قبل الثورة غير منصفة للمستأجر بعد أن ارتفعت قيمة الإيجار لأسعار خيالية جعلت الملاك يحصدون كل ناتج الأرض والفلاح لا يسترد قيمة عمله وجهده طوال العام.. فكان القانون منصفًا بأن حدد القيمة الإيجارية وجعل العلاقة ثلاثية: المالك.. المستأجر.. الجمعية التعاونية ووفر للمستأجر كل الضمانات لإيقاف أى تلاعب أو غش فى تطبيق القانون واستمر الحال إلى بداية الثمانينيات حيث بدأ العمل بنظام السوق الحر وأطلقت أسعار المحاصيل الزراعية فأصبح الفلاح المستأجر مستفيداً بزيادة الأسعار للمحاصيل الزراعية دون أى استفادة تذكر للمالك وأخيراً تم عمل فترة انتقالية انتهت عام ١٩٩٦ حيث تركت القيمة الإيجارية لقانون العرض والطلب وآليات السوق.

إن ترك القيمة الإيجارية لقانون العرض والطلب يشترط فى تطبيقه ألا تكون هناك ندرة فى أحد عناصر العلاقة الإيجارية وكلنا نعرف أن الأرض الزراعية فى مصر محدودة المساحة فى حين أن طالبى التأجير أعدادهم غير محدودة فإن ذلك يتسبب عنه اتجاه العلاقة لغير صالح المستأجر وبالتالى إهدار حقوقه فى الحصول على دخل عادل من العملية الإنتاجية ويتمشى مع ذلك تضاؤل أو انعدام الحوافز المؤدية إلى استغلال زراعى كفء، والنتيجة المتوقعة هى سوء استخدام الموارد الزراعية، وتقع آثار ذلك بصورة مباشرة وأشد وطأة على المستأجرين كطبقة تمثل الطرف الضعيف بسبب عدم حيازتها لموارد رأسمالية ثابتة، تدعم مكانتها وتقوى من طاقتها التنافسية فى منوال الاستثمار الزراعى، وثمة فرق واضح بين من يملك ومن لا يملك فى مجال الحيازة الزراعية مما يستوجب أن نعمل لإزالة المساوئ والشرور التى تحيط بالنظم الإيجارية والتى تهدد حقوق أحد أطراف العلاقة الإيجارية.

العمال الزراعيون:

صدر قانون الإصلاح الزراعى متضمناً باباً خاصاً لهذه الطبقة المهضومة الحق ونص القانون على إنشاء لجان لتحديد حد أدنى لأجورهم وكذلك حقهم فى تشكيل نقابات لهم إلى جانب نقابة عامة على مستوى الجمهورية لترسم لهم خطوات المستقبل وتدافع عن حقوقهم المهضومة.

وجاءت فترة الستينيات وتمت العديد من التجارب للأخذ بأيديهم وتنظيم طرق تشغيلهم إلى جانب الجديد من الرعاية الاجتماعية والثقافية ثم كانت الثمانينيات والهجرة المكثفة للعمل فى الدول العربية وأصبحت العمالة فى الريف من العملات النادرة وارتفع أجر العامل بشكل ملحوظ غير أنه بعد حرب الخليج الأولى انقلب الميزان وتمت عودة الأغلبية من معظم الدول العربية وأصبحت العمالة الزراعية تعانى من مشكلتى البطالة والبطالة المقنعة لذلك فمن الواجب أن تتضمن خطة النقابة العامة لعمال الزراعة النقاط التالية لحماية مستقبل عمال الزراعة:

. تنشيط خطة التوسع الزراعى الأفقى والخروج من الوادى الضيق ومن مساحة ٤٪ إلى تعمير الصحراء باستثمارات زراعية وصناعية وسياحية.

. تشجيع تصنيع المعدات الزراعية ونشر استخدامها فى الريف وذلك فى ورش صغيرة داخل المناطق الريفية وكذلك الورش الخاصة بصيانتها وذلك فى إطار التعاون مع معهد بحوث الزراعة الآلية وحتمية استصلاح الأراضى لتقديم العديد من المشروعات الرائدة وفى ظل برامج التدريب المتكاملة معها بعد دراسة تفصيلية لحاجة الأسواق.

. الاتجاه إلى تشغيل المرأة الريفية فى الأنشطة غير الزراعية بالأرض الجديدة وكذلك فى مشروعات النسيج وتصنيع المنتجات الزراعية بهدف التصدير للأسواق الخارجية.

. التوسع فى التصنيع الزراعى المرتبط بإنتاج الأرض مما يحقق امتصاص جزء من فائض العمالة الريفية.

. إعطاء عمال الزراعة الأولوية فى استئجار أو تملك الأرض الجديدة وتوفير الحوافز المادية لهم للاستقرار فى المجتمعات الجديدة.

. وضع خطة طويلة المدى لتدريب الأعداد المتزايدة من عمال التراحيل تدريباً مهنياً وفنياً على استخدام الآلات الزراعية والأساليب الحديثة فى الرى والتسميد وتطهير الترع باستخدام الآلات وصيانتها ثم بعد ذلك تدريبهم تدريباً فنياً متقدماً للعمل بمشروعات التصنيع الزراعى.

ثمة فرق واضح بين من يملك ومن لا يملك فى مجال الحيازة الزراعية مما يستوجب أن نعمل لإزالة المساوئ والشرور التى تحيط بالنظم الإيجارية والتى تهدد حقوق أحد أطراف العلاقة الإيجارية

لغتنا الجميلة .. وإطلالة

[illegible]

※ ※ هذه شهادة على واقع لغوى أعيش فيه وأتعامل معه شاعراً وكاتباً فى المقام الأول، وعضواً فى مجمع اللغة العربية، وباحثاً مهتماً بقضايا «لغتنا الجميلة»، التى أعطيتها ستة وثلاثين عاماً متصلة من خلال البرنامج الإذاعى اليومى «لغتنا الجميلة» الذى بدأت أولى حلقاته فى أول سبتمبر عام ١٩٦٧. هى إذن شهادة، وعصارة تجربة وخبرة، أكثر من كونها بحثاً أو دراسة.

أسئلة واجبة:

لا يمكن تأمل المشهد اللغوى الراهن، بعيداً أو منعزلاً عن الواقع السياسى والاجتماعى للأمة، وواقع الإنسان العربى نفسه صاحب هذه اللغة، والمرتبط بها ارتباط حياة ومصير. تقوى بقوته وتضعف بضعفه، وتتوهج بإبداعاته ومنجزاته، وتنطفئ وتذبل بانطفاءته وذبوله.

وعلى ضفاف المشهد، ومن حوله، تتداعى أسئلة كثيرة واخزة على ألسنتنا وأقلامنا جميعاً، نحن الذين نتخاطب بها ونتفاهم ونتواصل ونبدع: الكاتب والصحفى والعالم والمدرس والموظف والسياسى والأديب والفنان وغير هؤلاء ممن يواجهون مواقف الكتابة أو التعبير:

. إلى أى حد أصبحت هذه اللغة قادرة على النهوض باحتياجات العصر، وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها وانفجارها المعرفى، ملائمة للإنسان العربى وهو يواجه تبعات الواقع الراهن ومسئولياته؟

. إلى أى حد يستطيع الأديب العربى، والمبدع العربى، مواجهة العديد من مشكلاته مع اللغة وهو يكتب ويبدع، محاولاً أن يجد الحلول السريعة لكل ما يعترضه وهو فى حُميا إبداعه من فجوات دلالية وحرفية وبنيوية فى مفردات اللغة وهندسة تراكيبها ومعايير الصواب والخطأ فيها؟

. إلى أى حد يقوم النظام التعليمى والتربوى بدوره المفترض أن يقوم به فى إلغاء حاجز الكراهية بين النشء المتعلم ولغته القومية، وتحبيبه فيها، ومساعدته على تعلمها وإتقانها، واكتشاف أسرارها ومواطن جمالها، ومجالات حيويتها وانطلاقها؟

. إلى أى حد تستطيع هذه اللغة. فى عصر حوار الثقافات والحضارات. كما يقول البعض. أو عصر صراع الثقافات والحضارات. كما يقول البعض الآخر. أن تمارس دورها الطليعى فى حركة الترجمة والتعريب والاتساع لألفاظ الحضارة ومصطلحات العلوم وتنمية المجاز اللغوى، وفتح أبواب التيسير والتطوير والأخذ بأسباب التهذيب والتعديل والتنقيح؟

هذه الأسئلة. وغيرها كثير، تدل على أن وعينا بالمشكلة قائم وحاد. وعلى أن الرغبة فى تجاوز صيغة المشهد القائم. فى جوانب سلبياته وضعفه. عميقة وصادقة. وهى مشكلة تتوزع المسئولية فيها على عديد الهيئات والمؤسسات، فى مقدمتها بالطبع الجهاز التعليمى. بدءاً من المدرسة وانتهاء بالجامعة. وأجهزة الإعلام بدءاً بالصحافة والإذاعة والتليفزيون، والمجامع اللغوية، والأجهزة الثقافية فى المجتمع، والممارسون للغة: كتاباً وعلماء ومبدعين وباحثين.

خريطة الواقع اللغوى:

هذا الوعى بالمشكلة، ينضجه وعى تاريخى يرى فى رحلة اللغة العربية عبر القرون علامات وإشارات دالة، وعناصر أسهمت فى تشكيل هذه اللغة وتغييرها وتطويرها مخاضاً وتفاعلاً. فى مقدمتها أسواق العرب التى عرفت لدى سكان الجزيرة العربية قبل الإسلام. وكانت بمثابة مؤسسات عامة اجتماعية ولغوية وسياسية وتجارية وأدبية، يلتقون فى ظلالها ويخضعون لمتطلباتها. وينتهون إلى قيمها ومواصفاتها. ثم تلا هذه الأسواق. التى كانت تقام فى عكاظ والمربد وذى المجنة والمجاز وهجر وقطر وغيرها. ظهور الإسلام ونزول القرآن دستوراً له، أصبح بمثابة المثل والنموذج والقدوة للتعبير العربى والبيان اللغوى، وعندما بدأت موجة الفتوح الإسلامية للأمصار، أخذاً وعطاء، وسيطرة على مرافق الحياة، وتعبيراً عن متطلباتها، وانفتاحاً على ثقافات القدماء وعلومهم من خلال حركة الترجمة النشيطة فى العصر العباسى، واتساع متن اللغة العربية للمصطلح الأجنبى وألفاظ الحضارة الوافدة من بلاد الروم وفارس والهند ومصر وسائر بلاد العالم القديم. ومع انهيار الإمبراطورية الإسلامية وتفككها، وخضوع الأقطار للتمزق والضعف، وانهارت الحياة الثقافية والعلمية والفكرية، وانهارت بانهيارها اللغة، حتى جاء الغزو الأوروبى للبلاد العربية فى مطالع العصر الحديث، وبدأت مواجهات جديدة، وصراع فكرى وثقافى ولغوى مازلنا نعيش موجاته المتلاحقة حتى اليوم. هذا الوعى التاريخى يكشف عن مستويين من العربية يتجاوران ويتفاعلان فى واقعنا اللغوى الآن: أحدهما هو فصحى التراث أو العربية التراثية، مثلها الأعلى قائم فى الماضى حيث إبداعات الأدب العربى القديم وإنجازاته الشعرية والبلاغية



على قرن جديد: الآفاق والتحديات

فــــاروق شــــوشــــة

الضخمة. ومحاولاته الدائبة للاقتراب من النموذج الأسمى المتمثل في لغة القرآن والحديث النبوي ووصايا البلغاء والخلفاء وكتابات القدماء. وثانيهما هو فصحى العصر أو العربية المعاصرة، مثلها الأعلى قائم في المستقبل، وهو فكرة أكثر منه مثالاً مادياً محدداً، وبحث دائم عن إمكان التعبير الأوفى عن احتياجات الإنسان في واقع جديد متغير، من خلال هموم وأشواق ومطالب وملامح مختلفة، يفرضها تغير الإنسان وتغير الزمان والمكان ومن ثم تغير العقل والوجدان.

والذين يتحدثون عن فصحى العصر أو العربية المعاصرة، يشيرون إليها باعتبارها السجل المكتوب لعلوم العصر الحديث ومعارفه، تتنوع موضوعاتها ومجالاتها بتنوع حضارة المجتمع ومجالات اهتمامه، فهناك العلم بفروعه من طب وحيوان وهندسة وكيمياء وطبيعة وزراعة وفلك ونحت ورسم وتصوير وزخرفة إلى آخره.

وهناك الدراسات الإنسانية من تاريخ وجغرافيا وأجناس واجتماع ولغات واقتصاد وسياسة وقانون إلى آخره. وهناك الأدب من شعر وقصص وروايات ومسرحيات وخيال علمي ورحلات إلى آخره.

وهناك الصحافة والإذاعتان المسموعة والمرئية بموضوعاتها المختلفة وبرامجها المتنوعة تنوع المجتمع نفسه.

وإذا كانت الفصحى التراثية تشبه كتاباً أُغلقت صفحاته وتمت كلماته فلم يعد ثمة مجال لإضافة أو تعديل، فإن العربية المعاصرة تغتني في كل يوم بالجديد من المادة اللغوية في شتى المجالات، وتتسع صفحاتها لفيض هائل من حصاد الترجمة والتعريب والاشتقاق والقياس.

بالإضافة إلى هذين المستويين من مستويات العربية: فصحى التراث وفصحى العصر، يزدحم الواقع اللغوي بثلاثة مستويات من العامية: هي عامية المثقفين وعامية المتنورين وعامية الأميين. وهي مستويات مختلفة من حيث تعبيرها عن فئات وشرائح اجتماعية معينة، ومن حيث قربها أو بعدها عن المستويين الفصيحيين ومن حيث علاقة من يتكلمون بها بالتعليم والثقافة وحظهم من المعرفة. هذه المستويات الثلاثة من العامية تكمل خريطة الواقع اللغوي، وهي بحاجة إلى دراسة مستقلة لا مجال لها الآن.

ثراء العربية المعاصرة

يمثل مستوى العربية المعاصرة أو فصحى العصر، المستوى الأكثر حيوية وتفاعلاً وخوضاً لصراع الحياة والوجود وحملاً لملامح الهوية الثقافية واتساعاً للجديد أو الدخيل، كما كان يسميه القدماء، الوارد من لغات أخرى، بينما يظل مستوى الفصحى التراثية محتفظاً بكل صفات الفصحى القديمة في معجمها من المفردات وطريقة نطقها وصوتياتها ونظام جملها وهندسة تراكيبها. ونحن نطالعها في الكتابات والأحاديث الدينية ونستمع إليها من خلال التمثيليات والمسلسلات الدينية والتاريخية التراثية، التي يحاول مؤلفوها أن يتمثلوا عربية القرون الغابرة وأن يصطنعوا لغة شبيهة أو محاكية بهدف إضفاء الصدق على أعمالهم الفنية.

أما الفصحى المعاصرة، التي يشيع استخدامها الآن. فهي مستودع المعارف والعلوم والفنون والآداب في زماننا تأخذ من الفصحى التراثية نظامها اللغوي نحواً وصرفاً وإعراباً، لكنها تتجاوزها وتزيد عنها في معجمها اللغوي، وفي نظامها الصوتي وفي بنيتها التركيبية وحقولها الدلالية.

ولا شك أننا مدينون لهذه الفصحى العصرية بكثير من الأساليب الشائعة الآن على ألسنة كتابنا وأقلامهم، نتيجة للترجمة عن اللغات الأجنبية، مثل:

بالنظر إلى كذا، جرى كذا وكذا. وفي الوقت نفسه جاء فلان. فلان يعمل ضد فلان. هو يقتل الوقت. هو يمثل بلده في المحافل الدولية. هم عشرة على الأقل (أو على الأكثر). أعطى رأيه في القضية. طرح المسألة على بساط البحث. المسألة الآن تحت البحث والدراسة. تكهرب جو السياسة. ذر الرماد في العيون. يكسب خبزه بعرق جبينه. لا يرى أبعد من أرنبة أنفه. هو يلعب بالنار. لا جديد تحت الشمس. أعطاه فرماناً (تفويضاً) على بياض. أعطاه صوته في الانتخابات. هذه نقطة ارتكاز. يقبض على دفة الأمور. وضع النقط في الحروف. يلعب دوراً في هذا الموضوع. فلان يؤيده الشارع. هو رجل الساعة. كلمه بطرف شفتيه. توترت العلاقات بين البلدين. تلبد جو السياسة بالغيوم. هو حجر عثرة في سبيل كذا. يصطاد في الماء العكر. يشرب في صحة فلان أو على شرف فلان. يضحك ضحكة صفراء. يفعل كذا بصفته كذا. قال ذلك بكل بساطة. هو ينطق بلسان الحال. هذه ترجمة سطحية. موضوع وارد أو غير وارد. دماثته تغذي الفتنة. تطبعية المحل التجاري. هو عظيم بمعنى الكلمة. قام بالمساعي الحميدة. يفعل كذا على ضوء كذا. لا محل له من الإعراب. تأثر بمدرسة فلان في الكتابة. يتمتع بالحصانة النيابية. هو صاحب كرسي في الجامعة. على قدم المساواة. مات ولم يعرف امرأة. يحرق البخور بين يديه. ذهب ضحية مبادئه. ضحى على مذبح أغراضه. أخذ زمام المبادرة. صب عليهم جام غضبه. طلب يد فلانة. أغرق التاجر السوق. من أكبر العاملين في حقل الوطنية. فلان دودة كتب. أحيل إلى التقاعد. أصاب عصفورين بحجر واحد. تصعيد الموقف أو الأزمة. سيولة نقدية. ساعة الصفر. تغطية الحوادث. جمد المال في المصرف. فاتهم القطار. جلسوا إلى مائدة مستديرة. هو على مستوى المسئولية. ينظر إلى المسألة من جميع أبعادها. تبلورت الفكرة. يذرف دموع التماسيح. يعمل على ضوء كذا. يرفع رأس أمته عالياً. أتى على الأخضر واليابس. تحيط به هالة من الرهبة. يضرب الرقم القياسي في كذا. يستغل الموقف. هو كمية مهملة. جرياً على خطته التقليدية. يخلق جواً من الشبهات. حدث هذا في جو يسوده الود. فلان يلعب بالنار. هذا من سر المهنة. من الشخصيات البارزة. يلعب دوراً على مسرح السياسة. يشق طريقه إلى الحياة. رمى له القفاز والتقط القفاز.

هذه الأساليب والتعابير التي لم تعد تستوقف أحداً عند استخدامها، لشيوعها وانتشارها، كان بعض ما يشبهها مثار استنكار وموضع مؤاخذة من بعض علماء اللغة العربية المتشددين في وقت مولدها. في بحث للعالم اللغوي محمد كرد علي ألقاه في الدورة الثالثة عشرة لمجمع اللغة العربية في القاهرة عام ١٩٤٦. جمع عدداً من التراكيب التي وصفها بأنها «ما أنزل الله بها من سلطان» قائلاً. على سبيل السخرية والاستهجان: «جاءنا متفاصحو المترجمين بهذه التراكيب: النزعة الواقعية. القوة الوجدانية. المنافس الموضوعي. الإقليمي. الفكرة الأساسية. الطريقة الاعتباطية. السبب المباشر. العناصر التقدمية والعناصر الرجعية. وطن معنوي مثالي. من حيث الأساس. ضرب الرقم القياسي. النزعات السياسية السائدة. رفع رأس أمته عالياً. استغل الموقف. الحل الحاسم. الروح الوثابة. الرغبة المسلحة. فشلت المناورة. إلخ. ثم يعلق محمد كرد علي بقوله: «ألا تصابون بالبرداء. وقاكم الله شرها. إذا سمعتم مترجماً يقول: هذا الشعور ليس سلبياً بل إيجابياً. وتربية فلان الإيجابية العالية، والمركز الاستثنائي.. إلخ؟

مثل هذا الموقف المتصلب المتزمت. منذ ستين عاماً. يقابله اليوم انفتاح على آلاف التعابير والأساليب والمفردات التي تثري عربيتنا المعاصرة وتزيدها قدرة على الوفاء باحتياجات العصر، ومطالب الإنسان المعاصر.

الدور اللغوي لوسائل الإعلام:

اعتاد كثيرون أن ينظروا إلى علاقة وسائل الإعلام باللغة نظرة سلبية ترى فيما تقوم به هذه الوسائل جناية كبرى على اللغة العربية وتشويهاً لصورتها الصحيحة وإشاعة للأخطاء التي تمس قواعد النحو والصرف والإعراب وهندسة التركيب وقواعد النطق والأداء الصوتي، بل يرون فيها ما يشبه المؤامرة على لغتنا القومية: لغة القرآن الكريم والشعر العربي، ومن ثم فهي مؤامرة على حاضر الأمة ومستقبلها. فما أكثر الأخطاء التي تجري على ألسنة المذيعين والمذيعات ومقدمي ومقدمات البرامج وكثير من ضيوف الإذاعتين المسموعة والمرئية والفضائيات، فضلاً عن الأخطاء التي تحملها الصحف في مادتها الإخبارية ومقالاتها وتحليلاتها وحتى في بعض عناوينها الرئيسية، دون أن يواجهها تصحيح أو تصويب!

وقد لا يتسع المجال لنماذج وعينات من هذه الأخطاء التي عنى بجمعها وتصنيفها عدد من علمائنا اللغويين في مقدمتهم

العالم الراحل الدكتور أحمد مختار عمر في كتابيه «العربية الصحيحة» و«أخطاء الكتاب والإذاعيين». لكن لا بأس من الإشارة إلى بعضها مثل الخلط بين المفرد وجمع المؤنث السالم في انتهائه بألف وتاء مثل «رفات» التي هي مفردة وليست جمعاً مؤنثاً سالماً، ومثلها: فتات وسبات وسكات وفرات.

ومثل الكلمات المفردة المنتهية بألف وتاء مربوطة حين تضاف إلى الضمير مثل: مداواة ومساواة ومناجاة، فهي تلتبس لدى هؤلاء بجمع المؤنث السالم مثل: مداواته، مساواته، معاداته، مجاراته، مناجاته، منادته، معاناته، مضاهاته إلى آخره.

كما يقع «الالتباس» المؤدي إلى الخطأ، في جموع التكسير التي تنتهي بألف وتاء مربوطة حين تضاف إلى الضمير، فتلتبس بجمع المؤنث السالم مثل: قضاتنا، هداتنا، نحاتنا، طغاتنا، دهاتنا، رواتنا، رعاتنا، حُواتنا. كذلك المفردات التي تنتهي بتاء حين تجمع مثل: وقت وأوقات، وبيت وأبيات، وثبت وأثبات، وصوت وأصوات، وقوت وأقوات.

ومثل منع كثير من المفردات من الصرف لانتهائها بألف وهمزة مثل: أبناء، أنباء، أثناء، أجزاء، أجواء، أحشاء، أخطاء، أعداء، أعضاء، أكفاء، أضواء، وهي كلمات غير ممنوعة من الصرف وحقها التنوين.

وصرف كثير من الكلمات التي تستحق منع الصرف مثل: أطباء، علماء، أبرياء، أذكياء، أسوياء، أشقياء، أنبياء، أحياء، أدلاء، أرقاء، أشحاء، أعزاء، ومثل: بخلاء، حكماء، حلفاء، رحماء، زعماء، سعداء، سفراء، شركاء، شعراء، شهداء، صرحاء، ندماء، فصحاء، إلى آخره.

ويقولون: أمر ملفت والصواب أمر لافت، لأن الفعل لفت لا ألفت.

وضوء مبهر، والصواب ضوء باهر، لأن الفعل بهر لا أبهر.

ويقولون: عرض مصان وصوابه مصون.

ورجل مهاب وصوابه مهيب.

وشيء مباع وصوابه مبيع.

وأمر مشين وصوابه شائن.

وأمر هام وصوابه مهم.

وشيء مصاغ وصوابه مصوغ.

ويقولون اعتذر عن الحضور والصواب اعتذر عن عدم الحضور.

ويقولون عامود والصواب عمود.

ويقولون خارطة والصواب خريطة.

ويقولون كنا سويا والصواب كنا معا (لأن سويا معناها مستويا لا عيب فيه).

ويقولون في تثنية «دعوى»: دعوتان والصواب: دعويان.

ويقولون مشتروات والصواب مشتريات

ويقولون: أجهزة التصنت بمعنى الاستماع والتسمع على الآخرين. وليس في اللغة تصنت أو صنت، لكن فيها نصت وأنصت. فيكون صواب التعبير: أجهزة تنصت.

ويخطئون في التفرقة بين: رَوع ورُوع، وخَلد وخُلد، وعَلاقة وعِلاقة، وخَصلة وخِصلة، وحَمل وحِمل، وسَجن وسِجن، وأَذان وآذان، وغَداء وغِذاء، وعَشاء وعِشاء، وجَزم وجِزم، وشَيق وشائق، ووَفيات ووِفيات إلى آخره.

والذين يركزون على سلبيات الأداء اللغوي في أجهزة الإعلام محقون، لكنهم يهتمون بنصف الكوب الفارغ، ولا يقتربون من نصفه الممتلئ. ولقد كتب الأديب الكبير نجيب محفوظ ذات يوم معلقا على هذه السلبيات بقوله: «من حين لآخر تثار مشكلة اللغة العربية في الإذاعة والتليفزيون، وكيف تلقى على الناس متعثرة بأخطاء النحو والنطق، وكيف تعمل على نشر الخطأ على أوسع نطاق بقوة التليفزيون وهيمنته على الحواس والأذواق». كما كتب الكاتب الكبير الراحل أحمد بهاء الدين يقول: «بعض المسئولين في التليفزيون يعتبرون مأساة اللغة العربية في التليفزيون غير مهمة، كلا يا سادة. مفهوم أن يخطئ وزير أو موظف كبير مثلاً، ولكن الذين وظيفتهم الكلام باللغة العربية يجب عليهم أن يتلقوا الدروس وأن تكتب لهم المادة التي يقدمونها مع الضبط الصحيح والتشكيل الدقيق».

ويطالب العالم اللغوي الراحل الدكتور أحمد مختار عمر بضرورة التدريب اللغوي على أسس جديدة، لا تركز فقط على قواعد النحو. ففي رأيه أن أخطاء الضبط النحوي هي أقل ما يقع في كلام المذيعين، أما أكثره فيعود إلى أخطاء الاشتقاق الصرفي وأخطاء الضبط لبنية الكلمة. كما يطالب بإلزام المتحدثين الضيوف المشاركين في حوار معين أو برنامج خاص، أو الذين يجيبون عن أسئلة المستمعين والمشاهدين، باستخدام العربية الصحيحة في أحاديثهم وإجاباتهم. فمن العار - كما يقول - أن يتكلم كثير من أصحاب الأسماء الكبيرة المعروفة في السياسة أو الاقتصاد أو الأدب بالعامية المصرية أو بلغة عربية مشوهة.

نقترب الآن من نصف الكوب الملآن، من الوجه الآخر للصورة المتضمن للعديد من الآثار الإيجابية للغة المستخدمة في وسائل الإعلام: الصحافة والإذاعة والتليفزيون. اللغة التي تحرص على أن يفهمها أكبر عدد من أفراد المجتمع على اختلاف مستوياتهم وأفهامهم وأذواقهم. لذا، فهي تتميز بالبساطة والوضوح وتنأى عن التعالي والإغراب وعن الحوشي والمهجور والممات من اللغة. وتميل إلى الإيجاز والتشويق، فضلاً عن محاولاتها الدائبة لاستعادة الشكل المنطوق والمسموع للعربية عبر قنوات الاتصال الإذاعية والتليفزيونية على ألسنة العاملين فيها، وبالتالي على ألسنة المواطنين. هي - إذن - المجال اللغوي الوحيد في مصر الذي يقدم الفصحى في صورتها الحية المنطوقة، من خلال منظومة صوتية وصرفية ونحوية. وهو مجال لا ينافسها فيه منافس في مدرسة أو جامعة أو أي مكان آخر.

إنها - في تعريف بعض علمائنا اللغويين - المستجيب الأول لاحتياجات الجماهير التعبيرية، والمبتدع الأساسي لمعظم المادة اللغوية المستحدثة، والمضخة التي تتدفق في شرايين اللغة العربية، من حين إلى حين، بآلاف الكلمات والتعبيرات الضرورية، التي قد تعجز المجامع عن ملاحقتها ومتابعتها، وحين تتنبه المجامع لهذا الجديد المستحدث يكون قد فرض نفسه على أبناء اللغة. فكأن أجهزة الإعلام الآن تقود حركة المجامع وتتقدم مسيرتها.

من بين ما يشيع الآن على الألسنة والأقلام بفضل هذه الفصحى المعاصرة في أجهزة الإعلام: برنامج النفط مقابل الغذاء - رسم خريطة جديدة للمنطقة - خريطة الطريق - الخصخصة - الاستنساخ - العقوبات الذكية - القنابل الذكية - القنابل الصديقة - القتل الرحيم - اللجوء السياسي - الإقامة الجبرية - التطهير العرقي - غسيل الأموال - المدخلات والمخرجات - إعادة الهيكلة - الازدواج الضريبي - الشراكة الأوروبية - الناتج المحلي والقومي - التضخم - اليورانيوم المستنفد والمخصب والمنزوف والناضب - العولمة - الكونية - عقدة الخواجة - دول الطوق - تجميد الأموال - جماعات الضغط - الحرب الباردة - اقتصاد السوق - خفض معدل التضخم - الممارسات القمعية - هندسة وراثية - التلاعب بالجينات - التصحر - مصادر الطاقة البديلة - التقنية الحديثة - الإغراق الاقتصادي - هشاشة العظام - النشطاء (جمع ناشط) - الجمرة الخبيثة، إلى آخره.

التأمل في هذه العربية المعاصرة في وسائل الإعلام مكتوبة ومسموعة ومنطوقة، يكشف عن توسعها في القياس، فكأنها سارعت إلى فتح أبواب الاجتهاد اللغوي على مصراعيه، مثل الإكثار من توليد أفعال على صيغ فعل وفوعل وفعلن، والإكثار من صوغ المصدر الصناعي من كل اسم جامد أو مشتق، والتوسع في صيغة جمع الجمع، والنسب بزيادة الألف والنون وزيادة الواو، والنسب إلى ألفاظ الجموع وإلى جمع المؤنث السالم، والتوسع في الاشتقاق من الأعيان والأسماء المزيدة، واشتقاق اسم المفعول من الفعل اللازم بعد إسقاط الجار والمجرور وهكذا.

لابد - كما يقول الدكتور أحمد مختار عمر - من إلقاء الضوء على أولئك الجنود المجهولين في هذه الأجهزة الإعلامية في الصحافة والإذاعة المسموعة والإذاعة المرئية، الذين يقبعون خلف الكواليس، يسابقون الزمن في ملاحقة آخر المستجدات على الساحتين المحلية والعالمية، ويجتهدون في التعبير عن متطلبات العصر، ويتولون الترجمة من لغة المرسل إلى لغة المتلقي في وقت قياسي، يستوجب أخذ القرار الفوري، وابتداع اللفظ لحظة التفكير فيه، دون أن يسعفهم عامل السرعة وضغط الحاجة الملحة بالرجوع إلى المعاجم، أو استفتاء أهل الاختصاص أو استشارة المجمع اللغوي.

إنهم - كما قال عنهم الدكتور أحمد مختار عمر بحق - يشكلون ورشة عمل

إذا كانت الفصحى التراثية تشبه كتاباً أُغلقت صفحاته وتمت كلماته فلم يعد ثمة مجال لإضافة أو تعديل، فإن العربية المعاصرة تغتني في كل يوم بالجديد من المادة اللغوية في شتى المجالات



تطرق الحديد وهو ساخن، وتطرح اجتهاداتها في اللحظة المناسبة، وتعمل بحكم التفويض الجماهيري على التعبير عن الأحداث والأشياء وكل المستجدات المفاجئة. فتسد بذلك فراغات ما كان ينبغي أن يُترك لأهل اللغة أو المجامع اللغوية يتداولون في أمرها طويلاً: فيختلفون ولا يتفقون. وقد كانت مرجعية هؤلاء المبدعين للغة في وسائل الإعلام ذوقهم اللغوي المتميز، وحساسيتهم التعبيرية الفائقة، واستغلال قدرات اللغة وطاقاتها الكامنة، واستفادتهم من عبقريتها في الاشتقاق وتوليد آلاف الجمل والعبارات. فكان التوفيق - في كثير مما يبدعونه - حليفهم.

لا يُنسى لهذه الوسائل الإعلامية أيضاً قيامها بدور فعال في التنمية اللغوية لدى المتكلمين والمستخدمين للغة، وفي إثراء معجمهم اللغوي الذي يتسع يوماً بعد يوم للجديد من أمور الحياة العامة وشئونها المختلفة. وفي القضاء على حاجز الأمية بالنسبة للملايين الذين لم تعقهم أميتهم عن المتابعة والمشاركة في كثير مما تقدمه هذه الأجهزة الإعلامية من خلال الاستماع والمشاهدة. الأمر الذي يزيد من مساحة الوعي والقدرة على المشاركة والانتماء. فضلاً عن قيام هذه الوسائل بمهمة التقريب بين اللهجات والمستويات اللغوية المختلفة، مما يتطلب دراسة ميدانية تعكف على البحث في الواقع الميداني وتحليل ما يحدث فيه من تغير وتطور.

إن اللغة في وسائل الاتصال ناقلة وخالقة. فهي ناقلة لصورة المجتمع اللغوي بكل ما يضطرب فيه من إيجابيات وسلبيات، وبالتالي فهي ليست مغايرة لما يحدث بالفعل في المجتمع كله: مؤسساته التعليمية والتربوية والثقافية والسياسية والاجتماعية وغيرها، من اختلاط وضعف وتدنٍ واتساع وتطور وإضافة.

وهي خالقةٌ للجديد من المادة اللغوية التي تلبي احتياجات وضرورات يومية وعاجلة، من خلال توسعها في القياس والاشتقاق والنحت والتعريب وفتح أبواب الاجتهاد على مصاريعها. وبين الأمرين معاً: النقل والخلق تكمن أبعاد الدور والمسئولية، أمام الباحثين عن السلبيات والإيجابيات.

صيحات تجديدية:

لاشك في أن مطالب المثقف المعاصر وهمومه مع اللغة، أصبحت تتمثل في مواجهة عصرية لمشكلات بالغة التعقيد والتغير، ومواقف مصطبغة بإيقاع العصر وحس الحداثة ونبض التطور. واللغة بهذا المعنى - وعاء حضاري تتجسد من خلاله المطامع والأشواق والفنون والعلوم والمعارف والإنسانيات وغيرها، كما تتمثل في هذا الوعاء جهود المجتمع في اللحاق بغيره من المجتمعات التي سبقته، وجهوده في تطويع الأفكار الجديدة لبنية اللغة ومفرداتها.

هل نبدأ من الحديث عن مناهج اللغة العربية في مدارسنا، وعما تعانيه من قصور وابتعاد عن الهدف والغاية؟ إن كلاماً كثيراً يقال أيضاً عن مدرس اللغة العربية ومستوى إعداده وتهيئته لواجبه الخطير، والظروف التي يمارس من خلالها عمله اليومي الشاق، وعن البنية المدرسية التي يُفترض قيامها بتعزيز ما يقوم به هذا المدرس الكادح من جهود: وهو أثر قائم بالسلب، يهدم في معظم الأحيان ما يبنيه مدرس اللغة في ساعات المكابدة والمعاناة، ثم هناك البيئة الكبرى للمجتمع، وكيف تتضافر عناصرها ومجالاتها لتقويض ما تحاول المدرسة أن تغرسه من دروس اللغة والتعبير. يتسع مدار المسئولية بحيث يشمل البيت ومكان العمل ودواوين الحكومة والإذاعة والمسرح والسينما والتليفزيون، ويتسع أكثر ليشمل التربية اللغوية على مستوى المجتمع كله، ويتسع أيضاً لتناسر البعض واصطيادهم لأخطاء المذيعين والمذيعات وغيرهم من العاملين في أجهزة الاتصال.

لكننا لا نلتفت - في زحام المناقشات والانتقادات - إلى ما هو أجلّ وأدهى، إلى طبيعة علاقتنا كمجتمع بلغتنا القومية، وإلى ضرورة قيام تخطيط على مستوى قومي، يبحث الظاهرة في زواياها ومجالاتها كافة، دارساً لها في محاورها وأبعادها الثلاثة: طبيعة العربية المعاصرة وتوصيفها ومدى تمايزها واختلافها عن العربية التراثية، وعدم قدرتها على الوفاء بتحديات الحضارة ومتطلبات العصر، ثم الدائرة التربوية بما تتسع له من حديث المناهج والمعلم والمدرسة وطرق التعليم والنشاط اللغوي في المدرسة، وأخيراً دائرة المجتمع التي تؤدي فيها وسائل الإعلام دوراً رئيسياً، فضلاً عن أجهزة الثقافة ومؤسسات الدولة الأخرى باعتبارها جميعاً مسئولة عن وضع لغتنا الجميلة في المجتمع.

ذلك أن كثيراً من أزمة تعلم هذه اللغة، وحب النشء المتعلم والتفاته لها، يعود إلى عقم المنهج المدرسي وسوء اختياراته، وتخلف طرق التدريس وتخلي المعلم عن دوره، والعجز عن تيسير القواعد، وتدريس تاريخ الأدب مستنداً إلى فكرة العصور الأدبية المرتبطة بالعصور التاريخية، وتقسيم البلاغة وقواعد الإملاء، والتوسع في موضوعات البلاغة العربية وعزلها عن الوظيفي في الإبداع الأدبي، وغيرها من الموضوعات التي تستلزم إنشاء نظرة عصرية موضوعية، ورؤية منهجية، غير جامدة أو متعصبة، وفكراً منفتحاً يتكئ على دعائم من وعي التراث واستيعابه وتجاوزه والانطلاق إلى آفاق المعاصرة والحداثة، والانغماس في ثقافة العصر وروحه مشاركين ومتفاعلين، دون أن تنبت الوشائج الحية بين الماضي والحاضر.

بهذه النظرة تستقيم الصورة، وتصبح لغتنا الجميلة بما تحمله وتنقله، بمثابة الطاقة تسير وتحثنا إلى الوراء بحثاً في زوايا الماضي البعيد عن أيام الازدهار ودستور البلاغة والفصاحة وأسس التفاضل في التعبير.

ولقد كان عميد الأدب العربي الراحل الدكتور طه حسين من أسبق الذين التفتوا إلى حقيقة هذه النظرة العصرية المتكئة على الوعي بالتراث واستيعابه، وهو يقول: «الظاهرة التي يمتاز بها أدبنا والتي تمكننا من درسه وتذوق أطواره هي أنه قديم جداً وحديث جداً، أي أنه من قديمه يحتفظ اتصالاً مستمراً لا انقطاع فيه ولا التواء فيه، خصائص الأدب القديمة، وفيه خصائص الأدب الحديثة، وفيه ما يمكننا من استخلاص حديثه من قديمه، وما يغنينا عن كثير من الشروح».

أما العرب (وأيضاً لغتنا العربية) كانت هي أشبه شيء بالشجرة العظيمة التي ثبتت جذورها وامتدت في أعماق الأرض، والتي ارتفعت غصونها وانتشرت في أجواز السماء، والتي مضت عليها القرون والعصور وما زال ماء الحياة فيها غزيراً يجري في أصلها الثابت وفي فروعها الشاهقة في السماء.

ولا يغيب عن طه حسين الالتفات إلى عبقرية لغتنا الجميلة الموسيقية، وكيف أصبحت هذه الموسيقية روحاً متسللة في شرايين الإبداع الأدبي حين يقول: «أدبنا العربي لا يوصل الاستماع إليه قليلاً أو كثيراً، وإنما يعنى بها أشد العناية، فهو أدب منطوق مسموع قبل أن يكون أدباً مكتوباً مقروءاً، وهو من أجل ذلك حريص على أن يلائم اللسان حين ينطق به ويلائم الأذن حين تسمع له، ثم يبلغ بعد ذلك النفوس والأفئدة حين تصغي إليه».

وليس أدل على ذلك من أن العرب في جميع عصورهم لم يعنوا بشيء قط عنايتهم بفصاحة اللفظ وجزالته، ورقة الأسلوب ورصانته، وقد جعلوا الإعراب ومقتضاه النطق والملاءمة بين الكلمة والكلمة في الجرس الذي يجري على اللسان منطلقاً ويزين في الأذن وقعه، أساساً لكل هذه الخصال.

ويقدم العالم اللغوي الراحل الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه الرائد «دلالة الألفاظ» تفسيراً لذلك: فقد عني العرب القدماء بموسيقية الكلام لأنهم لم يكونوا أهل كتابة وقراءة، بل أهل سماع وإنشاد. والموسيقى لازمة في ينشئ ويسمعون الإنشاد، أو ينشد فيحسن الإنشاد ويسيطر على الأسماع. فهي إذن لغة أذن وليست لغة عين، ولغة الأذن لا تخاطب إلا الجوانب الموسيقية في النفس، وتعتمد على الجرس: جرس الكلمة واللفظة وجرس الجملة والعبارة. ومن هنا كانت المحسنات اللفظية والبديعية، وكان الجمع: السجع اللفظي والسجع المعنوي في مقتنع تسوده الأمية، وينتقل فيه التراث من جيل إلى جيل بالرواية والرواة.

في مقابل هذا التعبير



كتاب الزاوية

مذكرات أحمد شفيق باشا

الأفـــراح

كان أكابر القوم يبالغون فى نفقات الأفراح ويبذرون المال بغير حساب، سواء فى المآدب أو الزينات ومعالم الأفراح. ولا يكتفون بليلة واحدة، بل يحيون فى العادة ثلاث ليال، منها ليلة الخضاب «الحناء» وهى التى تقام قبل ليلة الزفاف بمنزل العروس.

وفى ليلة الزفاف كان العريس يرسل العربات الفخمة مع والدته لأخذ العروس من بيت أهلها. وتكون العربة المخصصة لها مزينة بالشيلان الكشميرية، يجرها اثنان أو أربعة من جياد الخيل، ويخفرها اثنان من الأغوات على الجياد، «والمقدم» التابع للعروس، وهو يسير على قدميه بجانب العربة. وكان هؤلاء الثلاثة والسائس يرتدون «شيلانًا» من الكشمير تهدى إليهم من العريس. وكان المتبع فى سير الموكب أن تتقدم والدة العريس على العروس لتقودها إلى المنزل، ثم تتلوهما والدة العروس. ويسير هذا الموكب خلف الموسيقى فيطوف بعض الشوارع المهمة حتى يأتى إلى منزل العريس، فيتقدم هنالك لاستقبال عروسه، فتأبى وتتمنع، ولا تنزل إلا بعد إلحاح كثير. وعندئذ تنحر الذبائح على عتبة باب المنزل ويسير العريس مع عروسه حتى باب الحريم بين صفين من الأغوات فى فناء المنزل يمسكون بالشيلان الكشميرية لمنع الرجال من رؤية العروسين. ثم يستقبلهما المغنيات «العوالم» ويسرن أمامهما فى وسط المدعوات إلى «الكوشة». وفى أثناء ذلك تبذر «البدرة»، وهى عبارة عن نقود ذهبية صغيرة من ذات الخمسة القروش، أو فضية من ذات القرش الواحد، يبذرها أهل العروسين على رأسيهما والغرض منها صرف الحاضرات عن النظر للعروسين منعًا للعين».

من المحسنات، الذى نبه إليه العالم اللغوى الدكتور إبراهيم أنيس، تجىء صيحة أديبنا الكبير يحيى حقى تحت عنوان «حاجتنا إلى أسلوب جديد» مناديًا بما أسماه بالأسلوب العلمى الذى يعتمد على تحديد المعانى، ومن ثم اختيار ألفاظ محددة لها، ألفاظ حتمية، بحيث لا يكون المكان صالحًا إلا للفظ واحد، ويتعذر أن يستبدل به لفظ آخر. فإذا فعلنا ذلك أزلنا، دفعة واحدة، عن أسلوبنا كل علل الزيف والتبرج الفارغ والتزويق الذى لا طائل تحته.

وفى رأى يحيى حقى، أنه متى تحددت الألفاظ وأصبحت حتمية، زال الاستطراد، وعيب الإضافة. ومال الأسلوب إلى الجمل القصيرة التى ترتبط برباط ذهنى لا لفظى، فتقل بذلك الزيادات، وهى عوائق لاداعى لها، من كثرة حروف العطف، فإن سير الذهن فى الأدب ليس خطوًا متتابعًا رتيبًا، بل هو توثب يفرض على ذهن القارئ توثبًا مثله يخرجه من سكون الى حركة. وستخرج أيضًا من الإطالة والإفاضة إلى الإيجاز النبيل الكريم، وهو سر البلاغة فى العربية.

ويحيى حقى، فى دعوته هذه، يؤكد أنه لا يقصد بهذا الكلام الأسلوب (التلغرافى) الذى نادى به آخرون منهم سلامة موسى، إنه يتكلم عن الأسلوب الأدبى، الجمال من شروطه الأساسية التى لا غنى عنها، ولا يوجد فن بلا صنعة.

ثم هو لا ينكر موسيقية اللغة والأسلوب. إنه على العكس يتمسك بها. ويحرص عليها حرصًا شديدًا. لكنه يقصد بها الموسيقى الهارمونية لا موسيقى الدفوف التى تعزف لحنًا واحدًا، هذه الموسيقى الهارمونية لها إيقاعات مختلفة لكل مجال فى النص الواحد، متشابكة، ولكن يتمشى فيها من أولها إلى آخرها لحنها الأساسى الأوحد المتعدد الألوان، بحيث تستمد موسيقى



الأسلوب لا من الأثر البدائى الآلى الذى يولد ويموت عند التلفظ بالكلمات والانبهار بأول رنينها، بل تستمد من روح الكاتب أو الشاعر، من نفسه، مزاجه، شعوره، فيضه، انطلاقه.. موسيقى تسمو على الأثر الساذج الفقير البسيط إلى لحن غنى أعمق متشابك، ينشأ بالتأمل الشامل والصبر. ستكون هذه الموسيقى فى حقيقة الأمر، لا الألفاظ مهما حذقت، هى المعبرة عن المعانى!

لقد جاءت دعوة يحيى حقى إلى أسلوب جديد، مستندة إلى ركائز أساسية فى رأيه، هى التحديد والحتمية والعمق فى مواجهة ظواهر مرضية شائعة، هى الميوعة والسطحية والسذاجة!

لغتنا الجميلة..

ولكن أى جمال؟

هل يكمن هذا الجمال فى كل ما اتسعت له فنون البلاغة العربية، كما يضمها موروثها العريض، فى دوائر علوم المعانى والبيان والفصاحة والبديع، بحيث تستوقفنا منظومة هذه البلاغة تشبيهًا واستعارة وإيجازًا ومساواة وكنايات ورموزًا وملاءمةً لمقتضى الحال ومراعاة للموقف والسياق؟

هذا المفهوم البلاغى الجمالى التراثى ارتكز على مفهوم الفصاحة واللَّسن الذى جسده بيت الشاعر زهير ابن أبى سلمى:

لسان الفتى نصف، ونصف فؤادُه
فلم يبقَ إلا صورة اللحم والدم

والمقولة العربية المأثورة: المرء بأصغريه: قلبه ولسانه.

والحديث الشريف: «إنَّ من البيان لسحرا».

غير أن المفهوم العصرى لجمال العربية يأخذنا إلى «عصرية» اللغة، وإلى جمالها الوظيفى، فى كونها قادرة على الوفاء باحتياجات العصر، متسعة لكل جديد فيه من ألفاظ الحضارة، أى ألفاظ الحياة العامة الجديدة والمستحدثة، ومصطلحات العلوم. من هنا، يصبح للجمال معنى مغاير وفضاء مختلف. إنه القدرة على استيعاب الجديد وهضمه وتمثله، والقدرة على إيجاد الحلول للعديد من المشكلات والمواقف المستجدات، من منطلق أن هذه العربية المعاصرة هى السجل المدون والمكتوب والمنطوق لعلوم العصر الحديث ومعارفه، تتنوع مجالاتها بتنوع حضارة المجتمع وعلومه وفنونه. الجمال هنا يتجلى فى مفهوم وظيفى وحقول دلالية مغايرة، وضخ الآلاف من المفردات والتعابير

والتراكيب التي تتطلبها حياتنا العربية الجديدة، الممتلئة والمتفجرة بالمعرفة الإنسانية يوماً بعد يوم، ولا نستطيع ملاحقتها، مهما حاولنا، بأية صورة من الصور.

يكفي أن نتأمل الآن نماذج تسيل بها أقلامنا وتنطق بها شفاهنا حين نقول: عقلنة العمل العربي، عصرنة المجتمع، شخصنة الأزمة (أي التركيز على الجوانب الشخصية على حساب القضايا الحقيقية)، قرضنة الموقف (أي فرض صيغة قرضاي في أفغانستان على بلاد أخرى): المناداة بالوطننة قبل العولمة.

وأن نتأمل العديد من المصادر الصناعية التي صيغت من أسماء جامدة أو مشتقة مثل: «الندية، الحتمية، العفوية، العقلانية، الإشكالية، التلقائية، الانقرائية (أي القابلية للقراءة)، ومثلها من المصادر: التبادلية، التراجعية، التواطؤية، التعادلية، التصادمية، التراجعية. ومن الظرف: التحتية، الفوقية، الخلفية، الدونية، الوسطية.

ومن اسم الفاعل: الجاذبية، العاقلية، الهامشية، التابعية، الفاعلية.

ومن اسم التفضيل: الأحقية، الأفضلية، الأسبقية، الأهمية.

ومن الجموع: الجماهيرية، الحدودية، الرجالية، الشبابية، الاستخباراتية، العملياتية، المعلوماتية.

ومن الضمائر: الأنانية، الهوية (الأولى من «أنا» والثانية من «هو»).

والنسب من الجموع (والقاعدة القديمة تنص على أن يكون النسب من المفرد لا الجمع): درس أخلاقي، اتحاد طلابي، تدريب مهني، بحث وثائقي، رسائل إخوانية، مدن سواحلية، مطالب جماهيرى، روابط أسرية، تقارير صحفية، صوت ملائكي.

واشتقاق مصادر جديدة من أسماء جامدة: أسلمته من إسلام، تطبيع من طبعه، أقلمة وتأقلم من إقليم، أرجحة من أرجوحة، تلفزة الحفل، بلورة الفكرة، حوسبة ملف القضية، تسييس الدين، جدولة الديون، تحجيم الخصوم، تسييد الموقف.

ومثلها الأفعال الجديدة: يتموضع، يتمفصل، يتمحور، يتمسرح، يتمدين، يتأنسن (أنسنة المعلومات).

فتح باب

الاجتهاد اللغوي:

إن فتح باب الاجتهاد في اللغة، اشتقاقاً ونحتاً وتعريباً وقياساً ومجازاً وتيسيراً، هو طريقنا الوحيد إلى المستقبل وسعنا لغة عصرية قادرة على اقتحام هذا المستقبل والإسهام فيه علماً وإبداعاً وقياماً بالمسئوليات ووفاء بالاحتياجات. هو طريقنا الوحيد إلى عربية معاصرة تتسع للثقافة العلمية وتطور العلم والتكنولوجيا، وعربية معاصرة تتسع لمغامرات الإبداع الأدبي وفنونه، وفضاءاتها التي لا نهاية لتخومها وأبعادها، وعربية معاصرة تصبح عروة وثقى لهويتنا وثقافتنا في حوار الثقافات والحضارات واللغات، عربية معاصرة تسد الثغرات المعجمية حين نبحث عن كلمة فلا نجدها، أو عن دلالة عصرية لمفردة معجمية فنفتقدها، ونضطر، تحت ضغط الحاجة الملحة في كثير من الحالات، إلى القبول بالكلمة الأجنبية. هنا يصبح جمال العربية، في تجلياته الوظيفية العصرية، دفاعاً عن عروبة القلم واللسان، عن «الهوية» التي لا نريد لها أن تضيع أو تهتز أو تتلاشى في هذا الفيض الكوني الهائل، مما تضخه الكيانات العظمى من ثورة معلوماتية ومصطلحات علمية وألفاظ حضارة في شتى فروع المعرفة.

في إطلالة لغتنا الجميلة على مستهل قرن جديد، لابد لنا من وقفة قومية مع الواقع اللغوي الراهن والمأمول، وفتح باب الاجتهاد في اللغة (اللغة التي هي في حقيقتها انتماء وهوية) وعدم ترك أمور اللغة وقضاياها للغويين وحدهم، لأنها قضية المجتمع كله، وقضية الحياة الجديدة كلها، لا تتحكم فيها هيئة أو مؤسسة أو مجمع، ولا تدير شئونها وزارة أو وزارات، لأنها مسئولية كل المواطنين، وبصفة خاصة: كل المثقفين والعلماء والكتاب والمبدعين.

هامش أخير

من المفيد الرجوع إلى كثير من الأبحاث اللغوية المعصرية التي تركز على «العربية المعاصرة» لعدد من علمائنا اللغويين: الدكتور إبراهيم أنيس، الدكتور السعيد محمد بدوي، الدكتور كمال بشر، الدكتور أحمد مختار عمر، الدكتور محمود فهمي حجازي، الدكتور محمد حسن عبد العزيز.. بالإضافة إلى وثائق المؤتمر الأخير لمجمع اللغة العربية في القاهرة (أبريل ٢٠٠٣) ووثائق المؤتمر الأول لقسم علم اللغة في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة (ديسمبر ٢٠٠٢) وأبحاث الموسم الثقافي الحادي والعشرين لمجمع اللغة العربية الأردني (مايو ويونيو ٢٠٠٣) وقد أفدت منها جميعاً في التوثيق العلمي وفي التزود بالنماذج لهذه الشهادة.■

كتاب الزاوية



مذكرات أحمد شفيق باشا

المآتم والجنائز

كان نظام الجنازة بالنسبة للأسر الغنية أن يتقدم الموكب «الضحايا» من الجاموس أو البقر، ثم «الكفارة»، وهي جمل يحمل صندوقين «صحارتين» مملوءتين بالخبز، وقد اقتعد غارب الجمل رجل يوزع طول الطريق مما عبئت به الصناديق من الخبز، كما يتبعه جمل آخر على نفس الصورة لتوزيع التمر الجاف والفاكهة ثم طائفة من عسكر البوليس ركباناً أو مشاة، ثم أرباب الطرق المختلفة والمولوية، وقراء دلائل الخيرات، وحاملو القماقم والمباخر ينثرون ماء الورد وأريج البخور في الطريق وقد حزمت أوساطهم بقماش رقيق من الحرير «الزردخان»، ثم غلمان المكاتب ينشدون قصيدة البردة المعروفة، فالنعش يتبعه أهل المتوفى والمعزون، ثم السيدات وتنحر الذبائح على باب القبر عند وصول النعش، وتوزع لحومها على الفقراء.

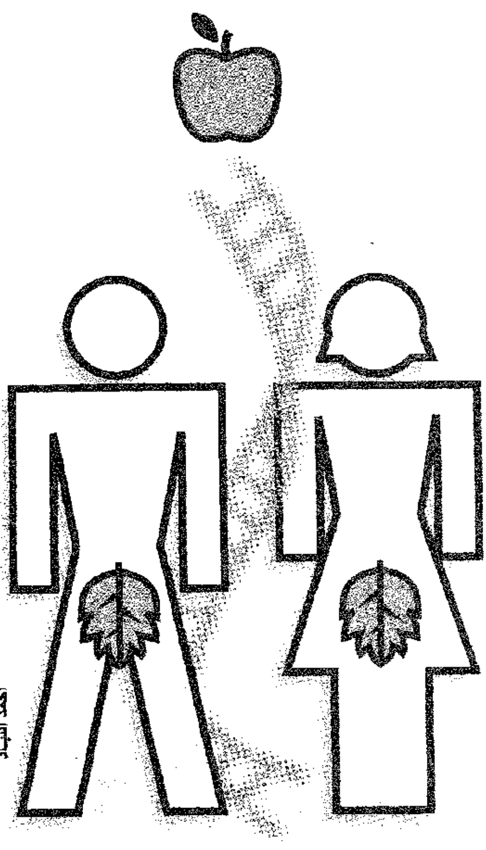
أما المآتم فكانت مظاهر الحزن في الأسر الكبيرة رزينة، وفيها حشمة ووقار، وكانت ليالي المأتم في العادة ثلاثاً، ثم تقام بعد ذلك حفلات متعاقبة في الأخمسة الأربعة التالية: وكانت تنصب السرادقات، وتمد فيها الموائد الكثيرة للمعزين فكانت حالة ينطبق عليها المثل العامي «موت وخراب ديار» يختم ذلك بليلة الأربعين.

أما المظاهر المفجعة الشديدة فكانت تبدو في الطبقات المتوسطة والدنيا، حيث كانوا يشيعون الميت بالندب، والعويل، ولطم الخدود حتى المدافن، ثم يحضرن النادبات في الأيام الثلاثة والأخمسة، وكان المتبع عندهم أن تصبغ الملابس بالنيلة وأن يغطى الأثاث بالسواد، وظلت هذه العادة حتى ألغيت بأمر الخديو توفيق.

فى المستقبل، سنكون بالفعل «آلات من لحم»، كما يقول بعض العلماء، وفى الوقت الراهن بإمكان آبائنا كافة أن يختاروا أسماءنا ولكن ماذا لو أمكنهم اختيار كل شىء يخصنا

حلم الخلود يحول الإنسان إلى مسخ

مارجريت أتوود



[١]

** كتاب Enough (كفى) لبيل ماكيبن ملخص عاطفى ومقتضب وفاتر، ومحصور فى نقطة ضيقة، ومثير للضحك فى بعض الأحيان، وحسن النية بطريقة مؤثرة، وضرورى للمستقبل الذى يقترحه «العلم» للجنس البشرى. وهذا هو نفسه بيل ماكيبن الذى كتب The End of Nature (نهاية الطبيعة) وتناول فيه كيفية إعادة الإنسان العاقل Homo sapiens ترتيب محيطه الحيوى بمساعدة النباتات المعدلة وراثياً بحيث تتلاءم مع ما يعتقد أنها مصالحه، وكذلك كتاب Long Distance (المسافة الطويلة) عن سباقات الماراثون.

يبدو أن بيل ماكيبن شخص ذكى ومفكر، إلا أنه فى الوقت ذاته رقيق القلب ومتفائل طبقًا لما تشى به كتاباته. فهو يحب المشى فى الغابات، ويبدو أنه رشيق جداً، وتشبه صورته التى على الغلاف شخصاً لا تود أن يلعب ضدك مباراة بريدج لأنه يعرف بالفعل ما هى الأوراق التى فى يدك. بعبارة أخرى، فهو قد يؤهل لعضوية فرع قوى من البضاعة ذات المستوى المرتفع من الذكاء، ولا يمكن رفضه فقط لكونه معارضاً أقل من العادى للتطورات التكنولوجية على قدر من الغباء يمنعه من فهم أجزاء الجسم والمخ العظيمة المعدلة التى ستكون عما قريب معروضة عليك وممكنًا لك.

ستكون هذه الأجزاء معروضة مقابل ثمن بالطبع، نعم بالفعل، مقابل ثمن. فقد كانت الأتعاب التقليدية التى تدفع مقابل هذا النوع من الأشياء هى روح الشخص. ولكن من ذا الذى يعير أى اهتمام الآن لتلك الأسمال اللاهوتية البالية التى لا يمكن تحديد موضعها باستعمال مسبار المخ؟ ولكن انتظر، فالصفقة المميزة حزمة فائقة! فكيف لك إذن أن ترفضها؟ إنها تتضمن الكثير مما تصنع منه أحلام البشر.

كان فاوست يرغب فى شىء من هذا القبيل، وكثيرون غيره يرغبون فيه. إنه الشباب الدائم، والجمال الإلهى، والذكاء المفرط، وجسم أبطال كمال الأجسام.

Enough: Staying Human in an Engineered Age

كفى.. الإنسانية فى عصر الهندسة الجينية

ترجمة: أحمد محمود

مجلة نيويورك ريفيو أوف بوكس

By: Bill Mikibben

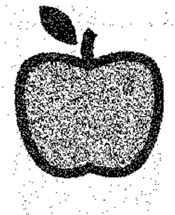
Times Books, 271 PP, $ 25.00

ويعرف الذين تربوا منا على الصفحات الخلفية من المجلات المصورة جاذبية ذلك. وهم لن يضحكوا مرة أخرى حين تجلس على البيانو لأنه ستكون لديك أصابع أمهر العازفين وعبقرية موتسارت. ولن يجرءوا على ذر الرمال فى وجهك على الشاطئ لأنه سيكون لك جسم هرقل. ولن ترفض لك فتاة موعداً لأن البثور السوداء القبيحة التى فى وجهك ستكون قد اختفت ومعها الكثير من الملامح الأخرى التى يمكن أن تعيش بدونها. وإذا ما اتجهنا إلى بعض هموم الكبار مثل الموت، فإنك لن تضطر لدفع أموالك لعمل حاوية تابوت من الأسمنت، ليس فقط لأن من تحب سيكون آمنًا الليلة، بل سيظل على قيد الحياة، وإلى الأبد! وكذلك أنت.

ويتشكل الخيط بالطريقة الصحيحة، وسوف يصبح خيطاً طويلاً. (يذكر كتاب «كفى» أن اثنين من فنانى كاليفورنيا أقاما قطعة من الفن الخيالى فى هيئة بوتيك أسمياه Gene Genies Worldwide مع كتيبات مطبوعة توضح ما يمكنك شراؤه من الجينات وتفيض بالاستفسارات الجادة). وأى إنسان يظن أنه لن يكون هناك طلب على ما يُفترض أنه معروض للبيع يكون مخرفاً. ولكن بيل ماكيبن يأتى حاملاً لافتتى الوعاظ الذين يقفون على قارعة الطريق مستنكراً المشروع برمته ومتنبئاً بنهايته المحتومة. فسوف تكون هناك صيحات استهجان من مفسدى البهجة ومعكرى صفو الأفراح، ناهيك عن سكان الكهوف والمعترضين والقلقين. وكما قيل للأمير تشارلز الذى عارض الـ«نانو تكنولوجيا» النانو على أساس أنها قد تحيل العالم إلى كتلة رمادية لزجة، سوف يقال لماكيبن أن يبعد أنفه عن الموضوع لأنه ليس من شأنه.

إلا أن بيل ماكيبن يقول إن البشرية من شأنه. وهو يخاطب ذلك البخيل الصغير داخل كل منا، ويوضح لذلك البخيل الصغير الجشع لماذا لا ينبغى له أن يرغب فى المزيد والمزيد والمزيد، بل والمزيد.

المزيد من ماذا؟ هناك استخدامان رمزيان لكلمة «المزيد» يردان على الذهن. أحد هذين الاستخدامين هو بالطبع



كلمة «المزيد» التي نطقها أوليفر تويست حين جوعه المسئولون الفاسدون في إحدى دور المشردين. وكلمة «المزيد» هنا هي الرد المشروع لعبارة «لا يكفي».

ويوحي ماكيبن بأننا سنجد كلمة «كفى» التي هي عنوان الكتاب متعة بالغة إذا نحن نظرنا إليها النظرة الصحيحة. إنها نحن كما نحن عليه، ربما مع القليل من التحسينات المسموح بها. وما يزيد على ذلك فهو أكثر من اللازم. وهذا العدد المغري من «المزيد». ذلك أن هناك الكثير منه. الموجود على المزيد والمزيد من أشجار المعرفة التي تزحم الفضاء العلمي الحديث بكثافة تمنعنا من رؤية الغابة. ويحمل ماكيبن فأساً ويخرج ليشق طريقاً. فأي التفاح يقطف وأي التفاح يترك؟ وما مقدار شدة تفكيرنا قبل أن نقضم القضمة المحتومة؟ ولم لا ينبغي لنا أن نفرط في الأكل، وما هو دافعنا إلى ذلك إن نحن أفرطنا؟ هل هي القصة القديمة ذاتها: أي أننا نريد أن نكون كالآلهة؟ ولو كان هذا هو الحال، فقد قرأناه في صوره الكثيرة. ولم تكن نهايته سعيدة في يوم من الأيام، وحتى الآن.

تنقسم الأصناف الموجودة على بوفيه التغيير الإنساني إلى ثلاثة أصناف تقريباً. أولاً: التغيير الجيني، أو توصيل الجينات، مما يجعل الأب الأصلع الذي يبلغ طوله خمسة أقدام ينجب ابناً طوله ستة أقدام أشقر الشعر يشبه الجار الملاصق له. وسوف يوفر ذلك عذراً جديداً للتشابه. (إذ ستقول الزوجة: «لقد اخترنا هذا يا حبيبي! هل تذكر ذلك؟») ثانياً: تكنولوجيا النانو، أو صنع أجزاء مكونة من طبقات أحادية الذرة يمكنها استنساخ نفسها وتجميع المادة وتفكيكها. قد يجري إدخال بعض من هذه في أجسامنا لإصلاحها، تماماً كتلك الغواصة المصغرة التي ظهرت فيها الرائعة راكيل ولش في فيلم Fantastic Voyage (رحلة خيالية) ثالثاً: السيبرنيطيقا «علم التحكم الآلي» أو دمج الإنسان بالآلة، كشخصية «رجل بستة ملايين دولار». على الأقل سيكون بمقدورنا كشف المستور.

وهناك فكرة رابعة ينظرون إليها نظرة خاطفة، وهي «تجميد نفسك» أو رأسك تجميداً سريعاً جداً إلى أن يحين الوقت الذي يشق فيه الطريق إلى الخلود. وحينذاك يخرجونك من حالة التجميد ويعاد لك شبابك وصحتك، وإذا كان خيارك هو الرأس فقط فيمكن زراعة جسم لك من بضع كشطات من الحمض النووي الخاص بك أو بغيرك. إن استثمار ولو القدر القليل من هذا المخطط يضعك في نفس فئة من يشترون وهم سعداء كوبري بروكلين من رجال يبدو عليهم أنهم نصابون يرتدون معاطف المطر. لأن الشركة. نعم ستكون شركة. المسئولة عن رأسك المجمد لن يكون عليها فقط أن تظل قادرة على الوفاء بالتزاماتها المالية. فالإفلاس معناه الذوبان. بل أن تكون كذلك على قدر من الأمانة لا تشوبه شائبة.



سيكون لدى كل جيل من الأطفال أحدث التحسينات؛ فلا بد أن يكون أكثر ذكاء من الجيل الذي قبله، وأكثر منه جمالاً، وأكثر منه خلواً من المرض، وأطول منه عمراً. وبذلك سيكون كل جيل نسيجاً وحده؛ حيث سيكون منعزلاً ومكتئباً، كموديل سيارة العام الماضي

يجتذب كل مجال من مجالات الجهد البشري حصته من المخادعين وفناني التلاعب والغش، غير أن هذا قد يبدو مجالاً يتمتع بكل مؤهلات النجاح. فما الذي يمنع القائمين عليه من إيداع أموالك في البنوك، وإخضاعك للتجميد المبدئي، وبعد ذلك يلقون بذاتك المنصهرة في القمامة مع إلقاء اللوم على انقطاع الكهرباء، أو يكون من الأفضل. إذا كان المساهمون ينتظرون تحقيق أرباح كبيرة. إعادة تصنيعك لتصبح طعاماً للقطط؟ إن أهرام الملوك المصريين المحنطين، التي نهبت تماماً بمجرد أن أدار أقاربهم ظهورهم لها، تقف دليلاً ساطعاً على هذا النوع من التفكير، تماماً مثل جبانة هاي جيت في لندن، وهي جنة الخلود التي قسمت إلى قطع غالية الثمن أصبحت أدغالاً من النباتات غير المشذبة بعد أن جف نبع الأموال.

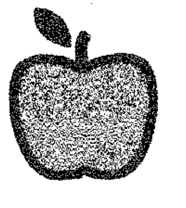
أما حجج ماكيبن المتحمسة فمن نوع أكثر تحديداً: فهو ليس روائياً أو شاعراً، ولذلك فهو لم يهبط كل المسافة إلى داخل دكان كراكيب القلب الكريه. وهو يفترض وجود قدر معين من الإخلاص فيمن هم أقل غرابة بين من يدعون إلى تلك التطورات، وهو يوجه دعواه إلى ملكاتنا العقلية والأخلاقية. وهو يعتقد أنه يجب علينا العمل بدافع من احترام التاريخ الإنساني والجنس البشري.

إنه يتناول في البداية الهندسة الوراثية الموجودة بالفعل في فول الصويا وليست ببعيدة عن الإنسان العاقل. حيث أصبح لدينا الأرنب الأخضر الزاهي والعنكبوت المنسوج. كما أن توصيل الجينات هو الرد الحديث على الرغبة الأزلية في صنع نموذج أكثر كمالاً من أنفسنا. والرواية التي حققت الرقم القياسي هي «فرانكنشتاين» لماري شيلي: فنحن لا يمكننا التوقف عن التجريب، لأنه مسل من ناحية، ولأننا نعتز جداً بقدراتنا من ناحية أخرى. إلا أننا نغامر بخلق مسوخ.

ويعتمد توصيل الجينات على الاستنساخ. حيث يشرح ماكيبن كيف يتم ذلك. ولكنه ليس الاستنساخ نفسه. إنه يشمل حقن جينات مختارة، غير جينات الوالدين، في البويضة التي تزرع بعد ذلك بالطريقة المعتادة (أو التي ستظل كذلك إلى أن يظهر الأطفال الموضوعون داخل الزجاجات في رواية «عالم جديد رائع»، وساعتها يمكننا الاستغناء تماماً عن الرحم). ويقول ماكيبن إننا إذا أصبحنا محسنين وراثياً بهذه الطريقة. أي حسننا آباؤنا قبل أن نولد. فسوف تفقد الحياة بهجتها وغموضها لأننا لن نكافح لبلوغ الكمال، ومنجزاتنا لن تكون «منجزاتنا» وإنما ستكون مبرمجة داخلنا. ولن نعرف إن كانت مشاعرنا هي بالفعل «مشاعرنا» أو إن كان. كما هو الحال بالنسبة للتذكريات المزيفة التي جرى زرعها في النسخ في فيلم Blade Runner. بإمكان أي شخص الحصول عليها. لن تكون ذواتنا الفريدة، بل سنكون تجسيداً إجمالياً لنزوات السوق. وسنكون بالفعل «آلات من لحم» كما يسمينا بعض العلماء. وفي الوقت الراهن بإمكان آبائنا كافة تقريباً أن يختاروا أسماءنا، ولكن ماذا لو أمكنهم اختيار كل شيء يخصنا؟

الأدهى من ذلك أننا سندخل في منافسة مع الآخرين، وبالتالي سيكون لدى كل جيل من الأطفال أحدث التحسينات: فلا بد أن يكون أكثر ذكاء من الجيل الذي قبله، وأكثر منه جمالاً، وأكثر منه خلواً من المرض، وأطول منه عمراً. وبذلك سيكون كل جيل نسيجاً وحده؛ حيث سيكون منعزلاً ومكتئباً، كموديل سيارة العام الماضي، حتى قبل أن يبلغ العشرين؛ حيث يكون كل رد فيه ملتصقاً بإحدى أوراق التحسين الطافية التي تقل بضع خطوات عمن يليه. يضاف إلى ذلك أنهم سيكونون مقطوعين عن التاريخ، عن شجرة عائلتهم. لأنه من ذا الذي سيعرف الشجرة التي كل منهم استمرار لها. فسوف يحملون القدر اليسير من الصلة التي تربطهم بمن يسمون أسلافهم. وقد تكون الوحدة والإحساس بالانقطاع شديدين.

ولا يمضي ماكيبن قدماً ليبحث الجحيم النهائي الذي يمكن أن يخلقه هذا الموقف. تخيل المراهقين المنتحبين والعابسين الذين سوف يصبون جام غضبهم على آبائهم الذين اختاروا ملامح أطفالهم من أحد الكتالوجات. وسوف يكون اختيارهم. حتماً. اختياراً خاطئاً. وسوف يستعاض عن عبارة «لم أطلب أن أولد» بعبارات غاضبة من قبيل «لم أطلب أن تكون لي عينان زرقاوان» أو «لم أطلب أن أكون بارعاً في الرياضيات». احرقوا كتيب الجينات هذا! إذا كان طفلك ينتحب لأنه ليس محسناً بالقدر الكافي، يمكن فقط أن تقول له إن ذلك لم يكن في مقدورك. (قد يرد دعاة التحسين الجيني بأنه مادمت ستكون قادراً كذلك على اختيار



لكن ما الذى سنفعله اليوم بطوله حين نصبح فى حالة جيدة وخالدين بحق.؟ ألن يصيبنا الملل بسبب الأبدية والرتابة وعدم وجود حدث مهم؟ ألن يصيبنا الضجر؟

الميول. فمن الطبيعى أن تختار نوعاً لا ينتحب انتحاب المراهقين أو يعبس عبوسهم أبداً. ولا تهتم، فهؤلاء الناس لن يتحدثوا عن أطفال من لحم ودم، ولكن عن أطفال مجهزين).

وكذلك لم يقطع ماكيبن كل الشوط نزولاً إلى مجالات الحسد والغش والرشاوى وانتقام جنون العظمة. فما الذى يمنع عدوك من رشوة طبيب الجينات الخاص بك كى يجعل طفلك مثل هانيبال آكل لحوم البشر؟

ولكنك قد تسأل: وماذا عن الأمراض الوراثية؟ لماذا ينبغى أن يصاب أى طفل بالشلل المخى، أو التوحد، أو الشيزوفرينيا، أو مرض هنتنجتون. أو الكثير من العلل الأخرى التى ترثها الجينات؟ إنها لا ينبغى أن تحدث ما دام هنالك علاج، وهنالك بالطبع علاج. فماكيبن يشير إلى أن هذه الحالات يمكن القضاء عليها دون اتخاذ أقصى إجراء. (بعد أن طبع كتاب «كفى» وقبل أن يكتب هذا العرض، توصل علماء كنديون إلى الجين المسبب لمرض التوحد. والبقية تأتى). وما إن يجرى تحليل جينوم الآباء المحتمل أن ينجبوا أبناء مصابين بأمراض حتى يمكن إبلاغهم بأية عيوب، ويمكنهم فى هذه الحالة أن يسلكوا طريق أطفال الأنابيب، حيث تختار للزرع البويضات المخصبة الخالية من الجين المسبب للمرض. ولن يتضمن «علاج الجينات الجسدية» هذا إضافة جينات أى شخص آخر. ويقول ماكيبن إن جراحة التجميل والهورمونات وأقراص الفيتامينات وعلاج الجينات الوراثية فيها الكفاية. أما توصيل الجينات فهو أكثر مما يجب.

بعد ذلك يبحث ماكيبن بعمق فى تكنولوجيا النانو التى قطعت هى الأخرى شوطاً كبيراً من التقدم. فمنذ أسبوعين فقط تحدثت الأخبار عن تكنولوجيا جديدة يمكنها تجميع الماء من الأكسجين والهيدروجين الموجودين فى الهواء، وهو أمر مفيد جداً فى الصحراء. والحكاية الشعبية المتصلة بتكنولوجيا النانو هى «تلميذ الساحر»: ماذا لو جعلوا العملية تبدأ بينما يهرب الإنسان الآلى الميكروسكوبى المتكاثر ذاتياً ولا يمكنهم إيقاف ذلك الشىء اللعين؟ فى حالة آلة الماء ستكون النتيجة هى أننا سوف نموت خنقاً، حيث سيجرى تجميع كل الأكسجين المتاح فى هيئة ماء. وقد نخلق مجمعاً يصنع الطعام. تدخل القاذورات من ناحية وتخرج البطاطس من الناحية الأخرى. أو شيئاً يقضى على الأشكال الحيوية العادية لنا. ولكن ماذا لو أن هذا الإنسان الآلى الميكروسكوبى جن جنونه وهاجم كل الأشكال الحيوية؟ هنا يظهر ما أسماه الأمير تشارلز «المادة الرمادية اللزجة». إنه خوف حقيقى، وهو خوف يناقشه ماكيبن.

وتحظى السيبرنيطيقا والذكاء الصناعى كذلك بنظرة سريعة، حيث يشغل الجمع بين الإنسان والآلة بعض عقولنا ذات الدخل المرتفع. ذلك أن رؤى الرقائق متناهية الصغر المزروعة فى مخنك تلمع فى رؤوسهم: إن لدينا الآن منظم ضربات القلب، فما هو الفرق إذن؟ لماذا لا نعمد آلات الذكاء الاصطناعى التى لا اسم لها. لأنه بالإمكان صنعها بحيث تشبهنا بالقدر الذى يجعل فيها ما نظن أنه يستحق التعميد؟ أهنالك ما يمنع من تسميتها روحاً؟ ربما يمكننا الحصول على قدرة محسنة على الشم، ورؤية كأشعة إكس، كما أن بلوغ ذروة النشوة الجنسية الاصطناعى أفضل من الطبيعى. كل شىء سيكون أفضل من الطبيعى! لم لا تكون لنا عيون فى أقفيتنا؟ لماذا يكون لنا فم واحد يقوم بكل الوظائف: الكلام والأكل والتصفير؟ إذا كانت لدينا فتحات فمية عديدة سيكون بإمكاننا عمل كل هذه الأشياء فى وقت واحد!

هنالك كلام كثير عن العيوب التى تحملناها بفضل أمنا الطبيعة، تلك البقرة الخائنة القذرة. وهذا هو المعنى الخفى الذى لم يجر إخفاؤه بشكل جيد لقدر كبير من تفكير العالم الجديد الرائع. فهؤلاء الناس يكرهون الطبيعة، وهم يكرهون أنفسهم باعتبارهم جزءاً منها. ويورد ماكيبن كلمة عجيبة ألقاها ماكس مور (والاسم الأخير من اختياره هو) أمام مؤتمر الإفراط الحرارى (اشتقت كلمة إفراط حرارى extropy لتكون العكس لكلمة القصور الحرارى entropy). واتخذت تلك الكلمة شكل إهانة وتوبيخ للطبيعة الأم. وقال فى الأساس لا شكر على شىء ووداعاً. فالطبيعة ارتكبت أخطاء كثيرة جداً أهمها الموت. فلماذا نشيخ ونموت؟ لماذا يكون الإنسان هو المخلوق الذى يعرف مقدماً أمر موته؟

وكما هو الحال فى ديانات كثيرة، لا بد أن يكون هنالك ميلاد ثان، وهو الميلاد الذى يجتاز إهانة الخروج من جسد. وهو جسد أنثوى. والحصول على جسد بنفسك. كل ذلك الطين والدم والخلايا والموت. لم يجب أن نأكل و. ضمنياً. نخرج الفضلات؟ أمر شديد القذارة. ربما أمكننا تعديل قنواتنا الهضمية بحيث نبتلع حبة صغيرة، مرة كل شهر مثلاً. وربما يمكننا أن نولد من جديد: هذه المرة من رأس اصطناعى بدلاً من أن يكون ذلك من جسم بشرى، ونحمل محتويات أدمغتنا فى آلات، ونبقى فى الفضاء الإلكترونى، كما هو الحال فى روايات ويليام جبسون. ومع ذلك، فإنك إذا قرأت ويليام جبسون فسوف تعرف أن المكان كابوس مثير للغثيان.

[٢]

كل التحسينات التى يناقشها ماكيبن تتجمع حول أمر مهم ليس سوى السخرية القصوى من الخلود. ولا يتحقق الخلود بشكل جيد فى الأساطير والقصص. فإما أن يحصل عليه المرء ولكنه ينسى أن يطلب معه الشباب الدائم كذلك، وبذلك يصبح رعباً قاتلاً، وإما أن يحصل على الخلود والحيوية، ولكنه يفقد روحه ويضطر للعيش على دم الأبرياء (ميلموث الجوال، ومصاصو الدماء وغيرهم). والقصص واضحة: وهى أن الآلهة خالدون والبشر يموتون. حاول أن تغير ذلك وسوف يزداد حالك سوءاً.

ولكن هذا لا يمنعنا من الرغبة الشديدة فى الخلود. ويعترف ماكيبن بالدافع وراء ذلك: فهو يقول، ومعه الحق فيما يقوله: «الاعتراض ولو بصورة بسيطة على الخلود يشبه إلى حد ما الاعتراض على الأيس كريم؛ فقد كان الخلود حلم البشرية الكبير منذ اللحظة التى أصبحنا واعين فيها، ولكن على عكس الأجيال السابقة كافة، قد يتمكن جيلنا من تحقيق هذا الحلم». وقد يغيرنا هذا بحيث لا يمكن التعرف علينا. إذ قد نصبح جنساً مختلفاً: جنساً يعيش فى نعمة أبدية، من وجهة نظر مؤيديه. شىء أشبه بالملائكة أو الكائنات السوبر بشرية بصورة من الصور. وقد يعنى ذلك بالتأكيد نهاية السرد. فإذا كانت الحياة لا نهاية لها، فما جدوى رواية الحكايات؟ لن تكون هنالك بداية ووسط، لأنه لن تكون هنالك نهاية. لن يكون لدينا شكسبير أو دانتى، أو أى فن من الفنون فى واقع الأمر. فكل ذلك يعج بالفناء وتشيع فيه رائحة الدنيوية. إن ذواتنا الملائكية الجديدة لن تكون بحاجة إلى فهم الفن كما نعرفه. فقد يكون لها فن آخر، مع أنه ربما يكون فناً خالياً من المشاعر الإنسانية إلى حد ما.

ولكن ما الذى سنفعله اليوم بطوله حين نصبح فى حالة جيدة وخالدين بحق.؟ ألن يصيبنا الملل بسبب الأبدية والرتابة وعدم وجود حدث مهم؟ ألن يصيبنا الضجر؟ لا. فسوف نتحلق ونتأمل مشاكل من قبيل «من أين جاء الكون؟» و«لماذا يوجد شىء وليس لا شىء؟» و«ما معنى الوجود الواعى؟» ولكن هل ستكون هذه هى نتيجة ما يجمعون على أنه علم ساحر. يقول ماكيبن: «إننا نشترى هذا بإنسانيتنا».

هذه هى الصورة الحسنة من العقل الخالد. وقد قابلت الصورة السيئة الشهر الماضى فى كتاب تلقيته من خلال ناد للكتاب بإحدى المدارس الثانوية. وكان عنوان الكتاب «مخ دونوفان»، والمخ موضوع



الكتاب يجرى حقنله حياً فى حوض سمك كبير ويغذى بغذاء المعتول. وكان أمل العلماء الذين يقومون بهذا هو أن ينمو المخ من حيث القوة والقدرة ويحل مسائل مثل «لماذا يوجد شىء وليس لا شىء؟». ويفيد البشرية. ولكن دونوفان حين كان له جسم كان يتلاعب فى الأسهم أو ما شابه ذلك وقد وجد قدرات مخه الذى عثر عليه حديثاً فى اتجاه السيطرة على العالم. والقضاء على من يعترضون طريقه. والمخ الكبير ليس معناه مخاً لطيفاً. وقد اتضح ذلك لى فى سن الثانية عشرة، وازداد وضوحاً فى كتاب «كفى». فهناك بعض الأشخاص الذين يملكون قدراً كبيراً من المهارة يعملون فى الأجزاء التى سوف تدخل فى تكوين خلودنا، وما يقومون به رائع فى مستويات معينة. مثل اللعب مع أكبر صندوق لعب رأيته فى حياتك. ولكنهم ليسوا الأشخاص الذين ينبغى لهم أن يقرروا مستقبلنا. وسؤال هذا الصنف من العلماء عما ينبغى أن تكون عليه الطبيعة البشرية المحسنة أشبه بسؤال النمل عما ينبغى أن يكون لديك فى فناء منزلك الخلفى. فإنه سيقول لك بطبيعة الحال «المزيد من النمل».

وبينما نتناول هذا الموضوع، فإن المسألة هى من هم «نحن» على وجه التحديد؟ إنهم «نحن» الذين يوشمون بكل هذه الأشياء الحسنة الجذابة. سيكون «نحن» هم «الأغنيجينات»، أى هؤلاء الأغنياء الذين لديهم ثروة من الجينات، ومن المؤكد أن «نحن» ليسوا الستة مليارات من البشر الموجودين بالفعل على كوكب الأرض، ولا العشرة ملايين المتوقعة حتى عام ٢٠٥٠، ذلك أن هؤلاء هم «الفقراجينات». إن «نحن» حين يظهرون سيكونون قلة مختارة، وبما أن جيناتنا المحسنة وخلودنا أمر سيكون مكلفاً جداً، ولن تنجو، على سبيل المثال، من سحق الدبابات، فلا بد أن نتخذ خطوات لحماية أنفسنا. ولا شك فى أن «نحن» سوف يصممون جدراناً يكاد لا يخترقها شىء، كما فى رواية زامياتن التى تحمل نفس الاسم، أو سوف يعيش «نحن» فى إحدى القلاع بينما «هم»، أى الأقنان والفلاحين الأغبياء والفانون، يموتون بغيظهم فى الخارج. وسوف نتحدث مثل جيمس ديوى واطسون؛ حيث سنقول أشياء من قبيل «لا يسرنا كثيراً أن نكون فى معية الأغبياء». والواقع أننا سوف نتصرف إلى حد كبير مثل أرستقراطيى العصور القديمة، مقتنعين بحقنا الإلهى. وسوف يكرهنا الأجراء والفلاحون. ولن يظل الوضع هادئاً، بل إن الأقنان والفلاحين سوف يحملون عاجلاً أو آجلاً المذارى والمشاعل ويقتحمون المتاريس. ولكى نتحاشى الفلاحين، سوف نضطر للذهاب إلى الفضاء الخارجى. فهل أنتم راضون الآن؟

يتحدى ماكيبن التوهم السحرى، وعلى الأخص «الحتمية». وهو يقول إنه مازال بإمكاننا الاختيار. فلا يعنى مجرد اختراع شىء ما ضرورة استخدامه. وهو يقدم القنبلة الذرية كمثال، ورفض الساموراى اليابانيين للبنادق، وتخلى الصين عن القوة البحرية المتقدمة، وطائفة الأميش التى تدرس كل تكنولوجيا جديدة وترفضها أو تقبلها طبقاً لمعايير اجتماعية وروحية. وهو يقول إن بإمكاننا كذلك أن نرفض أو نقبل أى شىء بناء على معايير اجتماعية وروحية. إن هذا بإمكاننا وينبغى القيام به. فلا بد أن نقرر باعتبارنا أنفسنا: أى باعتبار ما نحن عليه بالفعل ككائنات بشرية. لا بد أن يكون القرار من واقع بشريتنا الحالية، رغم ما فيها من عيوب. وكما قلت من قبل فإن ماكيبن متفائل، وأنا أتفق معه بشأن ما ينبغى أن نفعله، غير أننى لست متأكدة تماماً من أننا سنفعل ذلك.

الحقيقة هى: وهذا ليس الخط الفكرى الذى يتبعه ماكيبن. أن الحجة المؤيدة لقابلية بلوغ البشرية للكمال تقوم على فكرة منطقية خاطئة. فالإنسان بطبعه غير كامل، وهو ما يقوله من يريدون استكماله. ولكن من يريدون استكماله هم أنفسهم غير كاملين بطبعهم. ولا يمكن للكائنات غير الكاملة اتخاذ قرارات كاملة. فالقرار الخاص بما يشكل الكمال البشرى لا بد أن يكون قراراً كاملاً، وإلا فإن النتيجة لن تكون الكمال.

ربما ينبغى أن يتخذ سعينا لبلوغ الكمال شكلاً مختلفاً أكثر روحانية. وربما يمكن رؤية الأبدية فى حبة رمل، والخلود فى ساعة زمن. وربما لا تكون السعادة هدفاً وإنما طريق. وربما يكون السعى لبلوغ السعادة هو السعادة نفسها. وربما نأخذ ما يتعين علينا القيام به، حيث نفصل بين الحكمة والمعرفة، ونعترف بأن الحكمة لا يمكن استنساخها أو تصنيعها. وربما يكون هذا الاعتراف حكمة. وربما ينبغى أن يكفينا ما يكفى. وربما ينبغى ألا نحاول تغيير ما يكفى. ■

كتاب الزاوية



مذكرات أحمد شفيق باشا

سراى عابدين

الروايات التى تتناقلها الألسن عن أن سرايات إسماعيل كانت مملوءة بالآلاف من الجوارى والراقصات والمغنيات والعازفات على الآلات الموسيقية النحاسية أو الوترية، مبالغ فيها، بل لم يكن موجوداً فى سراى إسماعيل إلا جوقة وترية خاصة بالزوجة الثالثة له ومعها مغنيات.

كان إسماعيل يقيم أغلب أوقاته فى عابدين مع البرنسيسات، زوجاته الأربع حتى زواج ولى عهده توفيق باشا، فقد انفصلت والدته بعد زواجه وأقامت فى سراى القبة وذلك عقب صدور الفرمان السلطانى بجعل ولاية مصر وراثية فى أكبر أولاد إسماعيل. وقد أشار السلطان على الخديو بأن يعقد على والدة توفيق فصدع بالأمر فصارت الزوجة الرابعة.

أما البرنسيسات الثلاث فكانت تقيم كل واحدة منهن فى «بلك» وهو مسكن خاص مستقل، ولكل منهن «قلفاوات» توزع عليهن الوظائف المختلفة من «خازندارة وجماشرجية» ... إلخ، وكان للقلفاوات خادمات خصوصيات من الجوارى السود، وفتيات شركسيات. أما إسماعيل فكان له «بالك» تقفل أبوابه عند دخوله فى المساء وكانت له أيضاً حاشية خصوصية من المحظيات والجوارى، وكان سموه يتناول الطعام مع البرنسيسات على الطراز الأوروبى.

وكانت تقدم الأطعمة فى أوان من الفضة، إلا فى المناسبات الخاصة فكانت من الذهب. ومن الأطعمة المشهورة فى السراى صنف «الرز الخديو» المصنوع بخلاصة الرءوس الضأن أو البقرى، والديكة الرومية.

حين لا يصبح هناك

** ها قد عدنا إلى النقطة البداية
اغتال الإسرائيليون، الذين كانوا قد أعلنوا أنهم غير معنيين بالهدنة، اثنين من رجال حماس في مخيم عسكر، ثم قتلوا ميدانياً الشهداء في الخليل، فرد الفلسطينيون -الذين يعتبرون حق الرد جزءاً من مقاومة الاحتلال مشروعاً- بعمليتين في رأس العين لتقتح، وفي القدس الحافلة (أوقعت عشرين قتيلاً ومئة من الجرحى)، وسرعان ما بدا أن الجميع قد عادوا الدائرة القديمة ذاتها: فالصواريخ التي طالما عن سيارة الرنتيسي قبل شهور لتقتل من تصادف مرورهم بالشارع، أصابت سيارة مرشحي الوطنية ذاته إسماعيل أبو شنب، [illegible] في جنازته مائة ألف يطالبون بالثأر.

انهارت الهدنة، رغم كل الأمنيات، وبدا أن «خارطة الطريق» قد وجدت طريقها الطبيعي، الذي كان متوقعاً، إلى مائدة مشرحي ملف الوثائق التي لم تنفذ أبداً.

قبل شهرين تقريباً، ونتيجة إعلان منظمات المقاومة الفلسطينية هدنتها «المشروطة»، سادت أجواء من التفاؤل، وعود جورج دبليو بوش بالدولة المنتقبة، والتصريحات المتفائلة / مانشيتات الصحافة العربية «الانتقالية».

ولكن.. لأن الأمنيات لا تتوفر بالضرورة واقعاً، ولأن التفاؤل وحده لا يطعم جائعاً، فقد بدا التشهد (على الأرض) يومها مختلفاً، كما كانت «قراءته» كذلك.

يومها، قبل شهرين، ذكرنا في هذا المكان بأن بوش، صاحب وعد الدولة في ٢٠٠٥ قد يخرج من البيت الأبيض في ٢٠٠٤، وأن «خارطة الطريق» الصلاح، كما يعتبرها، في الأصل صراحة أنه لن يسمح بدولة فلسطينية ذات سيادة، وأن العودة إلى حدود ١٩٦٧ غير مطروحة ابتداء. فضلاً عن إعلان أركان إدارته أن «الهدنة» شأن فلسطيني داخلي، وأن الجيش الإسرائيلي غير معني بها.

ها قد عدنا إلى النقطة البداية.. أو بالأحرى إلى «الدائرة» التي لا تعرف -بحكم التعريف الهندسي- نقطة بداية ولا نهاية.

ولن يحتاج قراءة الرموز أن يعرف أن إعلان أبو مازن شريح جامعة القاهرة في حضور الأمم الثالث في شخص، وانتظار الهدوء، فعلياً في الخارج، وهو الأكثر اعتدالاً بين قادتها جميعاً، وإلى الاتصال بحكومة شارون الإسرائيلية ذاتها، كما أنه من أسس الهدنة الأول، بل إنه، كما علمت من مصادر ثقة، رفض بعض المساومات التي سبقت إعلانها، في القاهرة أو غزة، عندما في الحادي الاخير بقبولها، رغم أن [illegible] الآن صحيحة بأن الإسرائيليين الذين يعتقدون أنهم الأقوى لن يحترموها، وأن الأمريكيين الرعاة المفترضين لن يضمنوها.

ولن يحتاج قراءة الواقع أن يعرف أن رائد مسك (٢٩ عاماً) منفذ عملية القدس كان صديقاً حميماً لمحمد سدر الذي اغتاله الإسرائيليون في منزله في الخليل، وأنه أقسم على الانتقام لمقتل رفيقه بعد أن شاهد الجنود الإسرائيليين وهم يجرون جثته بعد قتله قبل أيام. هل تمنح هذه الحادثة بعضاً من الضوء يهدي الغاضبين في دروب «خارطة الطريق» يبحثون عن تفسير لعودة دائرة العنف؟

صحيفة «معاريف» الإسرائيلية قالت في افتتاحيتها أن منفذ عملية القدس لم يعلن الحرب على «خارطة الطريق» من خلال عمليته، ولكنه حاول التدليل على «توازن الرعب»، وإظهار «بطاقة السعر»: «مقابل كل فلسطيني يغتاله الجيش سيكون هناك رد فلسطيني وقتلى إسرائيليون».

لماذا انهارت الهدنة؟

لأنها -حسب التعريف- لم تكن هنالك أصلاً.

هل تذكرون التصريحات الإسرائيلية عشية إعلانها من جانب الفلسطينيين؟ يومها قال شاؤول موفاز وزير الدفاع الإسرائيلي: «لا علاقة لنا بالأمر.. نحن لم نعلنها.. وغير معنيين بها».

في التاريخ.. لا يوجد وقف لإطلاق النار من جانب واحد، إلا إذا كانت هناك قوة دولية تعمل فعليا على فرض الهدنة. والحال هنا في ظل معادلة أمريكية إسرائيلية معقدة، ومجتمع دولي ضعيف، ومرتبك، ومنشغل.. يختلف.

انهارت الهدنة حين بدا أن شارون يريد نتائجها في شوارع تل أبيب وحافلات القدس، ولكنه لا يريدها بحال في أزقة غزة أو بيوت الخليل. أراد شارون أن ينعم مواطنوه بالهدوء في حين يمارس هو سياسته الدموية. ويشرط ألا يرد الفلسطينيون (التزاماً منهم بالهدنة) ودون أن تجد إسرائيل نفسها متورطة بعملية سياسية. وهذه معادلة لا يمكن تحقيقها.

لم توجد «الهدنة»، إذن إلا في مانشيتات الصحف، وفي رغبة الفلسطينيين في تجاوز الظرف الحرج الذي وضعتهم فيه الدبلوماسية الإسرائيلية بخلطها للأوراق، ونجاحها في خلق حالة من التماهي بين سلوكها العدواني من «المقاومين لاحتلال أرضهم» وبين ما يعتبره الأمريكيون حملة ضد الإرهاب.

لماذا أُعلنت الهدنة إذن؟ ولماذا سقطت؟

لأنها في لحظة معينة، أصبحت كالفاكهة المُحَرَّمة، الكل يريدها.. ولا يريدها. أو بالأحرى، الكل يريدها على طريقته.

أرادها الفلسطينيون (الذين أعلنوها من جانب واحد) مشروطة بأن يلتزم بها الطرف الآخر. وأملاً بأن يجنوا عن طريقها بعض ثمار انتفاضة طالت أعواماً ثلاثة وحصدت آلافاً من الشهداء.

واعتبرها الإسرائيليون -أو أرادوها- إعلاناً لهزيمة الفلسطينيين، وإن بالنقاط. لتبق إذن الجولة الأخيرة: «الضربة القاضية».

وأرادها الأمريكيون، تهدئة مطلوبة، ليفرغوا لنار لا تريد أن تَخْمَد شرقاً في العراق، ولاستحقاقات انتخابية اقتربت في واشنطن.

وأرادها الأوروبيون، وبعض العرب، تأكيداً على أننا «مازلنا هنا.. لنا دور مطلوب.. ورقم لا يصح حذفه من المعادلة».

أرادها محمود عباس، أو تمنى أن يعتبرها الآخرون، وبالأخص في

«لا توجد مع أعدائنا طريق مختصرة. فمصر عقدت سلاماً مع إسرائيل بعد هزيمتها في حرب الغفران (أكتوبر).. وهذا ما سيحدث مع الفلسطينيين»

شاؤول موفاز
وزير الدفاع الإسرائيلي

«لم تكن مبادرتنا لتعليق العمليات العسكرية تعني أبداً أن تتوقف العصابات الصهيونية ثم تأتي بعد ذلك أمة مطالبة مستقرة. لا يمنعها شيء»

د. عبدالعزيز الرنتيسي
الناطق باسم حركة «حماس»

«البديل موجود. وقد جرّب بنجاح مع مصر ومع الأردن وحتى مع لبنان عندما انسحبت إسرائيل إلى حدود ١٩٦٧ توقف الأطفال عن الموت هنا وهناك»

يوسي بيلين
يديعوت أحرونوت

شـــروط الهـــدنة:

أعلنت المقاومة الفلسطينية تعليق العمليات العسكرية مقابل شرطين اثنين:

١. الوقف الفوري لجميع أشكال العدوان الصهيوني بما في ذلك الاعتقالات والمصادرات والاعتداء على المقدسات.

٢. إطلاق سراح جميع الأسرى والمعتقلين (نحو من ثمانية آلاف معتقل).

الانتهاكات الإسرائيلية خلال الشهر الأول للهدنة:

١ - عدد القتلى والجرحى الفلسطينيين = ١٦٣ (منهم ٥٣ طفلا ورضيعا)

٢ - عدد الذين اعتقلوا من على الحواجز الأمنية أو من البيوت = ٢٧١ (بينهم نساء وصبيان لم يبلغوا الخامسة عشرة من العمر)

٣ - عدد المنازل التي هدمت = ١٣١ (لم يضبط في واحد منها سلاح أو ذخيرة)

٤ - عدد أشجار الزيتون والموالح التي اقتلعت = ٦٢٩٧ شجرة مثمرة

٥ - مساحة الأراضي التي صودرت = ٥٤٠٠ دونم (حوالي ٢٧٠٠ فدان)

٦ - عدد السيارات التي دمرت = ٨٦ سيارة (بينها سيارة إسعاف)

مكان للحمائم

أيمن الصياد

واشنطن «نهاية لعسكرة الانتفاضة» فيقطعون خطوات «حقيقية» لا لفظية على «طريق الخارطة». وأرادها عرفات. كعادته. إمساكاً بالعصا من المنتصف «على أمل». وهل بيده غير ذلك، بعد الحادي عشر من سبتمبر.. والعراق.. والحصار.. والدماء. وأرادها شارون إعلاناً لنجاح سياسته التي لم يخلع عنها يوماً: «تكسير العظام» وإيهاماً لمواطنيه بأن «الانتفاضة انتهت».

هكذا أرادها الجميع. ولم يكن ممكناً أبداً أن تحدث «كل المتناقضات». فالفلسطينيون مع الممارسات الإسرائيلية «اليومية» لا يرون أمامهم «أي ضوء في نهاية النفق». والإسرائيليون لا يريدون أن يضيعوا ما يعتبرونه «فرصة تاريخية» لحل نهائي يضمن «دفناً أبدياً» للقضية الفلسطينية. وجورج بوش تحت هاجس الإرهاب «الحقيقي أو المبالغ فيه» لا يبدو أن بإمكانه أن يرى «الطريق واضحاً». وأوروبا «القديمة» والعرب ليس بيدهم غير الأمنيات، والزيارات.. والاتصالات الهاتفية.

لماذا انهارت الهدنة.. ولماذا تبدو مستحيلة؟

«الإرهاب الإسرائيلي المقدس» كتاب من تأليف ليفيا روكاخ، ابنة إسرائيل روكاخ، وزير الداخلية في حكومة موشي شاريت في الخمسينيات. عرضت له دورية The Link في عددها الأخير، وذكر به جهاد الخازن في «الحياة». وتنقل المؤلفة في الكتاب من المفكرة الخاصة لرئيس الوزراء الإسرائيلي موشي شاريت، ما يثبت أن إسرائيل منذ تأسيسها وقبله، وحتى اليوم، مارست الإرهاب «لاستفزاز الطرف الآخر واستدراجه إلى الرد».. ولخدمة هذا الغرض تقول ليفيا روكاخ أن القادة كانوا مستعدين للتضحية بأرواح اليهود أنفسهم في عمليات الاستفزاز المدبرة لاستدراج الرد، ثم الرد على الرد.

هل نجح الاستفزاز الإسرائيلي في استدراج منظمات المقاومة الفلسطينية لدائرة العنف الذي يحسبونه (أي الإسرائيليون) محسوماً مقدماً لصالحهم؟!

يقول قادة المقاومة: «لم يترك الإسرائيليون أمامنا خياراً آخر. فما الفرق بين أن تموت بحزام ناسف أو أن تموت في سيارتك او بين أهلك بصاروخ أباتشي؟».. ويالها من مفارقة ثقافية حين يبدو أن اليهود في القرن الواحد والعشرين يدفعون أعداءهم دفعاً إلى الخيار الوحيد: «خيار شمشون».

هل يريد شارون السلام؟ وهل يعمل الساسة الإسرائيليون حقاً على ذلك؟

جدعون ليفي في «هاآرتس» يجيب على السؤالين بالنفي. موضحاً أن لا عناء كبيراً يستوجبه اكتشاف تمسك شارون بتدمير أي رغبة في السلام لدى الفلسطينيين وتشبثه بالكذب سلاحاً لتيئيس خصمه: فبعد «مسرحية» إطلاق الأسرى، يأتي تخريب خطة الانسحابات من المدن، ويتبعهما استمرار مسلسل الاغتيالات والتصفيات الجسدية. يجتهد ليفي في تشخيص داء خارطة الطريق: «المشكلة كما في أوسلو، ليست في الخطة بل في التطبيق.. بعد الهدنة كل الخطوات الإسرائيلية مجرد مسرحيات. حياتنا تغيرت ولم تتبدل حياة الفلسطينيين، وخيبة آمالهم ستكون كارثية.. يريد زعيم الليكود كل شيء من خصمه بلا مقابل».

على الناحية الأخرى، هناك من يعبر عن المزاج العام في إسرائيل. فيكتب أريه الداد في «يديعوت أحرونوت» مشدداً على كون الحرب مع العرب أبدية «حتى يتنازلوا عن أي مطلب في شبر واحد من أرض فلسطين..!» ويسخر الكاتب الإسرائيلي من أولئك الذين يتحدثون عن «العدل»، موضحاً أنه «في عالم مثالي يسود العادل.. ولكن في عالمنا الواقعي يسود القوي»، مضيفاً «يجب على إسرائيل أن تعلن أنها لن تسمح أبداً بقيام دولة فلسطينية غرب نهر الأردن.. ومن لا يعجبه ذلك فليشرب من من بحر غزة».

وقد يكون مثيراً للمتفائلين أو الذين يملأون الدنيا صخباً لأن العرب يضيعون الفرص المتاحة، أن يقرأوا ما ذهب إليه «الداد» وهو يعبر عن قطاع لا يستهان به في إسرائيل من أن «الإرهاب الفلسطيني» ليس المشكلة إذ يمكن هزيمة الإرهاب. كما أن طلب عودة اللاجئين ليس المشكلة إذ يمكن توطينهم في دول عربية أخرى.. إذا لم يكن هناك إرهاب وإذا لم يكن هناك لاجئون فالمشكلة أن العرب يعتقدون أن لهم حقاً في جزء مما يعتبرونه أرض فلسطين: «يجب إعلان أنه لن تقوم أبداً دولة فلسطينية غرب الأردن حتى وإن اقتضى الأمر نقض كل الاتفاقات بيننا وبين العرب. منذ اتفاق وايزمان/ فيصل وحتى تفاهمات الهدنة».

هاقد عدنا إلى نقطة البداية. رغم كل المحاولات والادعاءات. فماذا بعد؟

كولين باول الذي تتجاهل إدارته وجود عرفات أصلاً. توجه إليه بالخطاب «المباشر» ليطلب منه الضغط على «حماس».

أسامة الباز الذي هرع إلى هناك في محاولة إطفاء حريق، لا أحد يضمن المدى الجغرافي لشراراته، حذر من «كارثة قادمة».

الفلسطينيون الذين عيل صبرهم والذين كانوا اقتربوا كثيراً من حافة صدام داخلي «ربما كان يحاك لهم»، وحدتهم صواريخ الأباتشي على سيارة «بوتسنسب» وشعارات المائة ألف في جنازته.

الإسرائيليون الذين وضعوا عرفات والشيخ ياسين وحسن نصر الله على القائمة أعلنوا أنهم سيوقفوا «برنامج الاغتيالات» ٢٤ ساعة (!) واعتبروا في استطلاع للرأي أن الهدنة قد انتهت.

وفي كل الأحوال يبدو أن الجميع قد بات يعد لمرحلة ما بعد «بومازن». والذي صار كل الذين أضعفوه يتحدثون عن ضعفه. ليصبح الضعف فريسة، والرجل كبش فداء لفشل مبادرة أمريكية أخرى.

وسواء تم إحياء الهدنة «المستحيلة».. أو ماتت، يبقى من المفارقات (وهي كثيرة، ربما بعدد من ذرفوا دماءهم على تلك الأرض المقدسة عند فجر التاريخ) أن نهاية هدنة الأشهر الثلاثة، إذا وصلت الهدنة. فعلياً. لنهايتها، تصادف التاسع والعشرين من سبتمبر الحالي. وهو اليوم الذي تكمل فيه الانتفاضة الفلسطينية عامها الثالث.

ماذا إذن تخبئه لنا المصادفة/ المناسبة؟

في شأن آخر قال عمرو موسى أمين الجامعة العربية، عشية الحرب على العراق أنها (أي الحرب) ستفتح أبواب جهنم على المنطقة.

قبل أسابيع، التقط مصور وكالة «رويتر» صورة لأسراب حمام «فلسطينية» تفزع واجفة أمام مجنزرة «إسرائيلية».

المكان (حسب البيانات المرفقة مع الصورة): قطاع غزة.

والزمان (الذي بات شعاره «القوة فوق العدل»): هو هذا الزمان الذي يبدو أن لا مكان فيه لوداعة، أو سكينة، أو سلام.. أو حمام. ■



تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك، وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

اليتيم.. الوعد والخلاص الموعود

محمد سامح سعيد

القاهرة - بيروت: دار الكتاب المصرى واللبنانى، ٢٠٠٣، ١٠٣١ صفحة



يهدف الكتاب إلى إبراز شخصية الرسول الكريم بأسلوب مبسط، وهو موجه إلى العالم أجمع، لذا كتبه المؤلف باللغتين العربية والإنجليزية فى نفس الوقت، وهو يسرد سيرة النبى محمد ﷺ فى ضوء البشارات ووحدة الرسالات التى نبأت بقدومه وبشرت بخلاص البشرية على يديه.

المؤلف يقدم عبر سيرة الرسول القدوة التى يحتاجها الشباب فى عالم يموج بالمادية والانتهازية وتغييب عنه الأخلاق التى وقفت خلف كل فعل أتى به الرسول الكريم، والتى مكنته من إتمام رسالته ووضع أسس دولته وإرساء دعائم حضارة سادت الدنيا وعلمتها الكثير.

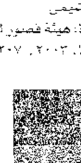
الكتاب يتألف من ٥١ فصلاً تتابع سيرة الرسول الكريم منذ الميلاد وحتى انتقاله إلى جوار ربه.

❊

الخدع والمؤثرات الخاصة فى الفيلم المصرى

سعيد شيمى

القاهرة: هيئة قصور الثقافة/سلسلة آفاق السينما، ٢٠٠٣، ٢٠٧ صفحات



هذا هو الجزء الثانى من كتاب المصور سعيد شيمى الذى أدار تصوير عشرات الأفلام المهمة فى مسيرة السينما المصرية، عن الخدع والمؤثرات الخاصة فى السينما المصرية، وهو هنا لا يتطرق إلى الخدع والمؤثرات فى عمومها وإنما إلى تلك التى استخدمتها السينما المصرية بمحدودية قدراتها المادية والتقنية، ومنها استخدام الأسلحة البيضاء والأسلحة النارية والمعارك الحربية والانفجارات ومؤثرات الحرائق والأشخاص المشتعلين، والمخاطر التى يواجهها الدوبلير والمجاميع المحتشدة فى التحامات قوية وسط النيران، فضلاً عن خدع ومؤثرات الطبيعة من سقوط أمطار وثلوج ورياح وعواصف وغيرها، والكيفية التى تستخدم بها الدمى بديلاً عن الأشخاص الحقيقيين.

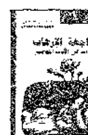
والمؤلف الذى صور نحو ٧٦ فيلماً تسجيلياً وقصيراً ونحو ٩٨ فيلماً روائياً طويلاً وحصل على ٣٧ جائزة فى التصوير والإخراج، يقدم نماذج تطبيقية لأفلام شارك فيها، وأخرى صورها آخرون.

❊

مواجهة الإرهاب

جابر عصفور

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣، ٤٠٠ صفحة



القمع الفكرى والمادى الذى تمارسه الدولة البوليسية فى بقاع عدة من الوطن العربى ضد مواطنيها، ومثقفيها بالأخص، هو الوجه المقابل لعملة الإرهاب الذى تمارسه الجماعات المتسربلة بغطاء الدين، والتى بات وجودها ضاغطاً وفادحاً فى غير بلد عربى.

من موقعه كمتخصص فى النقد الأدبى، يبحث المؤلف فى المواجهة الإبداعية لظاهرة الإرهاب، التى أطلت برأسها بقوة منذ أواسط السبعينيات، وبلغت ذروتها - فى مصر - فى اغتيال الرئيس السادات فى أكتوبر ١٩٨١، ومازالت تجلياتها تترى، وهو يركز بشكل أساسى على الرواية، التى بدت مهمومة بالظاهرة أكثر من الأجناس الأدبية والإبداعية الأخرى، وإن كان ذلك لم يمنع المؤلف من الإشارة إلى قصيدتين لأحمد عبد المعطى حجازى وحسن طلب، ودراما أسامة أنور عكاشة خصوصاً ليالى الحلمية التى ظهر فيها نموذج لمتطرف، وقدمت نموذجاً لكيفية تكوينه وصعوده وطبيعة علاقاته، وكذلك فعل وحيد حامد فى «العائلة» وأرابيسك» وفيلم «الإرهابى». ولم ينس المؤلف أن يشير إلى مسرحية الكاتب السورى الراحل سعد الله ونوس «منمنمات تاريخية» التى كشفت عن جانب مهم من ظاهرة صعود التطرف.

وتستحوذ رواية «الزلزال» للأديب الجزائرى الطاهر وطار (بيروت ١٩٧٤) على اهتمام المؤلف أكثر من غيرها وهى برأيه رواية «علامة» فى هذا الإطار كونها تغوص فى وعى المتطرف وتضعنا فى حضرة عقلية التطرف من داخلها، حيث ترى آلياتها الدفاعية وسياقات تبريرها لما تفعل.

ومثّلت قصة يوسف إدريس «اقتلها» (١٩٨١)، والتى نشرت قبل اغتيال السادات تنبؤاً حاسماً بما يمكن أن تصل إليه الأمور، وكانت رواية «الأفيال» لفتحى غانم تشريحاً للأسباب التى أدت إلى شيوع التطرف. يتعرض المؤلف أيضاً لرواية الراحل عبد الحكيم قاسم «المهدى» ورواية لويس عوض «العنقاء»، ومسرحية محمد سلماوى «الزهرة والجنزير» وغيرها من الأعمال الإبداعية التى واجهت التطرف والإرهاب، سواء بتشريح أسبابه، أو بالتحليل النفسى والاجتماعى للإرهابى نفسه، وكشف البنى الفكرية التى تمكنه من «عقلنة» جرائمه.

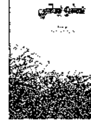
❊

مئويتى

جونتر جراس

ترجمة: جيزلا فالور حجار

كولونيا: منشورات الجمل، ٢٠٠٢، ٣٢٢ صفحة



مائة عام (١٩٠٠-٢٠٠٠) يرصد صاحب «الطبل الصفيح» تحولاتها فى بلاده والعالم، وهو يعنون فصول كتابه بتواريخ فاصلة جرت فيها أحداث مهمة، بعضها كان بسيطاً لكنه ذو دلالة، يلتقطها الكاتب الألمانى الحائز على جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٩٩، وجراس ليس فقط كاتباً غزير الإنتاج، وإنما أيضاً عميق التجربة، وهو ما يمنح تلك الأوراق أهميتها، فقد التحق بالجيش الألمانى جندياً فى سلاح الجو فى عام ١٩٤٤، أى إبان الحرب العالمية الثانية، ووقع فى الأسر الأمريكى، وكان عمره وقتها سبعة وعشرين عاماً، وحين أطلق سراحه مارس العديد من المهن فى الزراعة والمناجم، ثم تعلم الحفر على الحجر والنحت وفنون الجرافيك فى أكاديمية الفنون بدوسلدورف وأكمل دراسته فى كلية الفنون ببرلين، وفى العام ١٩٥٥ نشر أولى قصائده، ثم رحل إلى باريس وبقى فيها حتى العام ١٩٦٠ حيث أنجز «الطبل الصفيح».

يقول «جراس» فى أحد المقاطع متندراً من الوحدة الألمانية: «ماذا تقولون؟ مسيرات؟ مئات الألوف تظاهروا بالشموع ضد كره الأجانب؟ دعونى أسألكم: وما الفائدة؟ حصل ذلك عندنا أيضاً، كميات هائلة من الشموع، وبعد ماذا استفدنا؟ صحيح سقط الحائط وبعد؟ فجأة يتكاثر هنا اليمينيون المتطرفون يوماً بعد يوم.. شموع شموع، الشموع لا تحل المشكلة. روحوا واسألوا الناس: ماذا يحس الإنسان الذى يصير بين ليلة وضحاها عاطلاً عن العمل؟

❊

لو لم يظهر الإسلام ما حال العرب الآن؟

شاكر النابلسى

بيروت: دار الآفاق الجديدة، ٢٠٠٣، ٣٨٤ صفحة



تستند الدراسة التى اضطلع بها المؤلف، والذى سبق له أن قدم دراسات نقدية فى النظريات الأدبية والسياسية والاقتصادية، إلى ما بات يعرف فى النظريات العلمية باسم نظرية الواقع المعاكس أو الواقع المضاد أو نظرية الاحتمالات العلمية، وهى التى تقوم أساساً على تصور الواقع المفترض، فيما لو لم يكن الواقع الذى نعيشه قائماً، وهى نظرية علمية تتصل بعلم الرياضيات وعلم المنطق ولا تفترض واقعاً سوياً أو طوباوياً لا يقوم على أساس.

يقدم المؤلف هنا ثلاثة سيناريوهات محتملة لكل من الواقع الدينى والثقافى والسياسى والاقتصادى والاجتماعى العربى فيما لو لم يظهر الإسلام، وبقى العرب وثنيين أو اعتنقوا اليهودية أو المسيحية، إنها دراسة لحالة العرب فى القرن السابع الميلادى، حين ظهر الإسلام، ترى ماذا سيكون عليه حالهم لو لم يظهر الإسلام؟

❊

ضد الحرب فى العراق

المحرر: جريج روجيرو
ترجمة: إبراهيم الشهابى
دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٣، ١٠٨ صفحات

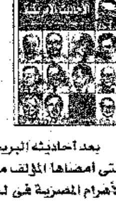


يضم الكتاب بعضًا من أصوات الضمير الإنسانى الجمعى، مثقفون من أمريكا وقفوا ضد حرب بوش على العراق، ورأوها على حقيقتها، ظالمة ولا إنسانية. والمؤلفون الثلاثة هم «ميشيل راتز» رئيس مركز الحقوق الدستورية الذى رفع عشرات الدعاوى متحديًا صلاحية الرئيس الأمريكى، وجينى جرين، المتخصصة فى القضايا القانونية المتعلقة بحقوق الإنسان العالمية، وباربارا ولشانسكى، ولها إسهامات مهمة فى قضايا متعلقة بحقوق المهاجرين والمساجين والتمييز العنصرى، وهم يجيبون عن تساؤلات مهمة من نوع: هل هناك حاجة للحرب، وما هى مشروعية الحجج التى قدمها بوش للعالم ليشن حربه القذرة، ثم ما هو موقف القانون من هذا الاندفاع الإجرامى نحو القتل والتدمير، وأخيرًا: هل ثمة بدائل لما أقدمت عليه الإدارة الأمريكية المتطرفة، وما حسابات المكسب والخسارة فى الحالين.

❊

الحوارات الأمريكية

عمرو عبد السميع
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٣، ٤٩٢ صفحة



بعد أحاديثه البريطانية عن السنوات التى أمضاها المؤلف مديرًا لمكتب جريدة الأهرام المصرية فى لندن، يقدم المؤلف الأحاديث الأمريكية مع عديد من صناع القرار فى واشنطن أو من القريبين من صناعته والعالمين ببواطنه، بينهم جيمس زغبى رئيس معهد العرب الأمريكيين، خليل جهشان رئيس الرابطة القومية للعرب الأمريكيين، د. هالة مقصود رئيس لجنة مكافحة التمييز العنصرى، نهاد عوض مدير مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامى، د. كلوفيس مقصود، على أبو زهلوك المدير التنفيذى للمجلس الإسلامى الأمريكى، د. وليد الخالدى، د. هشام شرابى، د. رشيد الخالدى، رئيس الجمعية العربية الأمريكية للقدس، روبرت مايبل السفير فوق العادة للحرية الدينية فى الخارجية الأمريكية، مايكل شيهان رئيس مكتب مكافحة الإرهاب بالخارجية الأمريكية، دافيد شيفرز رئيس قسم جرائم الحرب بالخارجية الأمريكية، ثم دنيس روس منسق عملية السلام فى الشرق الأوسط السابق، وغيرهم.

والمؤلف فى هذه الحوارات يصور الملامح العامة للسياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط والمؤثرات والعوامل التى تحكم هذه السياسة، وتجيب عن أسئلة مهمة من نوع: كيف تنظر أمريكا للعرب وكيف ينظرون إليها، ما أصل المعايير المزدوجة، ما العلاقة بين العرب والواقعية السياسية الأمريكية، ما حقيقة لعبة الإرهاب وكيف تتم عملية توزيع الأدوار فيها؟

عشرات الأسئلة تجد إجاباتها فى ثنايا هذه الحوارات المهمة.

❊

آيات الصمود

فانى كولونا
ترجمة: لطيف فرج
القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٣، ٤٠٧ صفحات



تقدم المؤلفة هنا من خلال ٤ قصص تطور قرن كامل من الأحداث فى الجزائر، بأسلوب يجمع بين علم النصوص وعلم الاجتماع، وتكشف عن أهمية النصف الأول من القرن العشرين فى فهم أحداث الجزائر المعاصرة وتأثير مجرياته على ما يحصل فيها اليوم، وتعتمد فى تحليلها للأوضاع على الثوابت والمتغيرات فى المجال الدينى، وتقدم «أسلاف الآخرين» ليس بوصفهم أشرارًا شرسين، وإنما كصانعى ثقافة كان الدين فيها كل شىء، وهى تشير هنا إلى جانب مفتقد من الرؤية للدين فى جزائر اليوم: الجانب الإيجابى الذى يرى الدين قوة هائلة للتعبئة، طريقة لتصور العالم فى تحولاته المتسارعة، إنها تبين كيف أن نصًا غير قابل للتغيير والتعديل بحكم قداسته يمكنه أن يمنح - من خلال فهم جديد لهذه النصوص ذاتها - قوة دفع هائلة للتواصل مع العالم وتحولاته: فهذا النص قدمه علماء أفذاذ فى عصور خلت، وهو فهم يختلف بالضرورة عن ذلك الذى يسيطر على عقول ساكنى جبال الأوراس من الفلاحين الجزائريين.

❊

ثروة المعرفة وصناعة الثروة

محمود محمد حسين
القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٢، ٢٢٦ صفحة



يقدم الكتاب معلومات أساسية تفيد غير المتخصص فى فهم الأنشطة الاقتصادية، وهو يتألف من ثمانية فصول، الأول تعريف بالمشكلة الاقتصادية وعنصريها وهما الحاجات الإنسانية والموارد، ويتطرق بالضرورة إلى مصادر الثروة وخصائصها والنظم المختلفة فى كيفية تعاملها مع المشكلة الاقتصادية.

ويناقش الفصل الثانى الناتج المحلى الإجمالى وطرق قياسه وعلاقته بالناتج القومى، ويدرس الفصل الثالث كيفية إنتاج الثروة فى المجتمع، شارحًا عناصر تلك الثروة من موارد بشرية وطبيعية. ويعرض الفصل الرابع لقوة السوق من عرض وطلب وكيفية تحديد ثمن الثروة، وفى الفصل الخامس يناقش المؤلف كيفية تقييم جدوى المشروعات الاستثمارية، ومراحل دراسة الجدوى. ويركز السادس على الاستثمار وكيفية اتخاذ قرار استثمارى، ويتناول السابع موضوع التجارة الدولية والأسس التى تقوم عليها، أما الأخير فيهتم بموضوع ميزان المدفوعات الدولية وأقسام وبنود هذا الميزان.

❊

أوهام الإسلام السياسى

عبد الوهاب المؤدب
الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ٢٠٠٢، ١٨١ صفحة



ترد معظم الكتابات العربية ما جرى للعرب والمسلمين إلى الآخر الغربى، الكولونيالى بما تنطوى عليه النزعة الاستعمارية من ابتزاز وتسلط. فالفقر والجهل والانحطاط وأوجه التخلف فى عمومها، مردها إلى سنوات القهر التى عاشتها دولنا فى ربقة هذا الاحتلال.

هذا جانب واحد من الصورة، الجانب الآخر هو ما يركز عليه المؤلف هنا فى كتابه الذى كتبه فى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر، وهو يلقى بالائمة فيما جرى على ذلك الفهم الأصولى الضيق شديد التطرف الذى صنع هؤلاء الـ «بنلادنيين»، الذين لا يهددون - برأيه - حضارة الغرب فحسب، وإنما قبلها، حضارة الإسلام، ويتلمسون قدرتها على التعاطى مع العالم من حولها، وهو ينهى بأول آيات التسامح فى القرآن الكريم: «لا إكراه فى الدين»، «ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر».

وعبر استقرائه للتاريخ الإسلامى وتحليله لدوافع الحركات الإسلامية فى غير بلد عربى، ينتهى إلى: «ليس الإسلام أصل الداء، فأولئك الذين اعتنقوا الإسلام عملوا على إبدال حتى بنية الحضارة، فليس الإسلام بالتالى هو أصل المصيبة، بل المصيبة هى ما فعله المسلمون أنفسهم بالإسلام».

يفتح الكتاب على كل حال أفقًا للتفكير والخلاف وتوسيع دوائر المناقشة، وهى ميزة نفتقدها كثيرًا.

❊

بردة النبى

روى متحدة
ترجمة: رضوان السيد
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣، ٤٤٣ صفحة



ما جرى فى إيران منذ بدايات العام ١٩٧٨ من تظاهرات واحتجاجات أدت فى النهاية إلى اندلاع الثورة الإيرانية مثّل بالنسبة للمؤلف - وصفًا مألوفًا وجديدًا فى الوقت نفسه فى مجرى التاريخ الإيرانى، هو مألوف لأن الدافع الأخلاقى الذى حرك آيات الله من أئمة الشيعة، لم يكن مغايرًا للدوافع التى أثارت فقهاء الشيعة ذاتهم قبل ألف عام، وجديد لأن تلك الأخلاقيات ذاتها - التى أفضت إلى الثورة، عرفت خلال القرنين الأخيرين ثورة فكرية مهمة، تجاوزت «الحوزة» فى قم إلى مدن إيران الكبرى وحتى ريفها.

وبرغم أن الثورة الإيرانية هى موضوع هذا الكتاب بفصوله العشرة، إلا أنه يختار لفهمها منهج التاريخ الثقافى، ولذا يحتل رجال الدين بتسمياتهم وتراتبياتهم المختلفة حيزًا مهمًا فى الدراسة، فمن هؤلاء صار آية الله الخمينى، الذى قاد ثورة أثرت كثيرًا - ومازالت - فى العالم كله.

❊

الفقر والإحسان في عصر
آدم صبرة
ترجمة: قاسم عبده قاسم
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢، ٣٠٠ صفحة



موضوع الكتاب في الأصل رسالة جامعية تقدم بها المؤلف - الذي يعمل أستاذًا مساعدًا زائرًا للعصور الوسطى الإسلامية في جامعة بيتسبرج بالولايات المتحدة - للحصول على درجة الدكتوراة.

ويقدم الكتاب معالجة طويلة لموضوع الفقر والإحسان في القاهرة في عصر سلاطين المماليك، ودور الأوقاف في تقديم الطعام وفي التعليم والرعاية الصحية للفقراء في العصور الوسطى، وهو يقدم مقارنات عن الفقر والفقراء في أوروبا والصين في الفترة ذاتها، وهي مقارنات دالة، وبحسب ما يشير المترجم في تقديمه، فقد سعى المؤلف إلى رسم حدود دقيقة بين الفقر كمفهوم ديني والفقر في المفاهيم الصوفية وفي المصطلح الاجتماعي، ثم يدرس في فصول تالية المؤسسات التي لعبت دورًا في التقليل من آثار الفقر على الناس، وكذلك تأثير نظام الأوقاف على شيوع أعمال الخير والإحسان، واستعراض المجاعات وحالات الفقر الجماعي التي مرت بالبلاد في تلك الفترة، وهذه جميعًا ترسم صورة للعلاقة بين الدولة ورعاياها في إطار المفاهيم السياسية السائدة آنذاك.

*

الثقافة العالمية
الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (يوليو) ٢٠٠٢



العدد ١١٩ (يوليو) من هذه الدورية المهمة يتضمن عديدًا من المقالات التي تهم القارئ والمثقف العربي، فيقدم مقال «عندما يلتقي هومو الأرنب جنيواه» أفكارًا جديدة تتعلق بالعلوم الإنسانية، وعن جديد علوم الفلك والفيزياء يدور مقال «أين تقع حدود الكون؟ وهل العالم موجود حين لا ننظر إليه؟» وفي السياسة

طروحات عن النهضة المعاقة
عزمي بشارة
بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٣، ٢٧٧ صفحة، ٨ دولارات.



لا تقتصر هذه الطروحات عن النهضة المعاقة على العرب وحدهم، وإن كانت تعالج ظواهر قائمة في المجتمع العربي، وليس الهدف هو نقد هذه الظواهر فحسب، وإنما فتح أبواب الأمل، والتأكيد على أن عوائق النهضة اجتماعية ناشئة تاريخية وليست متأصلة في الجسد العربي بحيث يكون الانفلات منها مواتًا وانسحاقًا.

في هذا الإطار يضع المؤلف، عبر التجربة والنظرية معًا، فكرة بلورة مشروع قومي يقف على قدميه: الهوية الوطنية والديمقراطية، نصب عينيه، وهو لا يرى مفاضلة بين الاثنين، ولا ينفي إحداهما لحساب الأخرى، والفصل على هذا النحو برأيه، يحول القومية إلى مجرد شوفينية تستر التخلف بالمزايدات الوطنية الجوفاء، والمطلوب أن تكون قوميتنا ديمقراطية أيضًا، كي يكون التوجه القومي عقلانيًا مستنيرًا، وكي لا يتحول، بغياب الوجهة الديمقراطية التنويرية، إلى أصولية لا تبتعد كثيرًا عن الأصولية الدينية، ومن مسلمات هذا التوجه الذي يدعو إليه ويبشر به المؤلف، أن ينظر إلى القومية بوصفها رابطة سياسية ثقافية حداثية تؤسس لعلاقة بين الفرد والمجتمع، يكون فيها الفرد مواطنا والمجتمع صاحب سيادة.

وهكذا تفهم القومية الديمقراطية «كرابطة حداثية ذات مخزون ثقافي وتراثي تقف عليه بقدميها، ولا تغرق فيه عبر إسقاط ذاتها عليه لتحوله إلى أسطورة». في إطار السعي إلى عملية النهضة تلك وتحقيق الحداثة تبرز الحاجة إلى ثقافة ومثقفين، وكلاهما لا ينشأ دون معرفة تجعل للنقد قيمة على مستوى الممارسة والنظرية معًا، وبحفز لاكتشاف الفروق والتمايزات بين الفكر والتطبيق.

من معيقات النهضة أيضًا شيوع ما بات يعرف بحوار الطرشان، وفيه ينبري كل طرف في الدفاع عن وجهة نظره متجاهلاً وجهة نظر الطرف الآخر ومعلنًا، يعلو الصوت مع ذلك، أنه يؤمن بحق الطرف الآخر في الخلاف، ومرددًا المقولة البالية المفتقدة لأي معنى: «الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية».

وفي جدال من هذا النوع الذي تتيحه «ثقافة الديوانية»، ينتصر أصحاب الصوت العالي بصرف النظر عن قيمة ما يقولون، وتتلاشى تماما القضية، وفي مجتمعاتنا، وهذا جانب آخر من الصورة، يحتل الود مكانة تتجاوز أهمية القضية والأهلية والكفاءة.

في موضع آخر يشير المؤلف إلى أن أصالة الحداثة تتحقق إذا انطلقت من وعي الذات الثقافية، وتوافرت لديها القدرة على الانفتاح وإعادة إنتاج ذاتها عبر التفاعل مع الثقافات الأخرى ومتطلبات العصر والمجتمع الحديث.

ثمة إعاقة أخرى ينبه الكاتب إليها، وهي تتعلق بتدهور العلوم الطبيعية في المؤسسات البحثية العربية، وسبب ذلك هو غياب عملية الإنتاج العربية، وغياب الاقتصاد الشامل المستقل نسبيًا، وغياب البرجوازية العربية المنتجة أو الباحثة عن استثمارات إنتاجية.

وضمن إطار عمليات التعليم والتعلم، يطرح المؤلف سؤالين مهمين ويجيب عليهما:

الأول: لماذا لم تنشأ فئة من خريجي الدراسات العليا بمستوى معقول في العلوم الاجتماعية؟ والثاني: لماذا بات خريج الجامعة يعود إلى بيته بعد الدراسة دون أن يزداد تنورًا من الناحية الاجتماعية؟

وهو يرجع السبب فيما يتعلق بالسؤال الأول إلى «السلوك الأقلياتي الذي يحدد خيارات الدراسة الجامعية بالمهنة وفرص العمل»، بما يعني أن الطلاب المتفوقين سيتوجهون إلى كليات تؤمن لهم، عمليًا، فرصًا للتوظف، فيما يبقى للكليات الأدبية الطلاب الأقل تفوقًا.

وفي الدعوة إلى انشغال المثقفين بالسياسة لا كأصحاب ألقاب وإنما كمثقفين ذوي رؤى في الممارسة السياسية تكمن إجابة الثاني.

وفي سياق آخر يشير المؤلف إلى جناية شيوع الغيبة، وما تؤدي إليه من ثنائيات تحول دون تحليل المجتمع واتخاذ مواقف بشأن النظام السياسي والاجتماعي القائم، وهذه الحالة في مداها الأقصى تتحول من معيقة للنهضة إلى كارثة تعادي قيم التنوير الأساسية.

هذه «عينة» من معيقات عدة للنهضة العربية تناولها المؤلف في نحو عشرين مقالاً نقديًا.

ورغم أن الطروحات التي يقدمها الكتاب لا تتجنب الخوض في النظرية إلا أنها كما يؤكد المؤلف تنطلق من الواقع الاجتماعي الملموس من أجل تغييره، «باتجاه النهضة والتنوير والتحديث والديمقراطية».

والاقتصاد يبرز مقالان: «العولمة والحادي عشر من سبتمبر» و«قطع الطريق على تمويل الإرهاب».

فضلاً عن مقالات عديدة في علوم وفنون مختلفة.

*

جريدة الفنون
الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب يوليو ٢٠٠٣



«ذويان الجليد.. المسرح أولاً» هو العنوان الرئيسي الذي حمله غلاف عدد يوليو من جريدة «الفنون» ليؤكد على ريادة وأسبقية الفن في إعادة العلاقات الطبيعية بين الشعبين الكويتي والعراقي بعد إزاحة نظام صدام حسين من الحكم.

و«ذوبان الجليد» هي المسرحية التي قدمتها لجنة التآخي الكويتية مع الشعب العراقي وساهم المجلس الوطني في رعاية عروضها على مسرح الشامية.

ضم العدد موضوعات أخرى فكتب نزار شاهين عن جائزة الأغاخان في العمارة الإسلامية، وهو يلقي الضوء على بعض المشاريع التي فازت بالجائزة مثل أبراج الكويت المالية، وترميم قبة الصخرة، بينما راح عبد العالي بن زهرة يبحث عن العلاقة بين الجمالي والوظيفي في الفن الإسلامي.

في دراسته المهمة عن الفنون الشعبية في واحات وادي درعة، قدم محمد البوزيدي عرضًا شاملاً لأهم أنواع الرقصات الشعبية، وطريقة أدائها والآلات الموسيقية المستخدمة فيها، في حين تساءل شربل داغر عن العلاقة بين الفن والعولمة والعنف، وكتب بندر عبد الحميد عن رائد الجداريات الملحمية الحديثة دييجو ريفيرا (١٨٨٦ - ١٩٥٧) أحد أضلاع المثلث الأكبر في حركة الفن التشكيلي المكسيكي الحديث، وحول العلاقة التي أبرزتها الفلسفة الجمالية الغربية بين أنواع الفنون كتبت ريتا عوض عن علاقة الشعر بالتصوير، واحتفت «الفنون» هذا العدد بالفنان العراقي كاظم الساهر.

في باب المتاحف قدمت «الفنون» عرضًا لثلاثة متاحف الأول هو متحف جيفري الإنجليزي المتخصص في عرض مقتنيات البيوت العريقة في الفترة من عام ١٦٠٠ حتى عام ٢٠٠٠، والثاني متحف زكريا الخناني في منطقة سقارة الأثرية في القاهرة، والثالث يقدم إطلالة سريعة على بعض الكنوز العربية التي تزين متاحف ومعارض أسبانيا.

وكتب حسن خاك رند المستشار الثقافى للسفارة الإيرانية فى الكويت، عن تاريخ الموسيقى الإيرانية منذ بدايتها المعروفة فى العهد الساسانى، وحتى الآن. وعن مواقع الإنترنت التى تهتم بالأعمال الفنية المرسومة على الزجاج، كتبت هبة الغريب عن الإبداع اللامتناهى فى عالم الزجاج.

نظرة تحليلية لمسيرة الفنان السورى بسام كوسا رصدها الكاتب راسم المدهون تحت عنوان «قوة الموهبة ومصداقية الأداء» بينما كتبت ميس العثمان عن رؤيتها لمسلسل «حنين» إخراج باسل الخطيب وبطولة أيمن زيدان وسوزان نجم الدين.

فى باب السينما قدم د. جهاد عطا نعيسة دراسة نقدية لفيلم المخرج السورى عبد اللطيف عبد الحميد «قمران وزيتونة»، بينما ترجم عز الدين الخطابى دراسة نقدية لفيلم «لغز بيكاسو» الذى يرصد علاقة هذا الفنان الكبير بالسينما.

※

العولمة والإرهاب
حرب أمريكا على العالم

نعوم تشومسكى - نورمان فينكلشتاين
ترجمة: حمزة المزينى
القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠٣



منذ أن وقعت أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، يسعى اليمينيون المتطرفون فى الإدارة الأمريكية وأنصار إسرائيل فى الولايات المتحدة، إلى تعميم الانطباع بأن الشعب الأمريكى يناصر بالكامل سياسات حكومته فى المنطقة العربية، بما فيها انحيازها السافر لإسرائيل بحجة محاربة الإرهاب، وكأن هؤلاء يدفعون العرب دفعاً إلى عداء أمريكا، كى يبرهنوا للأمريكيين على كراهية العرب لهم. فإذا ما برز موقف مناهض لتوجهات الإدارة الأمريكية، يوصم صاحبه بالغباء وعدم الفهم.

ومن المدهش أن أمريكا التى تحارب الإرهاب خارج حدودها، بدأت تمارسه فى الداخل بفرضها قيود صارمة على حرية الحركة والكلام، وهى الحريات التى كان يفاخر بها الأمريكيون؛ لهذا كله تكتسب ترجمة هذه المقالات أهميتها، كى تقف بجانب هؤلاء الكتاب الشجعان من ناحية، وكى نتعرف على حقيقة موقف قطاع عريض من المثقفين الغربيين الذين يدركون حقيقة المأساة.

※

الشافعى الإمام الأديب

محمد إبراهيم الفيومى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٣، ٨٦ صفحة



برز الشافعى فى الثقافة العربية والإسلامية بجانب إبداعى لم يعرف قبله، وهو تأسيسه علم «أصول الفقه»، ضمنه فى كتابه «الرسالة»، والإمام الشافعى ولد فى مدينة غزة، أو عسقلان، كما روى عن نفسه.

وكانت ولادته عام ١٥٠ هـ، وهى السنة التى توفى فيها الإمام أبو حنيفة، وكان أبوه قد خرج إلى فلسطين لحاجة فتوفى، وعادت به أمه إلى مكة وهو ابن سنتين خوفاً من ضياع نسبه، وعاش بشعب الخيف حياة فقر وإملاق؛ لأن عائلته كانت فقيرة. وقد قال الشافعى عن نفسه: «كنت يتيماً فى حجر أمى، ولم يكن لها مال، وكان المعلم قد يرضى منى أن أخلفه إذا قام، فلما جمعت القرآن دخلت المسجد، وكنت أكتب فى العظم، فإذا كثر طرحته فى جرة عظيمة وخرجت من مكة ولزمت هذيلاً فى البادية أتعلم كلامها، وآخذ اللغة العربية. وكانت أفصح العرب».

قدم الشافعى مصر ١٩٩هـ، وتوفى بها ٢٠٤هـ، ويقول ابن عبد الحكم: الشافعى علم أهل مصر الاحتجاج، ولم تطل إقامته فى مصر أكثر من أربع سنوات، حيث وافته المنية وهو فى القاهرة.

فالشافعى كان فيلسوفاً معبراً عن نزعته العربية وتراثه الإسلامى، فهو فيلسوف فى اللغة، واختلاف الناس، والمعانى، والفقه، وتلك عمد الثقافة العربية والإسلامية، بيد أن تأمل الشافعى موجه إلى مشكلات الثقافة والفكر، ومنهج ارتباطهما بالإسلام، والبحث عن الحلول الكفيلة لبقاء مسايرة الإسلام لمتغيرات المجتمع ومشكلاته.

يمثل كتاب الرسالة الذى وضعه الإمام الشافعى نمطاً جديداً فى التأليف الإسلامى، وطرازاً فريداً فى المنهج العلمى، ويعد من أشهر كتبه على الإطلاق، والأمر الغريب فى كتاب الرسالة أنه ألف مرتين:

. المرة الأولى فى مكة، وقد ألفه استجابة لطلب عبد الرحمن بن مهدى، الذى كتب إليه أن يضع له كتاباً فيه معانى القرآن، ويجمع فيه فنون الأخبار وحجة الإجماع، وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة، فوضع له كتاب الرسالة.

. المرة الثانية فى مصر، عندما استقر فيها، وكان آنذاك يناهز الخمسين عمراً، ويطلق على الرسالة الأولى الرسالة القديمة ويطلق على الرسالة الثانية المصرية: الرسالة الجديدة.

※

قصة تطور العقل البشرى

محمد عبد الحميد محمد أبو زيد
القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٣، ٢٥٦ صفحة



عبر استعراض قصة تطور العقل البشرى، والتطور الإنسانى فى عمومه، يسعى الكتاب إلى تأكيد مفاهيم عدة منها، أن الحضارات الإنسانية على تنوعها متواصلة، تسلم إلى بعضها البعض، وأن الحضارة الإسلامية بعلمائها الأفذاذ كانت هى النبع الذى نهلت منه حضارة أوروبا، فانتعشت وازدهرت فى الوقت الذى أفلت فيه حضارة المسلمين.

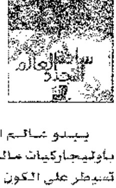
وأن العلم قوة دائمة وهو الوسيلة الوحيدة للتقدم الحضارى، وأن تطوير القانون الأخلاقى وتفعيله هو الذى يمكننا من قطف ثمار العلم وتجنب شروره، ويمنح الحضارات والثقافات الإنسانية القدرة على التواصل والحوار، ويقضى على أسباب الصراع.

المؤلف، وهو طبيب بشرى مخضرم، يمنح العلم والتقدم التكنولوجى أهميته المفترضة فى قصة تطور الإنسانية وشروط بقائها.

※

سادة العالم الجدد

جان زيجلر
ترجمة: محمد مستجير مصطفى
القاهرة، دار سطور، ٢٠٠٣، ٤١٢ صفحة



يبدو عالم اليوم محكوماً بأوليجاركيات مالية عابرة للقارات، تسيطر على الكون ومقدراته، خطابها وممارساتها تتعارض جذرياً مع مصالح الأغلبية الساحقة من سكان الأرض.

العولمة، هى التجلى الأكثر بروزاً فى هذه المسألة، حيث تدمج الاقتصاديات الوطنية الصغيرة فى إطار نظام اقتصادى عالمى لا قدرة لها على مقاومته، وبرغم التراكم الرأسمالى الضخم الذى جرى فى العقود الأخيرة، وبرغم تضاعف الإنتاج العالمى، وبلوغ حجم التجارة العالمية قدراً غير مسبوق، فإن من يموتون كل يوم بسبب الحرب والجوع فى قارات العالم الفقيرة فى زيادة.

المعادلة التى يطرحها عالم اليوم بسيطة: من لديه مال يأكل ويعيش، ومن ليس لديه يموت.

هذا الكتاب يواجه تلك المعادلة القاسية فى أجزاء أربعة، يستكشف الجزء الأول الصولجان والمدور التى تمنحه الإمبراطورية الأمريكية فى كل هذا الذى يجرى، أما كيف يفعلون ذلك، وطرقهم فى الإفساد والتخريب وتدمير البشرية، فيختص بها الجزء الثانى، ويحلل الجزء الثالث نشاط المرتزقة الذين يعملون فى خدمة هذا النظام: مشعلو الحرائق فى صندوق النقد الدولى، ومتعصبو البنك الدولى ومنظمة التجارة العالمية، لكن يبقى الأمل فى مجتمع مدنى كوكبى جديد ينازع هذه الإمبراطورية ويقاومها عبر جبهات رفض عديدة، تولد أملاً فى المستقبل، وهذا هو موضوع القسم الرابع من الكتاب.

※

المرأة والجنس.. بين الأساطير والأديان

كاظم الحاج
بيروت: مؤسسة الانتشار العربى، ٢٠٠٢، ١٦٠ صفحة



يشير الاستعراض فعلاً أن التمييز الجنسى لا يظهر إلا فى المجتمعات البشرية حصراً، فالدارسون لعالم الحيوان لم يؤثروا استعلاء للذكر على أنثاه، بل ربما كان العكس هو الصحيح فى بعض الحالات.

فالتمييز الجنسى إذن، بحسب ما يذهب المؤلف، هو ابن ثقافة الوعى بالمكانة عند الذكر، فكأن الارتقاء المعرفى والفكرى والدينى للمجتمع الإنسانى أضافوا للذكر وحققوا سيادته، خصماً من مكانة الأنثى وموقعها.

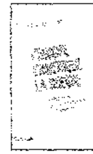
وتفسير المظاهر الذكورية تجاه المرأة فى المجتمع العربى الإسلامى، يكشف عن أن حججها ترتبط بدوافع اجتماعية تاريخية، أكثر من ارتباطه بتفسير النصوص الدينية، وهذه المسألة تتجلى فى أوضح صورها فى عصور الانحطاط والتأخر، إذ يتم استبعاد النساء لمتلق الرجال، لحساب «ناقصات عقل ودين»، ويتر الأخيرة من سياقها، بما يعنى أن النظر إلى جسد المرأة كخزين مغريات ومحرمات، هو وليد ثقافة اجتماعية وكهنوتية.

※

Europe, l'Amérique, la guerre. Réflexion sur la médiation européenne

(أوروبا .. أمريكا .. الحرب)

Etienne Balibar, 2003, Eur 15,00
La Decouverte.



منذ أن أعلنت أمريكا الحرب الأبدية على الإرهاب وبلاد محور الشر، ارتفعت أصوات عديدة في الولايات المتحدة تطالب أوروبا بلعب دور الوسيط، لشد زمام التسلح الأمريكي وإقناع أمريكا بإعادة النظر في الحقوق الديمقراطية الأساسية، وحماية العالم أجمع من مصير مدمر من الصراع والعداء بين الحضارات. وفي هذا الصدد، يرى الخبراء أن التفاوت الضخم بين وزن أوروبا الاقتصادي وضعفها العسكري، يطيح بأي أمل في إمكانية تأثيرها في الشئون الدولية.

وفي ضوء الدروس المستفادة من التاريخ، يطرح مؤلف الكتاب اقتراحات لإعادة النظام العالمي:

- تأصيل أمن جماعي دولي.
- الدعوة من جديد لنزع السلاح العالمي بشكل مرحلي محكم.
- إنشاء اتحاد أوروبي - متوسطي كوسيلة لتقليل عوامل التفرقة بين الحضارات المختلفة.

*

Gazelle

(غـــــــزال)

Rikki Ducornet
Knopf, 2003, 208PP., $ 21,00



تدور أحداث الرواية في قاهرة الخمسينيات، حول فتاة أمريكية في الثالثة عشرة تعيش بين أبوين غير متوافقين.

يعمل الأب أستاذًا في جامعة أمريكية في الوقت الذي يتعذب فيه من جراء تصرفات زوجته التي تترك الأسرة لتعيش حياة مستهترة في فندق مع عشاقها.

يهرب الأب من عذابه بالتعمق في دراسة تاريخ الحرب ولعب الشطرنج. أما الفتاة المنطوية إليزابيث بطلة الرواية فتقوم برعاية والدها وتتأزم علاقتها بأمها، بينما تجد الراحة في عوسها بشخصية رمسيس رجب، صديق والدها الوسيم، الرقيق، الذي يعمل في صناعة العطور الشرقية.

يذكر أن ريكي ديكورنيت روائية أمريكية وفنانة تشكيلية، عاشت لمدة سنة في مصر أثناء طفولتها.

كما قضت بعض الوقت في الجزائر وفي كوبا، موطن أبيها.

ولها رواية سابقة عن مصر بعنوان «اللبان المصري».

*

It's Not About the Bike: My Journey Back to Life

(ليس عن الدراجة: رحلتي في العودة إلى الحياة)

Lance Armstrong
Penguin Putnam, 2000, (2003 Paperback) $ 8.40



يعرف المتابعون لرياضة سباق الدراجات، وخاصة بطولة فرنسا الدولية الشهيرة، صاحب هذه السيرة الذاتية لانس أرمسترونج. ولكن قصة هذا الرجل لا تكمن فقط في كونه بطل العالم في سباق الدراجات، فإن بطولته الحقيقية تتكشف حين يعرف القارئ أنه أصيب بمرض سرطان البروستاتا وهو في أوج البطولة، وظل يحارب المرض المميت بأمل في الحياة لا يتعدى الأربعين في المائة كما قال له الأطباء. وفي ظرف عامين، عانى خلالهما آلامًا قاسية، تغلب لانس أرمسترونج على السرطان، وعاد مرة أخرى إلى سباق الدراجات بعد توقف. وكانت عودته إلى البطولة بعد المرض أكثر توهجًا وقوة، حيث فاز ببطولة فرنسا الدولية لسباق الدراجات لخمس مرات متتالية كان آخرها بطولة العام الحالي.

في هذا الكتاب يقوم لانس أرمسترونج بسرد قصة حياته بمساعدة أحد الكتاب الصحفيين، وبالرغم من أنه لم يتخط الثانية والثلاثين من عمره إلا أن لديه دروسًا كثيرة عن: الإرادة والتحدي والصمود والتعامل مع الأزمات المؤلمة، وصناعة النجاح.

*

St. Petersburg: Russia's Window to the Future: The First Three Centuries

(سان بطرسبرج: نافذة روسيا على المستقبل.. القرون الثلاثة الأولى)

Arthur George
Taylor, 2003, 632PP., $ 35.00



لعبت مدينة سان بطرسبرج دورًا مركزيًا في الحياة الروسية على مدى سنوات طويلة تغير خلالها لقبها من بطرسبرج إلى بتروجراد إلى لينينجراد ثم إلى بطرسبرج مرة أخرى.

ويوافق هذا العام احتفال روسيا بمرور ثلاثمائة عامًا على إنشاء هذه المدينة التي بناها بطرس الأكبر في أوائل القرن الثامن عشر لتكون مدينة روسيا الغربية، أي الحديثة.

يسرد الكتاب التاريخ الثقافي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي لهذه المدينة العريقة عبر القرون الثلاثة الماضية، من دورها الثقافي الرائد في القرن التاسع عشر، مرورًا بالثورة البلشفية عام ١٩١٧ والحرب العالمية الثانية (عندما عانت لينينجراد من حصار نازي رهيب).

ويقول المؤلف إنه لا توجد مدينة معاصرة عانت ما عانته بطرسبرج في النصف الأول من القرن العشرين، من عنف وتشتيت وثوران مستمر.

*

Musulmanes et modernes. Voile et civilization en Turquie

(مسلمات عصريات.. الحجاب والحضارة في تركيا)

Nilufer Gole La Decouverte, 2003, Eur 8,00



عصرية غربية من ناحية، وتقاليد إسلامية من ناحية أخرى، يبدو اجتماع هذين العالمين غير منطقي وغير ممكن في ظل الظروف الراهنة. فالحجاب الإسلامي الذي يغطي المرأة المسلمة يبدو للكثيرين رمزًا على قدر كاف من القوة للفصل والتمييز بين العالمين. ويرى الكاتب نيلوفر جول في ذلك ضيقًا للرؤية والفكر، من وجهة نظره كمفكر يحاول تقريب صورة المجتمعات المسلمة المعاصرة والحركات الإسلامية للآخرين. وفي هذا الإطار لم يجد الكاتب أفضل من تركيا مثالًا لاختبار الملاحظات والاستفاضة في التحليلات، فهي دولة تشكلت بقدر كبير بفعل التحديث والعلمانية. وعلى الرغم من ذلك الاتجاهات الحديثة فيها، تنمو على أرضها مثلها مثل أي مكان آخر تيارات إسلامية قوية. ومن داخل ذلك المزيج العجيب، يظهر نمط جديد للمرأة.. فمن خلف الحجاب نجد امرأة مسلمة.. متعلمة.. متمدنة.. وفي الوقت ذاته محافظة. فالمرأة في تركيا، مشاركة في الحياة السياسية والعملية. فقد خرجت من النطاق الخاص، لترسي من جديد أسس تنظيم المجتمع المسلم والتعاون بين طرفيه: المرأة والرجل، في محاولة عصرية لوضع خط النهاية للفكر الذي ساد طويلًا بأن مرادف الإنسان المتحضر هو الإنسان الغربي.

*

All The Shah's Men.. An American Coup And the Root of the Middle East Terror

(كل رجال الشاه.. انقلاب أمريكي وجذور الإرهاب في الشرق الأوسط)

Stephen Kinzer
John Wiley and Sans, 258PP., $ 24.95



تمر العلاقات الأمريكية الإيرانية حاليًا بمرحلة جزر شديدة ويرشح بعض الخبراء هذه العلاقات لمزيد من التدهور. ويحاول مؤلف هذا الكتاب ستيفن كينزر استكشاف جذور هذه العلاقة من خلال التركيز على الانقلاب الذي رتبته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ضد رئيس الوزراء الإيراني الدكتور محمد مصدق بسبب تأميمه لصناعة البترول التي كانت تسيطر عليها بريطانيا، وهو التأميم الذي أرعب الولايات المتحدة خوفًا من امتداد النفوذ الشيوعي إلى إيران. ولم يكن انقلاب المخابرات الأمريكية هو الأول في محاولات واشنطن تغيير الأنظمة. وقد نجحت بعض هذه المحاولات ومنها الانقلاب على مصدق وفشل البعض الآخر إلا أن كل هذه المحاولات كان لها نتائج كبيرة وبالطبع في مقدمتها الانقلاب على مصدق. ويركز المؤلف وهو مراسل صحفي

للنيويورك تايمز على هذا الانقلاب ويعيد ترتيب الصورة للقارئ ومن خلال هذا الترتيب لايترك مجالاً للشك بأنه تعتقد أن هذا الانقلاب كان عملاً خاطئاً وهو يظهر تعاطفاً كبيراً مع مصدق فهو زعيم متعلم يتحدث عن المضطهدين ويخاطر بحياته لتحسين أحوال شعبه. ويشير المؤلف إلى أن شركة البترول الإيرانية البريطانية والتى أصبحت بعد ذلك تسمى شركة بريتش بتروليوم كانت تدير شئون إيران عديداً من السنوات وإن كانت المزايا والأرباح كانت تذهب إلى مالكى الشركة والحكومة البريطانية ولا يستفيد منها الشعب الإيرانى.

لقد أزال الانقلاب حكم مصدق ووضع إيران بحزم فى المجال الأمريكى إلا أن المؤلف يقول إن النتائج على المدى القصير كانت جيدة لأمريكا لكن على المدى الطويل كان لابد من دفع ثمن كبير. وهذا ما حدث بعد ذلك وخاصة مع قيام الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩ ثم انهيار العلاقات تقريباً خلال السنوات الماضية.

European Control and Egypt's Traditional Elites-A Case Study in Elite Economic Nationalism

(السيطرة الأوروبية والنخب التقليدية فى مصر. دراسة حالة فى الوطنية الاقتصادية لدى النخبة)

Abdel Aziz Ezzelarab

Edwin Mellen Press, 2003, 272PP., $ 109.95



تتناول هذه الدراسة مرحلة مهمة من التاريخ الوطنى والاقتصادى فى مصر، حيث تركز على تفاصيل الحركة الوطنية التى قامت بها النخب الاقتصادية المصرية فى مواجهة التدخل الأوروبى فى الفترة التى سبقت الاحتلال الأجنبى وبالتحديد فى عام ١٨٧٩. فبينما تعددت الدراسات التاريخية التى رصدت ثورة أحمد عرابى (١٨٨١ - ١٨٨٢)، إلا أنه لم يلتفت كثيراً للحركة السياسية التى قام بها كبار ملاك الأرض والأعيان والتى تضمنت صياغة ما عرف بمشروع «اللائحة الوطنية» الذى كان بمثابة برنامج سياسى ومالى للخروج من أزمة الديون الأجنبية وحماية مصر من خطر السيطرة الأوروبية. كذلك تكشف الدراسة عن الدعاوى المبكرة لإنشاء بنك وطنى مصرى تسبق دعوة طلعت حرب بما لا يقل عن أربعين سنة.

الكتاب للدكتور عبد العزيز عز العرب الذى درس فى جامعتى تورونتو وماكجيل، والآن هو يدرس الاقتصاد فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

The Abuse of Man: An Illustrated History of Dubious Medical Experimentation

(إساءة استخدام الإنسان: تاريخ مصور للتجارب الطبية المشبوهة)

Wolfgang Weyers

Ardor Scribendi, 2003, 756PP., $ 35.00



يتناول الكتاب قضية مخيفة، هى الاستخدام المنظم والمسىء للبشر كحيوانات تجارب فى خدمة الأبحاث الطبية. وهو يقدم مسحاً تاريخياً لمثل هذه الممارسات الشنيعة منذ عصر التنوير وإلى يومنا هذا.

وأثناء العرض التاريخى يناقش الكتاب قضايا عديدة متعلقة بتفاعل الطب مع المجتمع، مثل تسبب الديانة المسيحية فى توقف الأبحاث الطبية لمدة ألف عام، وظهور فكرة «حقوق المرضى» فى عصر التنوير، وإنشاء قواعد نورمبرج عام ١٩٤٧ المتعلقة بالتعامل الأخلاقى مع المرضى، ثم بداية الوعى بحقيقة استغلال الأقليات العرقية كفئران معامل.

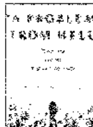
ولسوء الحظ يقول المؤلف «إن هذه الحركات لم تنشأ إلا بعد أن ظلت مثل هذه الجرائم الإنسانية تمارس على مدار القرنين التاسع عشر والعشرين دون مقاومة تذكر». وهو يكتب قائمة مفصلة بعمليات مؤسفة من حقن الأيتام والمرضى العقليين بمواد مسببة للوفاة تمت فى القرن التاسع عشر، إلى تجارب على الأطفال استمرت حتى الستينيات من القرن العشرين. ويضم الكتاب صوراً للأطباء الذين ارتكبوا هذه الجرائم، ويصدم القارئ حين يعرف أن كثيراً منهم أفلت من العقاب، مثل العشرون طبيباً الذين تعرضوا للمحاكمة بسبب تورطهم فى تجارب طبية مورست فى الحرب العالمية الثانية، وذلك فى إطار ما سمى «بمحاكمة نورمبرج الثانية، محاكمة الأطباء».

A Problem from Hell

(مشكلة من الجحيم)

Samantha Power

9.99 £ Flamingo, 656PP.



يطرح هذا الكتاب أسئلة كثيرة عن المذابح التى وقعت فى العالم خلال السنوات القليلة الماضية ولم تستطيع الدول القوية منعها أو الحد من آثارها وعندما كانت تتدخل كان ذلك يحدث بعد فوات الأوان حدث ذلك فى البوسنة ورواندا وغيرهما.

ونتيجة لهذا الفشل فى وقف المذابح خاصة خلال العقد الأخير يتساءل عمال الإغاثة والصحفيون والأكاديميون والسياسيون.. ما الخطأ الذى حدث؟ ولماذا تحدث هذه المجازر البشعة فى هذا العالم المتحضر؟

لقد اعتقد كثيرون أنه مع نهاية الحرب الباردة فإن المجتمع الدولى سيكون قادراً على التحرك بكل الوسائل بما فى ذلك القوة العسكرية لوقف هذه الانتهاكات غير المسبوقة إلا أن ما حدث كان مخيباً للآمال.

والمؤلفة التى عملت مراسلة صحفية فى البلقان وهى حالياً المدير التنفيذى لمركز «كار» لحقوق الإنسان فى جامعة هارفارد، تبدأ عملها بالحديث عن مصطلح المذبحة وتتحدث عن تلك المذابح التى وقعت خلال القرن العشرين مثل مذابح الأرمن على أيدى الأتراك والهولوكوست ضد اليهود ثم مذابح الخمير الحمر فى كمبوديا، ثم ما حدث فى العراق خلال الثمانينيات والمشكلة فى بعض الأحيان تتمثل فى أن بعض الدول لا تعترف بمثل تلك المذابح.

وعلى سبيل المثال فإن الخارجية الأمريكية ظلت ترفض إطلاق وصف المذبحة على قتل ٨٠ ألف شخص فى رواندا عام ١٩٩٤.

وقبل ذلك لم تبد الولايات المتحدة اهتماماً بالمذابح التى ترتكبها الخمير الحمر فى كمبوديا نظراً لأنهم كانوا يواجهون الفيتناميين أعداء واشنطن.

وتستنتج المؤلفة بأن الولايات المتحدة رفضت بشكل مستمر أن تتحمل المخاطر لمواجهة المذابح بل إنها أيدت فى بعض الحالات الأنظمة التى نفذت تلك المذابح كما فى حالتى الخمير الحمر وصدام حسين بعد حملة الأنفال ضد الأكراد فى نهاية الثمانينيات من القرن العشرين.

وتعيد المؤلفة إلى الأذهان كيف أن اليمين الأمريكى له تاريخ طويل فى رفض أن ترتيبات تقوم بها الأمم المتحدة ويوجد بها قضاة أجانب أو مسئولون غير أمريكيين يتخذون قرارات وموقف إدارة الرئيس الحالى جورج بوش ضد المحكمة الجنائية الدولية معروف.

Late Beethoven.. Music, Thought, Imagination

(بيتهوفن.. الموسيقى والأفكار والتخيل)

Maynard Solomon

University of California press, 327PP., $ 29.95



وضع مؤلف هذا الكتاب عدة مؤلفات عن بيتهوفن الموسيقى العبقرى أشهرها كتاب «بيتهوفن» الصادر عام ١٩٧٧ و«مقالات بيتهوفن» الصادر عام ١٩٨٨ والكتاب الجديد يقدم تحليلاً ودراسة معمقة عن السنوات الأخيرة لبيتهوفن أى فى الفترة من ١٨١٣ حتى وفاته عام ١٨٢٧.

وهو يركز على تحول الموسيقى الأشهر فى التاريخ الإنسانى إلى آفاق جديدة من الرومانسية بعد سنوات من الكلاسيكية.

إلا أن المؤلف، وهو أستاذ جامعى أمريكى، يرى أن من الصعب وضع تصنيفات جامعة مانعة لتوجهات بيتهوفن فى مرحلة من المراحل. حيث إنه حتى فى مرحلة الرومانسية يقول المؤلف أن بيتهوفن تجاوزها أى الرومانسية إلى الحداثة.

ويرسم المؤلف صورة شخصية لبيتهوفن تظهر فيها تناقضات هذا الموسيقى بل والفوضى التى ألمت بحياته لكنه استطاع رغم ذلك أن يبدع فناً موسيقياً مازال يمتع الملايين ويستمر كذلك فى المستقبل. كما يقدم شرحاً عميقاً لأعمال بيتهوفن فى هذه المرحلة المتأخرة من عمره والتى سبقها مباشرة وضعه السيمفونية السابعة (١٨١١ - ١٨١٢) التى تمثل ذروة أعماله. ورغم كل المعلومات التى فى الكتاب وكذلك الكتب الأخرى التى وضعها المؤلف عن بيتهوفن إلا أنه مازال يشعر أن لديه الكثير عنه.

نون

أصوات من الصمت

* تغريني أصوات الصمت المطبقة من حولي.. تستدعيني، تستدرجني، تلح علي كلما أصخت السمع التماسًا لما يؤنس الوحشة ويقطع السبيل على آلاف الأصوات الزاعقة من كل اتجاه. كل إنسان يتطلع إلى لحظات يتحرر فيها من قيد الحصار المفروض عليه.. من الأوامر والنواهي التي تحدد له هويته وعلاقاته بالآخرين.. هذا السعي الإنساني المطلق إلى الحرية، إلى الخروج من إلف العادة وروتينية الحياة اليومية، إلى التمسك بفرديته والإبقاء على ذاتيته وخصوصيته، لا يتأتى بغير الارتماء في أحضان الهدوء الشامل، والانفراد بالذات. هنا يغوص الإنسان داخل نفسه، ويتحرر من عبودية الآخر، ينفصل عن البيئة المحيطة به ليعيد الاتصال بنوازعه الداخلية ومشاعره الحميمة. وفيما بين الوصل والفصل تتبدى حقائق الأشياء، ويتعرى الإنسان من طبقات الزيف المتراكم فوق مشاعره كما تتراكم الأدران فوق جسم الدابة. وما بين المحو والإثبات تتجلى مفردات الحياة ومظاهر الطبيعة في أعماقها الحقيقية وأبعادها غير المرئية. وويل للإنسان الذي تحرمه ظروف الحياة ووطأة العيش من فسحة الروح وقدرتها على الانطلاق من سجن الأحاسيس والمشاعر والأفكار الجاهزة المنهلة التي تعيش داخله كل يوم وكل ساعة وكل لحظة! وويل للإنسان الذي تغتصب ضجة الحياة اليومية أحاسيسه، وتغرقه أصوات الزحام، وينهكه الجري المتواصل في دروب الحياة بغير لحظة توقف وتأمل!

ولكن من الذي يستطيع أن ينفي المسافة بينه وبين الآخرين.. أن يحتفظ بعقله ومداركه سليمة، وهو في نفس البقعة من الزمان والمكان؟ إن أسوأ عقاب ينزله المجتمع بالإنسان حين يحكم عليه بالبقاء داخل مساحة ضيقة مغلقة مع آخرين. إنها أسوأ من السجن الانفرادي.. فمع الآخر يصبح السجن مضاعفًا: سجن الروح والجسد. وأكثر الثورات والمذابح الوحشية التي تقع في السجون تنشأ من احتكاك الأجساد واختلاط الأصوات وامتزاج الروائح والأبخرة المتصاعدة من اكتظاظ البشر واختناقهم في زنزانة واحدة. هنا يفقد الإنسان كرامته وإنسانيته وتتفجر أحط ما فيه من غرائز حيوانية. وربما كان أسوأ أنواع التدمير والتخريب هو ما ينجم عن إطلاق العنان للجموع الهادرة المتلاحمة التي تتملكها غريزة القطيع. وإذ يفلت الزمام منها، فإنها ترتكب من أعمال القتل والتدمير وإشعال الحرائق ما يصعب تصور صدوره عنهم كأفراد في الظروف العادية. وذلك على نحو ما يحدث في أعقاب مباريات كرة القدم من أحداث شغب. غير أن انفلات السجين المكبل بقيود الحرمان من الحرية وتمرده على سجانيه، يختلف عن انفلات الفرد المكبل بقيود الروادع القانونية والاجتماعية. كلاهما فعل من أفعال التحرر من الآخر، ولكن الأول تحركه آلة قمع عمياء لا تعرف العدل، والثاني تحركه الرغبة في اختبار حدود حريته التي قد تصطدم بحرية الآخرين. الأول يشيع في مجتمعات التخلف والقهر والطغيان، والثاني يظهر في مجتمعات أكثر التزامًا بالقانون والنظام. في الأول تظهر المعتقلات الجماعية، والسجون الجماعية، والمقابر الجماعية التي يكون الموت فيها هو فعل التحرر الوحيد الممكن. وهو ما يشيع في عالمنا الثالث. حيث التشبيه الوحيد للصمت هو صمت القبور. أما صمت الهدوء الذي تعرفه الذات الحرة القادرة على الاحتفاظ بمسافة بينها وبين الآخرين، والتواؤ بالطبيعة، واستئناس الوحشة، واصطناع الوحدة، فهو ما يبلغه الفرد في المجتمعات المتقدمة بدرجات متفاوتة من التحقق.

وعندما أقدم دافيد كيلي خبير التسلح البريطاني على الانتحار بعد أن ضاقت حلقات الحصار حوله لتكشف عن مسئوليته في إزاحة الستار عن التأويل المتعمد لخلق الذرائع لشن الحرب ضد العراق. لم يكن الانتحار فعلاً من أفعال التمرد على السلطة، بقدر ما كان انعتاقًا من مشاعر الذنب وتحررًا من عذاب الضمير، ونقضًا للروابط التي ألزمته أمام رؤسائه بالاشتراك في تزييف الأدلة.. كان تحريرًا متعمدًا للذات، ورأبًا للصدع الداخلي، ولملمة للشظايا التي تناثرت تحت وطأة صراع نفسي عميق. ولم يكن ذلك ليتحقق إلا في أجواء الحرية وامتلاك الإرادة التي لا يستمدها صاحبها إلا من داخله. وهنا تصبح إرادة الصمت الذي يمليه الموت بمثابة تعبير قوي عن الاحتجاج. فهو ليس صمتًا أخرس مقطوع اللسان عاجزًا عن الكلام، بل هو صمت زاعق يخرق الآذان.. يقدم احتجاجًا سياسيًا وإنسانيًا بليغًا إلى العالم كله.

هذا النوع من الحرية يبدو غامضًا غير مفهوم لنا في معتقداتنا ومجتمعاتنا. ولكنه يتكرر في المجتمعات الأخرى التي توازن بين الحرية والمسئولية، وتكافئ بينهما، وتحاسب عليهما. وباستثناء حالات فردية في التاريخ العربي، التزم المثقف العربي الصمت إما خوفًا من السلطان أو طمعًا في هباته. وفي كلا الحالين كان الصمت إمعانًا في العبودية وليس فعلاً من أفعال التحرر والاحتجاج.

لا شيء يقارب هذا النزوع الكامن إلى الحرية.. إلى التحرر من عبودية الآخر، غير التجربة الحزينة للتوأم الإيرانى: هاتين الفتاتين الملتصقتين: لاله ولادان، اللتين أمضيتا ٢٩ عامًا ملتصقتين. لا تملك إحداهما فكاكًا من الأخرى. كل منهما لها شخصيتها المستقلة التي تختلف عن شقيقتها اختلافًا كاملاً.. حتى في لحظات الفرح والحزن، والجوع والعطش. فيما تفضله هذه من طعام وتعافه تلك. إحداهما تكتب باليمنى والأخرى باليسرى. ولكن الطبيعة التي لا يملك الإنسان وضع نواميسها حكمت عليهما بالبقاء متلازمتين، لا ترى الواحدة منهما وجه شقيقتها إلا في المرآة. إذا تحركت إحداهما فلابد أن تتحرك الأخرى، وإذا غلب النعاس أو الصحو إحداهما فلابد أن تنصاع الأخرى.. أي نوع من العبودية والخضوع والاستسلام للآخر، حكمت به الطبيعة على هاتين الفتاتين؟ وأي طريق للخلاص يملكانه لتحرير الجسد والروح والعقل؟! إنها علاقة ملتبسة غريبة.. هي مزيج من الحب الشديد والكره العميق المتوازن: أشبه بروحين تتصارعان داخل نفس واحدة؟!

ومن هنا يمكن فهم الرغبة الدفينة الجامحة التي تملكتهما للخروج من سجن الجسد، وتصارع الرغبات والمشاعر، والتطلع إلى الفردية والتفرد والانفراد. كلتاهما كانت تبحث عن الخلاص من الأخرى والارتباط بها في وقت واحد.. ولكن بطريقة أخرى. ولهذا لم يكن غريبًا أن تتفق الفتاتان على المخاطرة بالعملية الجراحية لفصلهما. على الرغم من التصاق الدماغين إلى درجة الاندماج.. وعلى الرغم من اليقين شبه القاطع بأن فصلهما قد يعني التضحية بإحداهما أو بكلتيهما معًا.

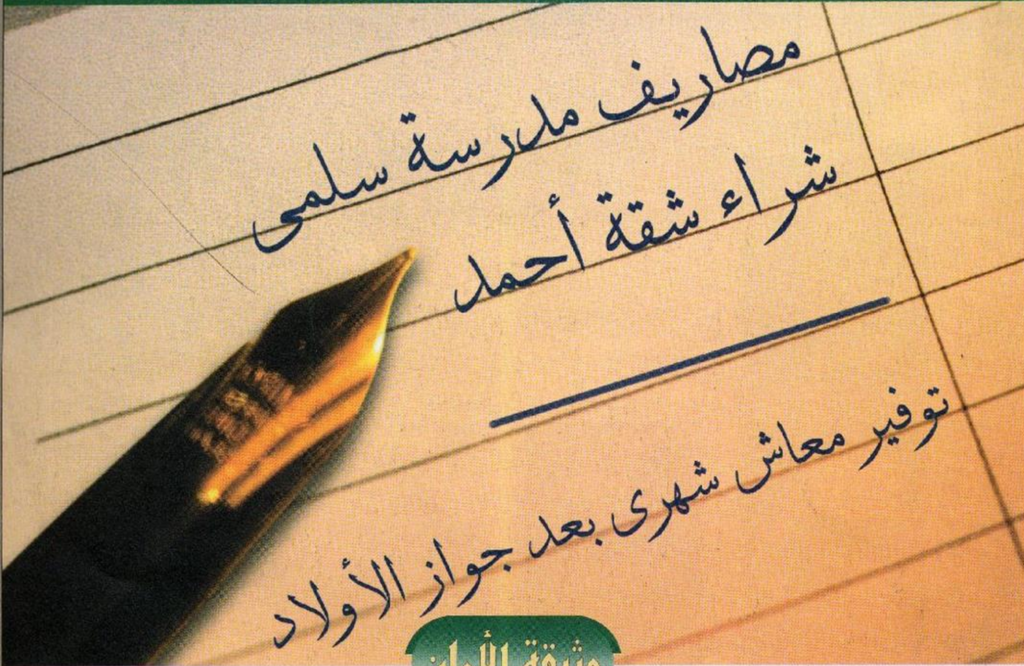
عرفت الأختان التوأم هذه الحقيقة، وأصرتا على الانفصال في رحلة قد تفضي بهما إلى الصمت النهائي والموت بعد رحلة تعيسة في الحياة. وما تعرضت له الشقيقتان في هذه السيرة المضنية هو مثال صارخ على أن سعي الإنسان للتفرد والتحرر من عبودية الآخر هي رحلة شاقة مترعة بالمعاناة والألم.

حين يتأمل المرء فجيعة موت الشقيقتين. وفجيعة انتحار عالم الأسلحة البريطاني كيلي، في ظرفين مختلفين أشد الاختلاف، ولأسباب وبواعث لا علاقة بينها، فلا ينبغي أن ننسى أن سعي الإنسان التواق إلى التفرد يقابله في الحياة العادية سعي لا يقل معاناة وألمًا للاقتراب من الآخر والارتباط به ارتباط المتفتين في فم الإنسان.. هذا الآخر هو نفسه الذي قد يضع حدودًا وقيودًا صارمة على حريتنا، أو يكون سببًا في التحرر والانطلاق والانفصال، بأساليب غير جراحية.. ولكنها، على الأرجح، أشد قسوة ودموية!

سلامة أحمد سلامة



أحدث الإصدارات من
دار الشروق
العرب في مواجهة العدوان
ابن القرية والكُتّاب
ملامح سيرة ومسيرة
يقول المثل العربي
قطعة من أوروبا
رواية
الكوكب الأزرق
MY FIRST WORDS
تطلب من


مصاريف مدرسة سلمى
شراء شقة أحمد
توفير معاش شهرى بعد جواز الأولاد